السلسلة الأكثر مبيعًا في قائمة نيويورك تايمز



الـ100
Book #4

كاس مورجان

ترجمة: أميرة شريف



السلسلة الأكثر مبيعًا في قائمة نيويورك تايمز

الـ100

تمرد



كاس مورجان

ترجمة: أميرة شريف





إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: The 100 (Rebellion)
- العنوان العربي: الـ 100 (تمرد)
- طُبِع بواسطة: Little, Brown and Company
- حُقوق النشر:
Copyright © Alloy Entertainment, 2016
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب
- ترجمة: أميرة شريف
- تحرير: محمد الجيزاوي
- تدقيق لغوي: أسماء أبو المجد
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: فبراير/ 2023م
- رقم الإيداع: 2023/4389م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-232-4




1001
تمرد
مكتبة|1689



إلى قرائي

أشكركم على ترك خيالي يعبر إلى قلوبكم.

يسع دعمكم الكون بالنسبة إليَّ.

الفصل الأول

كلارك

ارتجفت عندما عصفت الريح متخللةً أوراق الشجر الحمراء والذهبية، التي لا تزال متشبثة بالفروع. نادى عليها أحدهم بصوت خافت: «كلارك».

إنه الصوت ذاته الذي تخيلته لمرات لا تحصى منذ قدومها للأرض. سمعته مع خرير ماء الجدول، وصرير الأغصان، ومع كل هَبَّة ريح. أما بهذه اللحظة، لم تعد بحاجة لتُذكِّر نفسها باستحالة الأمر. تسرب دفء إلى صدرها، فاستدارت لتجد أمها تتجه نحوها، حاملةً سلة ملأى بالتفاح من بستان الأرضيين.

وضعت ماري جريفين السلة على إحدى الطاولات الخشبية الطويلة، ثم التقطت تفاحة، وألقتها باتجاه كلارك.

- هل تناولتِ واحدة منها من قبل؟ إنها مذهلة! استغرقنا ثلاثمئة عام في العمل بالهندسة الوراثية، ولم نقترب قط من جعل شيء كهذا ينمو في المستوطنة.

ابتسمت وأخذت قضمة، وهي تجول ببصرها في المخيم الصاخب. حيث يستعد المستوطنون والأرضيون في ابتهاج، من أجل الاحتفال باتحادهم معًا. يحمل فيليكس وإريك صحونًا ثقيلة من الخضراوات المزروعة في حقول الأرضيين، والمُحضَّرة في مطابخهم. بينما يتولى اثنان منهم تعليم أنطونيو كيفية نسج الأغصان لصنع الأكاليل. وعلى مسافة قريبة، انهمك ويلز

في صقل سطح إحدى الطاولات الجديدة مع مولي، التي ابتدأت، في الآونة الأخيرة، التدرب على أعمال النجارة على يد أحد الأرضيين المهرة.

بالنظر إليهم الآن، يصعب تصديق مقدار العناء والأسى الذي تكبده الجميع خلال الأشهر القليلة الماضية. إن كلارك أحد المراهقين المِئة الأوائل الذين أُرسِلوا إلى الأرض، ليكتشفوا إذا ما يمكن للبشر النجاة على ظهر كوكب مُشِع. لكن سفينة الإنزال الخاصة بهم تحطمت، وقُطِع الاتصال بالمستوطنة. كافح المِئة من أجل البقاء على الأرض، فيما أدرك المستوطنون المتبقون أن نظام دعم الحياة لديهم فشل، ووقتهم ينفد. مع تضاؤل مستويات الأكسجين وانتشار الذعر، خاضوا صراعًا مُرًّا للصعود على متن سفن الإنزال، التي لم تحمل للأسف إلا القليل منهم. ذُهلت كلارك وباقي المِئة، عندما هبطت عدة سفن تحمل عددًا قليلًا من المستوطنين. ولم يندهشوا مما أقدم عليه نائب المستشار رودس من تزعُّم حملة غاشمة لسلب السلطة من المراهقين، الذين أصبحوا، بحكم الواقع، قادة شعبهم على الأرض. أسفرت هذه الحملة عن عدة خسائر، من بينها وفاة ساشا حبيبة ويلز، وابنة ماكس، الزعيم المسالم للأرضيين، مما ألهب التوتر المتصاعد بين الأطراف. تعاون الجميع بالنهاية على التصدي لعدو خطير- فصيل عنيف من الأرضيين، أراد القضاء على المستوطنين. أما في هذه اللحظة، يقدم كل فرد أفضل ما لديه للعمل معًا. حتى رودس، استقال من منصبه وساعد في تشكيل مجلس جديد، يتألف من المستوطنين والأرضيين معًا.

اليوم، لن يُحتفَل فقط بالاتحاد، بل سيُحتفَل بالمجلس المُشكل، الذي سيقود شعبًا موحدًا. كما أصبح بيلامي أحد الأعضاء الجدد، وطُلِب منه إلقاء خطاب في افتتاح الحفل.

قالت والدتها، وهي تتطلع إلى شاب من المستوطنين يساعد فتاتين من الأرضيين، لمَدِّ طاولة الطعام بالأطباق المعدنية وأدوات المائدة الخشبية: «يبدو أن كل شيء يجري على ما يرام. كيف يمكنني المساعدة؟».

- بذلتِ بالفعل الكثير للمساعدة. حاولي الاسترخاء فقط.

تراجعت خطوة للوراء، متأملةً ابتسامة والدتها الدافئة التي تألفها. رغم مرور شهر على لمِّ شملهم، لا يزال يُدهشها أمر والديها، اللذين لم يُحكَم

عليهما بالتعويم في الفضاء خارج المستوطنة بسبب الخيانة، كما قيل لها، فقد أُرسِلا، بدلًا من ذلك، إلى الأرض، حيث واجها عددًا لا حصر له من الأخطار، إلى أن عادا إلى جوارها مجددًا. منذ أن أعدَّ والداها نفسيهما عضوين مؤثرَين بالمخيم، وليس مجرد طبيبَين، وجَّها كامل اهتمامهما، جنبًا إلى جنب مع الطبيب لاهيري، للمساعدة في إعادة البناء وعلاج المصابين إثر الهجمات التي شنَّها الفصيل الأرضي العنيف. من جانب آخر، عملت كلارك بصحبة ويلز وبيلامي على توطيد الروابط بين المستوطنين وجيرانهم من الأرضيين المسالمين. إنها تستمتع للمرة الأولى بحياة يعمها السلام والأمل. هذا هو الوقت المناسب تمامًا للاحتفال بعد شهور من الخوف والمعاناة.

عبر والدها ساحة المخيم باتجاه الطاولات الخشبية المقطوعة من الجذوع، توقف ملوحًا لجاكوب، أحد المزارعين الأرضيين، الذي بادله أحسن الترحيب، ثم استدار ليركز نظره على ابنته، موجهًا لها ابتسامة عريضة. فيما التفَّت ذراعه اليسرى حول حزمة من أكواز الذرة الطازجة، زاهية الألوان.

وضع ديفيد جريفين أكواز الذرة على الطاولة، وحكَّ لحيته الجديدة الكثيفة، ناظرًا إلى السماء.

- يقول جاكوب إن المطر سيتوقف لفترة وجيزة، وسنرى منظرًا رائعًا للقمر الليلة. على ما يبدو، سيظهر القمر متوهجًا عند الأفق. يطلق عليه جاكوب اسم «قمر الصياد»، إنه أقرب لما اعتاد أجدادنا تسميته «قمر الصياد».

في طفولتها، اعتادت الشعور بالسأم عند اضطرارها إلى سماع محاضرات والدها اللانهائية عن الأرض، لكن بعد مرور عام حزين على فقدان والديها، معتقدةً أنهما ماتا، وجدت قلبها منشرحًا وممتنًّا لسماع ثرثرته الحماسية.

ومع ذلك، انتقلت ببصرها في أثناء حديثه نحو الأشجار المصطفة بعيدًا. حيث رأت شخصًا مألوفًا طويل القامة، يخرج من الغابة، وتتدلى قوس على إحدى كتفيه.

قالت في شرود، بابتسامة حالمة: «أتعلم، يروق لي وقْعُ هذا الاسم.. «قمر الصياد»».

تباطأت خطوات بيلامي عندما وصل إلى الساحة، وأخذ يجول ببصره في المخيم. رغم الأحداث التي مرَّا بها معًا حتى هذه اللحظة، فإن بحثه عنها بهذه الطريقة يجعل قلبها يدق في سعادة. مهما يلقي هذا الكوكب البري الخطير على كاهليهما، سيتصديان له معًا، وسيصمدان معًا.

عندما اقترب، لمحت حزمة مُعلقة على ظهره. إنه طائر بديع، له ريش لامع منبسط، وعنق طويل متدلٍّ. تشير ضخامة الطائر أنه يكفي لإطعام نصف الحضور الليلة. اجتاحتها موجة من الفخر بصديقها المقرب، فعلى الرغم من أن مخيمهم يسع أكثر من أربعمئة فرد، بما فيهم عدد لا بأس به من حراس المستوطنة المدربين، لا يزال بيلامي الصياد الأمهر بين الجميع.

سأل والدها على عجل، وهو يكاد يقفز فوق الطاولة ليلقي نظرة أفضل: «هل هذا ديك رومي؟».

أردفت والدتها، التي اقتربت منها، ترفع يدها لتقي عينيها من الشمس، فيما تراقب بيلامي: «رأيناها في الغابة الشتاء الماضي، باتجاه الشمال الغربي. اعتقدتُ أنها طواويس ذات ريش أزرق. لم نستطع الإمساك بأحدها على أي حال، لسرعتها على الإفلات منا».

قالت كلارك: «يمكنه أن يصيد أي شيء».

ثم توردت وجنتاها، عندما رفعت ماري أحد حاجبيها عن علمٍ بمشاعر ابنتها.

في البداية، اعتراها بعض القلق بشأن تقديم بيلامي لوالديها، لم تستطع التكهن بردة فعلهما تجاه أي شخص غير صديقها السابق، ويلز. ولكن ما بعث على الارتياح، أنهما رحبا به على الفور. لقد جعلتهما الصدمات التي مرَّا بها أكثر تعاطفًا، حتى إنهما بالغا في الاهتمام بسلامته، عندما أمضى ليلة في كابينتهم، وهاجمته كوابيس مفزعة أرَّقت نومه، وجعلته يرتجف ويتعرق: فرقة إطلاق النار، الرباط الملتف حول عينيه، صرخات أوكتافيا التي رجَّت أوصاله. في ليالٍ عصيبة كهذه، يسرع والداها لتحضير خلطات الأعشاب اللازمة لمساعدته على النوم، بينما تمسك بيده، دون كلمة تحذيرية واحدة، من أيٍّ منهما.

وها هما الآن يلوحان له في ابتهاج. تنم خطواته عن خطبٍ ما، كما أن وجهه شاحب، ويستمر بالنظر إلى الخلف في اضطراب بعينين مذعورتين.

توقف والدها عن الابتسام ما إن وصل إلى جوارهم، ومدَّ ذراعيه ليحمل عنه الطائر، فإذا ببيلامي يلقي إليه حمولته، دون أن يُبدي أي ملاحظة لشكره.

قال بأنفاس متقطعة، كأنما ظل يركض طوال الطريق: «أحتاج للتحدث معكِ يا كلارك».

قبل أن تتمكن من الرد، أمسك بمرفقها وجذبها بعيدًا عن حلقة النار، باتجاه حافة الكبائن التي بُنيت حديثًا. تعثرت في جذر شجرة بارز، فأسرع يسندها ليُجنبها السقوط، بينما يشدها وراءه.

حررت ذراعها من قبضته قائلة: «توقف يا بيلامي».

تلاشت النظرة الجامدة، وعاد لطبيعته للحظة وجيزة.

- آسف. هل أنتِ بخير؟

أومأت: «نعم، بخير. ماذا بك؟».

عاودته نظرة الذعر نفسها، بينما يتفقد المخيم بعينيه.

- أين أوكتافيا؟

- إنها مع الصغار هناك.

لقد أخذت أخته الصغار للعب عند الجدول في الظهيرة، لتمنعهم من التطفل على استعدادات الاحتفال. أشارت كلارك إلى صف الأطفال متشابكي الأيدي، الذين يعبرون الساحة باتجاه الطاولات، تقودهم أوكتافيا ذات الشعر الأسود المميز.

- أترى؟

استرخى بيلامي قليلًا عند رؤية أخته، لكن شحب وجهه مجددًا، عندما عاد ينظر إليها.

- لاحظتُ شيئًا غريبًا في أثناء خروجي للصيد.

عضت شفتها، لتكتم تنهيدة ضجرة. ليست هذه هي المرة الأولى التي يقول لها مثل هذه الكلمات، بل ربما للمرة العاشرة هذا الأسبوع. ومع ذلك ضغطت على يده وأومأت برأسها: «أخبِرني».

تأرجح من جانب إلى آخر، وقطرات العرق تتصبب عند أطراف شعره الداكن الأشعث.

- منذ نحو أسبوع، رأيت أكوامًا من أوراق الشجر بمحاذاة درب الغزلان، بامتداد الطريق إلى جبل العاصفة. بدا الأمر.. غير طبيعي.

كررت وراءه، وهي تبذل قصارى جهدها لتحافظ على هدوئها: «غير طبيعي. أتقصد أكوامًا من أوراق الشجر بالغابة، في الخريف؟».

ثم بدأ يثرثر مبتعدًا كأنما يتحدث إلى نفسه: «نعم، أكوام كبيرة من أوراق الشجر، حجمها أكبر أربع مرات من أي أوراق أخرى حولنا. تكفي الواحدة منها ليختبئ داخلها شخصٌ ما. لم أتوقف للتحقق منها. كان يجب أن أفعل. لماذا لم أفعل؟».

أردفت ببطء: «جيد.. دعنا نعد إلى هناك وننظر بأنفسنا الآن».

قال في اضطراب، وهو يمرر أصابعه في شعره: «لقد اختفت. تجاهلتها أمس، واليوم اختفت، كأنما أراد أحدهم استخدامها لسببٍ ما، ثم، لم يعد بحاجة إليها».

آلمها المزيج الظاهر على وجهه ما بين القلق والشعور بالذنب. تعرف سبب تلك التعبيرات. فبعد وصول سفن الإنزال، حاول نائب المستشار رودس تنفيذ حكم إعدام بيلامي على جرائم، من المفترض أنه ارتكبها على متن السفينة، مما اضطره إلى توجيه كلمة وداع مُوجعة لأحبائه، قبل أن تُوضع العصابة على عينيه، ويُجَر أمام فرقة الإعدام. رأى الموت بعينيه، واعتقد أنه سيرحل تاركًا أوكتافيا وحيدة، وكلارك منهارة. حتى توقف تنفيذ الحكم فجأة، نتيجة هجوم وحشي من قِبل فصيل أرضي. وعلى الرغم من أن رودس قد أصدر قرارًا بالعفو عنه، فإن هذه الأحداث الأخيرة تركت أثرًا في نفسه. لم تتفاجأ من إصابته بنوبات من جنون الارتياب، ولكن على ما يبدو، أن حالته تزداد سوءًا.

استطرد بنبرة أعلى وأكثر اضطرابًا: «عندما نضيف هذا إلى كل الأمور الأخرى: آثار عجلات كبيرة عند النهر، والأصوات التي سمعتها من وراء الأشجار...».

قاطعته، وهي تلف ذراعيها حول خصره: «تحدثنا عن هذا الأمر من قبل. ربما تعود آثار العجلات إلى العربات التي يمتلكها أهل قرية ماكس. وبالنسبة إلى الأصوات...».

قال محاولًا الابتعاد عنها، ولم تسمح له: «سمعتهم بالتأكيد».

قالت، وهي تشدد قبضتها، فيما أرخى كتفيه مسندًا ذقنه على رأسها: «أعلم ذلك».

ابتلع ريقه: «لا أريد أن أثير ذعر...».

لم يستطع أن يكمل جملته مجددًا. فتابع: «كما قلتُ لكِ. هناك خطب ما. لقد شعرتُ به من قبل وأشعر به الآن. علينا تحذير الجميع».

ألقت نظرة من وراء ظهرها نحو الحياة الصاخبة بالمخيم. يحمل كلٌّ من ليلا وجراهام دلاء الماء، ويمازحان أحد الأولاد الصغار الذي يكافح مع حمولته، فيما يمُرَّان بجانبه. يضحك الأطفال الأرضيون الذين جاؤوا من قريتهم، لجلب المزيد من الطعام من أجل وليمة الليلة. يتجاذب الحراس أطراف الحديث، بينما يتبادلون مواقع الحراسة.

قال ملوحًا بيده في استهجان: «يجب أن نحذرهم قبل أن يبدأ هذا.. الاحتفال، أو مهما يُطلق عليه».

- إنه عيد الحصاد.

لقد أحبت فكرة المشاركة في تقليدٍ يعود إلى سنين بعيدة في الماضي، قبل حدوث النكبة (الحرب النووية) التي دمرت الأرض، وأجبرت المستوطنين الأوائل على الهروب للفضاء من أجل إنقاذ الجنس البشري.

تابعتْ: «قال ماكس إنه احتُفِل بهذا اليوم لأجيال في الماضي، ومن الجيد أن ننظر للحظة...».

صاح مقاطعًا: «هذا ما تنتظره الجماعة المنشقة من الأرضيين. إذا أرادوا مهاجمتنا، فالفرصة سانحة لهم اليوم، ونحن مجتمعون كلنا معًا. نجلس كالفرائس في انتظار صائدها».

قفز طفل صغير خارجًا من كابينته، وما إن رأى بيلامي حتى بُهت وأسرع عائدًا للداخل. أخذت يديه المرتجفتين، وظلت ممسكةً بهما، محدِّقة إلى عينيه: «أثق بك، وأثق بأنك رأيت ما رأيت».

أومأ برأسه منصتًا، رغم أنه لا يزال يتنفس بصعوبة، فتابعت: «عليك الوثوق بي كذلك، عندما أقول لك إنك بأمان هنا، كلنا بأمان. إن الهدنة التي قطعناها على أنفسنا الشهر الماضي لا تزال قائمة. يقول ماكس إنهم رحلوا جنوبًا بالفعل، بمجرد أن خسروا المعركة، ولم يُرَ أحد منهم بعدها».

- أعلم، لكنني رأيت أكثر من كومة من الأوراق، وأصابتني قشعريرة بمؤخرة رقبتي...

- إذن لنستبدل بذلك الشعور آخر.

شبَّت على أصابع قدميها، وقبَّلته عند فكه، ثم طوقت رقبته.

بالرغم من شعورها بارتخاء أعصابه أخيرًا، قال: «لا يبدو الأمر بهذه البساطة».

مالت للوراء مبتسمة: «لدينا اليوم حدث سعيد، يا بيل. إنه احتفال كبير بك كونك عضوًا جديدًا. فكِّر في خطابك. ركِّز على الاستمتاع بكل الطعام الذي اصطدته من أجلنا».

- المجلس...

ثم أغمض عينيه وزفر بقوة.

- صحيح، لقد نسيت أمر هذا الخطاب اللعين.

شبَّت مرة أخرى لتترك قبلة قوية على خده القاسي.

- ستبلي بلاءً حسنًا. إنك تحسن مخاطبة الناس.

ابتسم وهو يلف ذراعيه حول خصرها، ويجذبها إليه: «صحيح، وأُحسنُ فعل ذلك أيضًا».

ضحكت وهي تضربه ممازحة: «نعم، رائع. والآن، لنساعد في تحضير العشاء معًا، قبل أن تذهب لاجتماع المجلس. يمكننا الاحتفال على انفراد في وقت لاحق».

تبعها، وذراعاه ما زالتا حول خصرها، فيما تشعر بأنفاسه الدافئة على رقبتها، متمتمًا: «أشكرك».

حاولت إخفاء قلقها الذي يتصارع مع دقات قلبها، وأردفت بلطف: «لا عليك».

ربما استطاعت اليوم أن تتعامل معه، كما فعلت البارحة، ولعدة أيام سابقة. لكنها لم تعد تقدر على تجاهل حقيقة أن حالته تزداد سوءًا.

الفصل الثاني

ويلز

اشتدت عضلات ظهره عندما دفع بآخر وعاء من عصير التفاح إلى عربة نقل المؤن. صارت يداه بعد أيام من التحضير لوليمة الحصاد جافتين ومتشققتين، وقدماه متورمتين ومنهكتين. كل جزء بجسده يتألم. لا يستطيع التفكير إلا في المزيد.. المزيد من الألم، والمزيد من الانشغال بالعمل. يريد أن يصرف عنه تلك الأفكار المظلمة التي تنخر عقله.. يريد أن ينسى.

عبرت بجوار ويلز امرأة من الأرضيين تحمل رضيعًا على ظهرها، وابتسمت في وجهه. أومأ لها في احترام، ووقعت عليه الذكرى كالصاعقة: رأى ساشا تلاعب الطفل نفسه بعود قمح، بينما تعلق أمه الغسيل ليجف خارج كابينتها. ينسدل شعر ساشا الأسود على كتفيها، وتومض عينيها الخضراوين، وهي تثير غيظه، لأنه يخاف الاقتراب من الأطفال أكثر من خوفه من مواجهة رودس ومقاتليه.

صرَّ على أسنانه، وجثا على قدميه ليرفع العربة، والحمل الثقيل لتلك الذكرى في محاولة لطمسها. ثم توجه بها نحو الطريق الرئيسي للقرية باتجاه حافة الغابة، حيث تجمع الآخرون وبجانبهم الحمولة الجاهزة للنقل.

رغم أن بول يعمل خارج ساعات مناوبته، فإنه لا يزال يرتدي زي الحراسة، ويقف فوق صخرة عالية ليشرف على القرويين الأرضيين، والمستوطنين الذين تطوعوا لنقل اللوازم إلى المخيم من أجل وليمة الاحتفال.

صفَّق بول قائلًا: «حسنًا يا رفاق، لقد أجريتُ جولة شاملة في الغابة، والطريق آمن. على سبيل الاحتياط، كونوا على استعداد لأي طارئ».

ثم أشار إلى الطريق الجديد الممهد: «والآن يمكنكم الانطلاق، وابقوا على حذركم».

لمح ويلز عددًا من القرويين يوجهون نظرات قلقة إلى بول، فهو لا يزال وافدًا جديدًا، وأحد المستوطنين الذين انحرفت سفينة الإنزال خاصتهم بعيدًا عن مسارها. استطاعت مجموعته أن تشق طريقها إلى المخيم، بمجرد أن انتهت المعركة الدموية مع الفصيل الأرضي المنشق.

بالكاد تعرَّف على بول في المستوطنة، حيث فاجأته قدرته القتالية وشخصيته الحماسية كونه جنديًّا مدربًا يمكن الاعتماد عليه، أكثر من اعتباره قائد فرقة. لكن الحال قد تغير بشكل واضح خلال العام الماضي. رغم ما حدث للمجموعة الناجية، ما بين تحطُّم سفينتهم وحتى وصولهم للمخيم، استطاع بول أن يصبح زعيمًا غير رسمي عليهم، يتحكم بزمام أمورهم.

- من لديه منكم حمولة ثقيلة، يحرص على عدم إجهاد نفسه. إذا أُصبتم، ستصبحون هدفًا سهلًا أمام العدو.

اتسعت حدقتا ويلز. لقد زال خطر الأرضيين منذ فترة طويلة. يبدو أن بول يشعر بالإحباط لأنه لم يكن جزءًا من الأحداث المثيرة، ويبالغ الآن للتعويض عما فاته. ليس لديه أي قدرة على احتمال هذا، وخاصة بعدما شهد الثمن الحقيقي على أرض المعركة.

عبس بول قليلًا: «ما الذي تنوي فعله بهذا السكين يا جراهام؟ أعتقد أنه لم يُطلَب منك الصيد اليوم».

أجابه جراهام، ساحبًا سكينه الطويل من غمده، ومصوبًا إياه بوجهه: «بأمر مَن؟».

للحظة، فكر ويلز في التدخل. رغم أن ثورة جراهام قد هدأت خلال الأشهر القليلة الماضية، لن ينسى أبدًا تلك الشرارة المتقدة بعينيه، عندما حاول خداع المِئة وتحريضهم على قتل أوكتافيا بسبب سرقة دواء.

قبل أن يُقدِم على أي تصرف، أخذ جراهام نفسًا قويًا، وأعاد سكينه إلى غمده، ثم تسكع في مشيته، وأومأ برأسه باتجاه إريك، الذي اقترب من الجهة الأخرى.

عندما وصل إريك إلى جوار ويلز، خطا نحو العربة، وقال مازحًا: «هل تحتاج مساعدة؟ لا أظنك تريد أن تجهد نفسك وتصبح هدفًا سهلًا في مرمى العدو».

أجبر ويلز نفسه على الابتسام: «بالطبع، أشكرك. سأحضر المزيد من الحطب، ثم أتبعك مباشرةً».

استدار نحو كومة الحطب خلف الجانب البعيد من الكبائن، وقد ثقل فكه من أثر جهد التظاهر، وسقطت ابتسامته الزائفة. كل جزء به وكل خطوة يخطوها مثقلة بالحزن هذه الأيام. رغم ذلك، استمر في طريقه، حتى وصل، ورفع الفأس مُقطِّعًا الجذوع. تكونت لديه كومة كبيرة من الحطب، جمعها بعناية، متجاهلًا الشظايا التي علقت بكفيه، وحزمها في حمالة ظهر، ورفعها على كتفيه.

أصبحت القرية خاوية في أثناء انشغاله بالتقطيع. فقد غادر الجميع من أجل الاحتفال وتناول الطعام مع الآخرين، يحتفلون من أجل الحصاد، من أجل بداية جديدة، من أجل مجتمع أكبر، وعودة للسلام.

زفر بحدة، وشعر بتهاوي كتفيه، وأحزمة الحمالة تمزق قميصه وتحتك بجلده، بينما يتأمل أرجاء القرية الخالية. هذا جيد. ربما سيصل إلى المخيم متأخرًا، لكن بحطب وفير للمواقد والمشاعل. سيمكث هناك بجوار شعلة النار ويحافظ على شدة اشتعالها. سيشغل نفسه بهذه المهمة، فهي عذره المثالي لتجنب الاحتفال، والصخب، ومئات الوجوه المألوفة، التي تتمنى وجود من فقدوا بصحبتهم هذه الليلة. يتذكرون كل أحبائهم، الذين فقدوهم في المستوطنة، يتذكرون كل مَن.. مات بسببه.

إنه الشخص الذي حلَّ صمام حجرة الضغط على متن السفينة، ودفع للهلاك المئات من الناس. لم يتمكنوا من العثور على مقاعد لهم في سفن الإنزال، ولقوا حتفهم ببطء خانق، بما فيهم والده المستشار. لقد فعل ذلك لينقذ كلارك، مع هذا، كلما ضبط نفسه يفكر فيما فعل، يجفل ويحجم عن

التفكير. كل عمل أجراه أدى إلى الدمار والموت. لو علم أحد المستوطنين بما فعل، لن يحرموه فقط من الاحتفال معهم، بل يطردونه شر طردة من مجتمعهم بأسره. إن حدث، فهذا ما يستحق.

زفر مرة أخرى، وشعر بنفسه يترنح في وهن. ما إن استدار ليضبط وضع الحمل الثقيل على ظهره، أبصر بابًا مواربًا لإحدى الكبائن. إنها كابينة ماكس. منزل ساشا.

لم يعرف ساشا إلا لبضعة أسابيع، لكن تراكمت سنوات من الذكريات بينهما خلال تلك الفترة القصيرة. لقد أحب الوجود إلى جوارها بالقرية. لم تكن ساشا مجرد ابنة زعيم الأرضيين، بل جزء لا يتجزأ من نبض الحياة الذي يجري بعروق عشيرتها. هي أول من تطوع لجمع معلومات حول المِئة، رغم أن هذه المهمة عرَّضت حياتها للخطر. وهي كذلك أول من مدَّ يد العون، وتعاطف، وأفصح عن رأي ينافي التقاليد، دفاعًا عن الجانب الأقل حظًّا من القوة. دومًا ما كانت فتاة نافعة محبوبة، وموضع تقدير من الجميع. والآن.. قد رحلت.

أسقط حمولته على الأرض، متجاهلًا قرقعة الحطب، وتعثر في خطواته كالناعس في اتجاه الباب. مرَّ ما يقرب من شهر منذ آخر مرة دخل فيها إلى هذه الكابينة. تجنب، خلال تلك الفترة ما أمكنه، مشاركة الذكريات أو التفاعل مع الأرضيين الحزانى. أما في تلك اللحظة، فلا أحد بالجوار، وكابينة ساشا تجذبه إليها.

دار بعينيه في عتمة الداخل، ناظرًا إلى الطاولة المزدحمة بأجزاء إلكترونية مهملة، المطبخ الصغير، جناح نوم ماكس، وإلى.. ركن ساشا الخاص بالخلف هناك. تأمل سريرها، لحافها، حزمة الزهور الجافة، والطائر المحفور على الجدار الخشبي. لا يزال كل شيء في مكانه.

تهادى إلى سمعه صوت عميق: «لم أستطع تغيير أي شيء هنا».

استدار ليجد ماكس واقفًا على بُعد خطوة منه، يتمعن في هدوء إلى ما وراءه، وقد تهذبت لحيته بعناية، وارتدى ملابس أنيقة. رغم أنه يبدو متهيئًا بالكامل لدوره الرسمي في احتفال الليلة، لا يراه في هذه اللحظة زعيم

الأرضيين، ولا عضو المجلس الموحد الجديد، بل يراه رجلًا مجروحًا، والدًا لا يزال في موجة حزنه الأولى على فقدان ابنته.

أضاف ضاحكًا بنبرة خافتة: «لقد رسمتْ ذلك الطائر في الخامسة من عمرها، كما تعلم. اعتقدت أنه عمل مذهل لفتاة في مثل عمرها، أو حتى في عمر آخر. لو أننا في العالم القديم، لأصبحت فنانة».

قال ويلز بهدوء: «لو أنها بيننا، لأصبحت أيًّا ما تريد».

أومأ ماكس برأسه، مسندًا يده على الجدار، ليحفظ توازنه. كما لو أن شيئًا بداخله قد تصدع للتو.

جال بخاطره: *لا ينبغي أن أكون هنا.*

قبل أن يتمكن من التعذر والانصراف، استقام ماكس وخطا إلى داخل الكابينة، مشيرًا إلى ويلز أن يتبعه. قال مفتشًا مكتبه المستعمل عن قصاصة ورقية، مسجلًا عليها بعض الكلمات المتشابكة: «أعددت بضع كلمات لألقيها في مستهل الحفل، لكنني نسيت الورقة هنا. بالكاد تبقت مقاعد شاغرة حول طاولة الحفل. ربما تجد واحدًا لنفسك، إذا أسرعت إلى هناك».

- لا يهم. لست متأكدًا من أنني سأحضر الحفل.

حدق ويلز نحو الأرضية، لكنه شعر بعينَي ماكس مركزتين عليه. قال بنبرة لطيفة يشوبها الحزم: «لديك العديد من الأسباب التي تجعلك ضمن الحضور، مثلك مثل أي شخص آخر يا ويلز، فهذا الشعب شعبنا، اتحد بسببك. إنه حي بسببك».

نظر إلى ركن ساشا، بينما مال ماكس برأسه ليلقي نظرة خاطفة من وراء ظهره، متتبعًا وجهة نظر ويلز. ثم قال بنبرة أكثر لطفًا: «أتعلم.. بطريقةٍ ما، أشعر أن ساشا تشاركنا الاحتفال. إن عيد الحصاد من الاحتفالات المفضلة لديها».

اقترب بضع خطوات، وضغط بيده على كتفه، وقال: «تمنتْ أن تستمتع بالعيد مثلها».

شعر ويلز بوخز بعينيه، فأشاح بنظره جانبًا، وأومأ برأسه. فيما شدَّ ماكس على كتفه قبل أن يتركه. ثم قال له، وهو يخطو خارجًا: «سأجلس إلى

رأس الطاولة مع باقي أعضاء المجلس. سأوفر لك مكانًا إلى جانبي. لا أظنك ترغب في تفويت خطاب بيلامي الرسمي، أليس كذلك؟».

ابتسم رغمًا عنه، متصورًا أخاه، عضوًا بالمجلس، ويلقي خطابًا أمام عدد كبير من الناس. لقد اكتشفا مؤخرًا أنهما أخوان غير شقيقين، ومنذ ذلك الوقت تطورت علاقتهما في مدة قصيرة، وتحول البغض المتبادل، الذي لم يغفله أحد، إلى ولاء حقيقي ومودة.

تبع ماكس إلى الخارج، وأغلق الباب برفق خلفه، وبصره معلق على صورة الطائر. يصعب تصديق أن فتاة صغيرة قد نحتتها. لقد تمكنت بحرفية أن تأسر طائرًا في منتصف تحليقه، وتجعله يبدو رشيقًا ومبتهجًا. كما فعلتْ تمامًا، في مشهد نادر، عندما وضعت كل مسؤولياتها جانبًا، وأطلقت لنفسها عنان حريتها. أدرك كم هو محظوظ أنه شهد هذا الجانب من شخصيتها، صرختها الفَرِحة وهي تسقط في البحيرة من ارتفاع شاهق، لا يجرؤ على صعوده، وعيناها الخضراوان الضاريتان تلينان في نعومة بعد قُبلة. لقد أضاع عليهما تهوره عمرًا مديدًا من اللحظات الثمينة. مع هذا، لم تقدر نفسه على محو الذكريات المحفوظة بأعماق قلبه.

قد لا يكون لديه حق في الاحتفال الليلة، خاصةً بعد كل ما اقترفه، وكل ما أُضطر إلى فعله. لكن يظل لديه الكثير ليمتن من أجله.

الفصل الثالث

جلاس



لفَّهما الصمت كغطاء إضافي يدفئ سريرهما. فرغ هذا الجانب من المخيم تمامًا، حيث ذهب الجميع للمساعدة في التحضير لعيد الحصاد. في حين، فضَّلت جلاس أن يمضيا فترة الظهيرة معًا، في كابينتهما الصغيرة على أطراف المخيم، في محاولة للترويح عن لوك، ولتخفيف وطأة حزنها. إنها فرصة نادرة أُتيحت لهما. فمنذ أن شُفي من الجرح المميت الذي أُصيب به، أصبح أكثر انشغالًا من أي وقت مضى. يغادر عند الفجر، ويعود مرهقًا بعد غروب الشمس، بعرج رجله، الذي يجعل قلبها يتألم.

حاول لوك أن يجلس مستندًا إلى مرفقه، لكنها جعلته يعدل عن ذلك، وهي تمازحه وتطبع قبلات على كتفه، وصدره. ابتسم، بينما تُقبِّل ذقنه ورقبته: «يجب أن أذهب إلى نوبتي»، ثم داعب ظهرها بأصابعه في انسجام، «سأتأخر إذا استمررتِ في فعل ذلك».

اقتربت منه قائلة: «لن يمانع أحد. إنك تنجز في نوبتك أكثر من أي أحد آخر. لقد بنيت نصف هذا المخيم بمفردك...»، أمالت رأسها إلى الجانب، وفي ابتسامة زهو أضافت: «أيها المعماري النابغ».

صمم لوك نموذجين مختلفين للكبائن: كبائن صغيرة للمبيت من أجل العائلات، ذات غرفة نوم علوية، وكبائن أخرى للمبيت الجماعي، بها مساحة واسعة تصلح لمبيت الحراس أو الأطفال اليتامى. بينما خصص لهما كابينة مميزة. تبعد عن الكبائن الأخرى، لها نافذة صغيرة تطل على ساحة المخيم،

والبقعة المميزة التي تشرق عليها الشمس في هذا الوقت من العام. كما تتوفر بها مدفأة، ومطبخ صغير، مزود بطاولة وكراسي. لم يعترض أحد على عيشهما معًا، وهو تغيير جيد بعد كل الوقت الذي قضياه في إخفاء علاقتهما في المستوطنة، بسبب الفارق الاجتماعي في البداية، ثم بسبب جلاس نفسها، التي اعتُبِرت مجرمة هاربة.

- أشرفتُ فقط على بعض أعمال البناء. لقد عمل الجميع بجِد على نحو لا يُصدَّق. علاوةً على ذلك، ليس لدي عمل في البناء، بل مناوبة حراسة هذا المساء.

اقترب منها وترك أصابعه تتخلل شعرها الأشقر الملتف حول وجهها كحجاب، ثم أطلق تنهيدة عند رقبتها. تعرف أن هذه التنهيدة تعني أن وقت الراحة قد نفد. ابتسمت وجلست في وضع مستقيم، مما أتاح له فرصة لينهض من السرير، ويشرع في ارتداء ملابسه.

سألته، وهي ترتدي قميصها وتبحث بأصابع قدميها عن سترتها الصوفية الثقيلة، التي تركتها على الأرض منذ بضع ساعات؛ هديتها من أصدقائها الأرضيين الجدد: «لماذا تذهب في مناوبة حراسة ولدينا عيد نحتفل به؟».

حتى داخل الكابينة، وصل البرد إلى حد التجمد، ولم تغرب الشمس بعد. لقد اقترب فصل شتائهما الأول هنا معًا. الشتاء على الأرض ساحر. يغمرها الحماس عندما تتخيل حطبًا تشتعل فيه النار على صفحة ثلجية بيضاء في الليالي الشتوية الباردة، بينما يغمرها الدفء بين ذراعَي لوك.

ارتدى حذاءه مجيبًا: «ينبغي لأحدهم الحراسة. وأنا جاهز لفعل ذلك».

تمدد متأوهًا قليلًا، وصدرت طرقعة عن ظهره. ثم جلس بجوارها على السرير.

- لن تشعري بالوحدة. يمكنكِ الجلوس برفقة كلارك وويلز.

لكزته بكتفها، وقالت بلطف: «سأتدبر أمري».

لكنها، بالحقيقة، تمر بفترة عصيبة لتتعود الحياة في المخيم، على عكسه تمامًا. فقد استطاع كونه عضوًا ذا شأن بين فريق المهندسين على متن السفينة، أن يثبت مقدرته على الفور. أما هي، فقدمت أفضل ما لديها،

وبذلت أقصى جهدها، لكنها ليست قائدة بالفطرة مثل صديق طفولتها ويلز. كما لا توجد لديها مهارة واضحة مثل كلارك، التي أنقذ تدريبها الطبي عددًا لا يُحصى من الأرواح. ورغم أنها لم تعامل جلاس إلا بطيب ولطف، لا تستطيع إنكار شعورها بالانزعاج وزميلة دراستها القديمة لا تزال تنظر إليها كونها فتاة ضيقة الأفق، لا تهتم إلا باقتناء الحُلي والنميمة مع صديقات سطحيات مثلها.

نهضت وأجبرت نفسها على الابتسام، مشيرةً باتجاه الباب: «دعنا لا نتأخر. لقد أخبرتُ كلارك أنني سأساعدها في توزيع الطعام على المرضى بالمشفى، لذلك.. هيا لننطلق».

قال مازحًا، ورفع كفه في تحية عسكرية: «تحت أمرك يا سيدتي».

دفعته خارج الباب، فيما يضحك، رافعًا يديه في وضع استسلام. ثم راقبته يتقدمها مهرولًا.

أخبرها الطبيب لاهيري أن حالته قد تحسنت سريعًا بأعجوبة، رغم أنها لا تزال ترى رمح الأرضيين مغروسًا في ساقه. لقد جرَّته إلى بر الأمان، وعبرت به الأنهار والغابات، حتى عادا إلى المخيم في الوقت المناسب للحصول على الدواء الذي يحتاجه للشفاء. وصف ويلز تصرفها بالشجاع، لكنها في الحقيقة، تصرفت بدافع الخوف واليأس. فبعد كل ما مرَّا به معًا، وكل ما ضحَّيا به، لم تستطع تخيُّل الحياة دونه.

التفت ينظر إليها من وراء ظهره، وكأنه يتساءل عن سبب تلكُّئها. اتسعت ابتسامتها صائحة: «أحاول استيعاب الأمر فقط».

رفع حاجبيه، فتخطت المسافة بينهما على عجل، حتى وصلت إلى جانبه، تأبطت ذراعه، والتصقت به، وأخذت تُجاري خطواته خطوة خطوة. بمجرد أن وصلا إلى ساحة المخيم، ألقت لمحة خاطفة مبدئية على استعدادات الحفل: دائرة مكونة من طاولات طويلة مُزينة بأكاليل زهرية وخضراء مضفرة، وكمية كبيرة من الطعام لم تشهدها منذ هبوطها على الأرض.

قال لها بحسرة: «بعد إعادة النظر فيما قلتِ، أظن أنكِ على حق. يبدو أنه ظلمٌ بعض الشيء أن أذهب للخدمة في ليلة كهذه».

- أعدك أن أحتفظ ببعض الطعام من أجلك، وكذلك بعض الحلوى.
- لا داعي للحلوى.

قالها، وهو يميل برأسه، لامسًا ظهر عنقها بشفتيه، قبل أن يهمس بأذنها ثم تابع: «أريد شيئًا واحدًا فقط، ولستُ قلقًا من نفاده».

جعلتها أنفاسه الدافئة على جلدها ترتجف.

مرَّ بول بجوارهما، يهز رأسه في ازدراء: «احذر، أيها الجندي! إن الانخراط في علاقات حميمية في أثناء الخدمة ممنوع منعًا باتًّا. هذا هو البند رقم 42 من عقيدة الجايا».

ثم أطلق ضحكة عالية، وغمز بعينه قبل أن يكمل طريقه.

اتسعت عينا جلاس، بينما اكتفى لوك بالابتسام، قائلًا: «لا يزال بول يحتفظ بعقله، ولكنه يحتاج لبعض الوقت ليعتاد الأمر».

جذبت ذراعه: «إنك تُحسِن الحديث عن أي أحد. دومًا ما ترى الجيد في كل من حولك».

هذه إحدى خصال شخصيته التي أُعجبت بها، على الرغم من أنها تعمي عينيه في بعض الأحيان عن رؤية حقيقة الناس، مثلما حدث مع كارتر، صديقه المريب وزميل غرفته في المستوطنة.

عند طرف الساحة، يقف برج الحراسة، الذي بُنِيَ حديثًا، حيث يحتفظ الحراس بأسلحتهم. إنه أكثر المباني تحصينًا في المخيم. تثاءبت ويلا، أصغر الحراس سنًّا، وهي تخرج من البرج. ثم صاحت، مهرولةً ببطء باتجاههما: «هل ستعمل في الدورية التالية، يا لوك؟ الغابة هادئة تمامًا. لا توجد علامات على أي حركة. كما لا توجد أسلحة لحراستها».

عبس وجهه: «ماذا تقصدين؟».

هزت ويلا كتفيها: «على ما أعتقد، نُقِلت جميع الأسلحة. لقد تركت بندقيتي على الرف أمس، ولم أجدها هناك اليوم».

تراجع خطوة: «حسنًا.. أشكرك يا ويلا. سأكتشف ما الذي يحدث».

شبَّت جلاس على أطراف قدميها لتُقبِّل لوك مرة أخرى، ثم اعتدلت وراقبته يتجه إلى البرج. بمجرد أن توارى داخله، جعلتها رائحة شواء اللحم تستدير،

فاتجهت نحو طاولات الحفل التي شغلت بالحضور سريعًا. في منتصف الساحة، وقف أعضاء المجلس الجديد معًا، يتحدثون في ابتهاج، في حين اتخذ بيلامي جانبًا بعيدًا عنهم، مُلقيًا نظرات خاطفة من وراء ظهره بعصبية، من حين لآخر. وفي الجهة الأخرى، رأت كلارك تتجه نحو المشفى، وتحمل بين ذراعيها بعض الأطباق.

انطلقت تركض باتجاهها، حتى وصلت إلى جانبها. قالت وهي تحاول حمل أحد الأطباق عنها: «هل يمكنني المساعدة؟».

نظرت إليها كلارك، في إنهاك واضح: «أستطيع حملها. لكن هل يمكنكِ أن تُسديني معروفًا؟ أتستطيعين الإسراع إلى البحيرة وجمع بعض زهور الكاموميل من هناك؟ يحتاج أحد مرضانا إلى النوم، وهذه الزهور تتطلب وقتًا طويلًا لتتخمر».

تتوق جلاس لتصبح ذات فائدة هنا، لذا أسرعت تجيبها: «بالتأكيد. كيف تبدو هذه الزهور؟».

- إنها زهور بيضاء صغيرة. إذا عثرتِ عليها، أحضِري ما أمكنكِ منها. اقطفيها من الجذور.
- فهمت، وأين أجد هذه البحيرة؟
- على بُعد نحو عشر دقائق سيرًا على الأقدام شرقًا. اتجهي نحو قرية الأرضيين، وعندما تصلين إلى شجرة الصنوبر، استديري، ثم استمري في التقدم بضع خطوات، وبعدها انعطفي يسارًا عند شجيرات التوت البري.
- معذرة، ما هي أشجار الصنوبر؟

ظهر بعض الضيق على وجه كلارك المرهق.

- تلك التي لها أوراق مدببة تشبه الإبر.

أومأت جلاس برأسها: «نعم. وبالنسبة إلى شجيرات التوت البري هل لديها...».

- في الواقع، لا تهتمي للأمر. سأذهب بنفسي.
- لا، لا بأس. سأجدها.

بالتأكيد، جعلها لوك تراها في إحدى المرات.

تنهدت كلارك: «أشكركِ، من الأفضل أن أحضرها بنفسي. يمكنكِ مساعدتي في فرصة أخرى».

أسرعت مبتعدة، تاركةً جلاس واقفة بمفردها، ووجنتاها تشتعلان إحراجًا. تتساءل متى سيختفي شعورها بأنها دخيلة، أو أسوأ من ذلك، أنها حمل ثقيل.

من بعيد، رأت ماكس يرفع يده عاليًا، فهدأت الغمغمات الحماسية مما سمح لها أن تسمعه. رحب بجميع الحضور، وأوضح أن هذا التقليد قد تطور على مر القرون، ومع ذلك، ظل فرصة احتفالية لتبادل الشكر فيما بين الناس.

- ولذلك، دعونا جميعًا نستغرق لحظة للتفكير في النعم التي بين أيدينا، ونشعر بالامتنان لما نشهده الآن، والعطايا التي أثْرت ماضينا.

اهتز صوته فسكت عن الكلام، مما بعث بوخزة ألم بصدرها. لم يتسن لها معرفة ساشا، لكنها تعرف حسرة الفراق. ففي كل ليلة قبل أن تنام، تعاودها ذكريات محفورة بعقلها: والدتها وهي تدفع نفسها لترتمي عليها في سفينة الإنزال لحمايتها، وبقعة الدم الزاهية على قميصها، التي أخذت تتمدد وتتمدد حتى أظلمت عينيها.

غلب تصفيق حاد مفاجئ على صوت ماكس. كما نهض العديد عن مقاعدهم، وبات من الصعب متابعة ما يحدث. على ما يبدو، أن ماكس يعانق ويلز.

أخذت نفسًا عميقًا، واتجهت ببطء نحو التجمهر. لم تستطع أن تقدم يد المساعدة، ولكن يمكنها الاكتفاء بالانضمام إلى الحفل. ما إن اقتربت من الطاولات، سقط عند قدميها مخروط صنوبري كبير من فرع معلق بالأعلى. دون تفكير، ركلته بعيدًا كما تفعل عند اللعب مع الأطفال، غير أنه ارتد ثانيةً وسقط على بُعد أمتار قليلة.. ثم انفجر.

ضرب عينيها وميض ساطع، وكأن العالم بأسره لم يبق منه سوى ذلك الضوء الباهر. لحقته ريح عنيفة ارتجت لها الأرض. لم يمهلها الوقت فرصة لتميز هذا الصوت الهادر كالرعد، قبل أن يخترق أذنيها صراخ حاد. دُفن

وجهها في التراب، تقطعت أنفاسها، لا تشعر إلا بهواء خانق له مذاق دخاني. شدَّت نفسها ونهضت متأوهة، وجسدها ينتفض.

المخيم يحترق. تخلصت من شظية حارقة علقت بخدها، في اللحظة التي دوى فيها انفجار آخر في جانب بعيد من المخيم، بالقرب من برج الحراسة. اندفع الناس يصرخون ويركضون. جثت على ركبتيها، ومدت ذراعها لتساعد من سقط بجانبها على الأرض.. لتدرك أن من تحاول الإمساك به مجرد يد مقطوعة. تراجعت صارخة. شعرت بالغثيان وبمرارة بحلقها، ابتلعتها بصعوبة، جاهدت لتقف على قدميها، وهي تصرخ منادية: «لوك! لوك!».

لم تستطع تحديد اتجاهاتها، ودارت حول نفسها عدة مرات، قبل أن تدرك السبب. إن برج الحراسة الذي تبحث عنه لم يعد موجودًا. لقد تحول إلى كومة من الخشب المحترق، كما احترقت المنطقة بأكملها من حوله. إن البناء الذي تركت عنده لوك قد تدمر.

تقدمت مترنحة نحو الأنقاض، تكافح جسدها المخدر من أثر الصدمة. فقدت الحس بأي شيء، فيما عدا ذلك الفزع الذي يسري بعروقها. حاولت الصراخ، ولم تقدر أن تُخرِج صوتًا.

في اللحظة التي ظنت فيها أنها على وشك الانهيار تحت ثقل خوفها وألمها، لمحت جسمًا مألوفًا يخترق سحابة الدخان. لوك. إنه بخير، لم يكن بالبرج. التقت أعينهما عبر الساحة، وانعكست نظرة الارتياح على وجهه بقلبها. حينها حدق فيما وراءها، واتسعت عيناه رعبًا. لم تسمع ما قال، لكنها متأكدة أنه قال لها: «اهربي».

استدارت لتلقي نظرة خاطفة، فرأت رجلًا طويل القامة، حليق الرأس، يرتدي ثيابًا بيضاء غريبة، ما إن اقترب منها، وخزها بإبرة في رقبتها. استحال العالم حولها إلى ضوء أحمر متوهج، ثم إلى وميض أبيض، ثم إلى سواد تام. كأنما سقطت في حفرة بلا قاع.

الفصل الرابع

بيلامي

يصرخ الناس من حوله، يهربون، ويتساقطون، بينما لا تراوده إلا فكرتان فقط: مستحيل أن هذا ما يحدث الآن، و.. ظل لدي حدس به. لن يهنأ أحد بالأمان على الأرض أبدًا.

ثم شق الضباب أمام عينيه أشد مخاوفه ظلمة. *كلارك.. أوكتافيا.. ويلز.* حاول من مكانه عند طاولة المجلس، أن يبحث بعينيه خلال الساحة التي حجبها دخان كثيف. بالكاد استطاع تمييز وجه أحد، وعيناه تحترقان.

- أوكتافيا!

تمزَّق حلقه صائحًا، لكن ضاع صوته وسط الهرج والجلبة. تقدم للأمام مترنحًا. يجب أن يستمر في البحث حتى يجدهم.

- كلارك! أين أنتِ؟

فيما وراء الصرخات المذعورة، اخترق سمعه صوتٌ ارتعدت له أوصاله. *طلق ناري.* رغم ما أصابه من الخوف والفزع، تساءل في نفسه عن غرابة ما يحدث. إن الجماعة المنشقة التي داهمت مخيمهم المرة الماضية، ليست لديهم أسلحة نارية.

التفَّت يد قوية حول معصمه، أوقعته أرضًا على وجهه.

- بيلامي! انخفِض!

وجد فيليكس جاثمًا تحت طاولة خشبية بجوار خمسة أو ستة أجسام أخرى ترتجف رعبًا. قال لاهثًا: «الطلقات قادمة من الغابة.. يا إلهي.. يا إلهي. لا يزال إريك هناك. ذهب ليجلب المؤن من القرية. هل تستطيع رؤيته؟».

توقف سيل إطلاق النار فجأةً، مما بعث برنين حاد بأذنَي بيلامي. يبدو أن المهاجمين يعيدون تعبئة أسلحتهم بالذخيرة.

صاح ماكس من بقعة قريبة: «انبطحوا جميعًا!».

لكن بعد فوات الأوان. فما إن تبدد الدخان، رأى بيلامي امرأة من آركاديا تزحف خارجةً من تحت الطاولة، لتركض نحو الكبائن. وعاد رشق النيران من جديد، فسقطت على ظهرها، وتدفق الدم من رقبتها.

بعد لحظة، أسرعت والدة كلارك إلى جوار المرأة، وضغطت يدها على رقبتها. ثم انبطحت على الأرض، عندما اخترق الفراغ طلقات نارية أخرى.

صرخ: «ماري! عودي إلى هنا!».

رغم معرفته أنه يصيح بلا جدوى. فحتى لو تغاضى جميع الناس عن تعريض أنفسهم للخطر لإنقاذ غيرهم، لن تفعل امرأة من عائلة جريفين ذلك أبدًا. ارتجف قلبه. كلارك. يجب أن يجدها قبل أن تؤدي عملًا متهورًا بدافع حسن النية.

صرَّ على أسنانه، وبدأ بالزحف للأمام على بطنه. ألقى نظرة خاطفة باتجاه الغابة، ولمح ويلز وإريك يعدوان، ويجرَّان معهما أرضيًّا مصابًا نحو حافة الغابة، للاحتماء هناك. قفز على قدميه، وركض باتجاههما. واختبأ إلى جانبهما خلف شجرة كبيرة.

سأل بصوت أجش: «هل رأيتما كلارك أو أوكتافيا؟».

هز ويلز رأسه نفيًا.

ثم سأل إريك، وهو يفحص الساحة بعينيه: «هل رأى أحدكما فيليكس؟».

- إنه يختبئ تحت إحدى الطاولات. كنت بصحبته منذ لحظة. لا تقلق، إنه بخير.

أطلق إريك زفيرًا عميقًا: «جيد».

وجد بيلامي نفسه يسأل، رغم علمه أنه لن يحصل على إجابة: «ما الذي يجري بحق الجحيم؟».

استطاع أن يرى ارتباكه ورعبه منعكسَين على وجهَي إريك وويلز.

رد ويلز بحرقة: «لا أعلم.. مهلًا.. انظر هناك...».

على الطرف الآخر من الساحة، ظهرت أجسام من وراء ظلال الشجر، على الأقل عشرون فردًا منهم. كلهم من الذكور، رؤوسهم حليقة وثيابهم بيضاء. ويسيرون معًا بخطوات عسكرية منتظمة.

تملَّك الرعب قلبه، فيما يتقدم هؤلاء الأشخاص بوجوه خالية من أي تعبير، وكأنهم يرتدون أقنعة، تحركها قلوب باردة. يظل أكثر ما يفزعه هي هذه البنادق التي تلمع تحت شمس ما بعد الظهيرة.

في أثناء تحركهم نحو منتصف الساحة، انفصل عدد قليل منهم عن التشكيل العسكري، يجذبون بعنف المستوطنين والأرضيين المختبئين تحت الطاولات. جرُّوهم من أذرعهم وأرجلهم، عائدين للغابة بصحبة من أسروهم.

اندفع ويلز للأمام قائلًا: «ما الذي يفعلونه؟ لا يمكننا السماح لهم باختطاف أي أحد».

قبض كلٌّ من بيلامي وإريك على كتفيه. همس بيلامي، وقد بح صوته أكثر: «هل جننت؟ سيقتلونك».

- لا يمكننا الاختباء هنا. انظروا إلى ما يفعلون!

أشار ويلز بيد مرتعشة، بعدما انتزع نفسه من قبضتهما، حيث خرجت مجموعة أخرى من الرجال مرتدي الأبيض من كابينة المؤن، يحملون حقائب قماشية كبيرة. أخذ هؤلاء الأوغاد كل مؤنهم، وطعامهم، وحتى الحطب المُخزَّن لتدفئتهم. غير أن الأسلحة التي يستخدمونها تبدو مألوفة. يوجد تفسير واحد لذلك، لقد سرق هؤلاء الغزاة أسلحتهم ليستخدموها ضدهم.

وضع أحدهم يدًا على كتفه، فقفز فزعًا. التفت ليجد والد كلارك، شاحب الوجه، مرتجفًا. وما جعل الدم يهرب من عروقه، ليس شحوب وجه ديفيد، بل يده الملتفة حول زوجته، قابضًا على جنبها، ويداه مغطاتان بالدماء.

سألها بيلامي، بينما أسرع ويلز يسندها: «هل أنتِ بخير؟».

رغم الألم البادي على وجهها، قالت ماري: «نعم. لكنني قلقة بشأن كلارك. من المفترض أنها كانت بطريقها إلى المشفى، عندما بدأت الانفجارات. لا أعرف...».

تهدج صوتها، وتجهمت. فمد يده وشدَّ على ذراعها: «سأجدها. أعدك».

قال ويلز: «سآتي معك».

قال له، وهو يومئ برأسه نحو والديها: «لا، ابقَ معهما. بعد ذلك، اذهب للاطمئنان على المصابين».

يأمل أن يظل هناك من لديه القدرة على تقديم يد المساعدة، إلى أن تنتهي هذه الكارثة.

انتشر الرجال مرتدو الأبيض في الأرجاء. يركل بعضهم الجثث، يبحثون عن الناجين منهم. لا يدري عمن يبحثون على وجه التحديد، وعلى أي أساس يقررون أيهم يتركونه، وأيهم يجرونه معهم. بين الفينة والأخرى، تُطلق رصاصة تصم الآذان، تتبعها صرخات، أو أسوأ من ذلك، يتبعها صمت تام.

استدار راكضًا عبر الغابة باتجاه كابينة المشفى، في الطرف المقابل من الساحة. علَّمته المدة الطويلة التي قضاها في الصيد، أن يتحرك بسرعة دون أن يُصدِر صوتًا، على الرغم من أنه ليس الصياد هذه المرة، بل الفريسة. عرج في طريقه على بعض الناس المختبئين خلف الأشجار، يراقبونه بأعين مرتعبة. ناداه بعضهم، لكنه لم يأبه لذلك. يريد الاطمئنان أولاً أن كلارك وشقيقته بأمان. ثم سيفعل ما أمكنه لمساعدة الآخرين.

استوقفه همس حاد: «بيل؟».

لمح شَعرًا أسود يألفه، مربوطًا بشريط أحمر ممزق. أوكتافيا. رأى أخته جاثمة وراء شجرة بالقرب من حافة الساحة، وذراعاها ممدودتان، لتحمي خلفها أكبر عدد ممكن من الصغار، بعيدًا عن نظر هؤلاء الرجال.

همست له سائلة بنبرة تخلو من أي خوف: «ماذا علينا أن نفعل؟».

قال بهدوء: «انتظري هنا. سأعود من أجلك.“

أومأت أوكتافيا، وهي تهمس للأطفال تطمئنهم.

اقترب من كابينة المشفى، ووجد أن عليه عبور منطقة مكشوفة. لحسن الحظ، لم يأت أحد هؤلاء الغرباء إلى هذا الجانب بعد، لا يزالون متمركزين عند الطرف الآخر بالقرب من كبائن المؤن، حيث طاولات الحفل.

أطلق زفرة طويلة متقطعة، عندما وصل أمام الباب. بدت الكابينة كأنها لم تُمَس بسوء، ولا أثر للغزاة. لكنها ساكنة على نحو مُقلِق. كُسِر غصن خلفه، فدار حول نفسه، ضاغطًا قبضتيه. لم يجد أحدًا من الغزاة، بل أحد حراس المستوطنة. رفع يديه فوق رأسه، على الرغم منه. بالكاد استطاع التعرف على لوك، فقد تلطخ بغبار رمادي، من رأسه حتى أخمص قدميه. يحمل بندقية بين يديه، أخفضها قليلًا، عندما اقترب من بيلامي، وقد ازداد عرجه سوءًا.

ربَّت على ذراع لوك: «لك كل الحق في رد فعلك هذا».

بدا مصدومًا وليس خائفًا، وهو يقول: «طرحني الانفجار الأول أرضًا، ثم سحبني أحد هؤلاء الرجال، من تحت الأنقاض، قبل الانفجار الثاني مباشرة. هربت منهم، وحصلت على هذه البندقية، لأرد الطلقات عليهم».

تلفت بيلامي حوله: «هل تبعك أحد؟».

- لا أعتقد.

- جيد. إذن. لندخل.

حاول فتح الباب، واكتشف أنه حُصِّن من الداخل بالخزائن والحقائب الطبية والأسِرة. جال بفكره: *أحسنتِ التصرف يا كلارك*. حتى لو منعه ذلك، هو نفسه، من الدخول. لكن عليهم الإسراع. لا يزال هؤلاء الغزاة منهمكين في اقتحام كبائن المؤن، عند الطرف البعيد من الساحة. مع ذلك، قد يتمكنون من الوصول إلى هنا، في أي لحظة.

نادى بصوت خافت: «كلارك. هذا أنا».

ظهرت أصابع كلارك أعلى الكومة، تزيح بعض الأشياء للوراء.

- ستحتاج للتسلق! سأفسح لك مجالًا لتعبر منه. من معك؟ هل تعرف أين الأولاد الصغار؟

- إنهم مختبئون مع أوكتافيا. سنحضرهم إلى هنا.

قالت: «اذهب، هيا!».

هرول بيلامي نحو حافة المخيم، وفي إثره لوك. تصاعد دخان كثيف من المباني المنكوبة، وارتفعت سحابة رمادية كثيفة فوق كبائن المبيت. خلال

الوقت الذي استغرقه للوصول إلى المشفى، بدا أن جماعة مرتدي الأبيض قد غادروا سريعًا.

لا بد أن الأطفال رأوه ولوك قادمَين، حيث تسلل نحوهما أصغرهم من دائرة الحماية بالغابة. تمتم باللعنات عند رؤيته للمخيم خاليًا على نحو مريب، غير أنه لا يمكن تجاهل أنهم تعرضوا لهجوم شرس منذ دقائق. قبل أن يتمكنا من تأمين الطريق بما يكفي، اندفع هذا الصبي الصغير، الذي يقارب الأعوام الخمسة، منتحبًا باتجاه لوك، ففتح الأخير ذراعيه ليلتقطه. ثم تبعه الآخرون، في مشهد جنوني، دون أي اعتبار لخطورة الموقف.

انطلق يركض، مشيرًا للأطفال، الملتفين حوله، باتجاه المشفى، بينما يتحقق من الطريق عند الحافة، بنظرات حذرة سريعة، دون الانشغال بالمخيم الذي صار ضبابيًّا.

لا تشغله سوى أوكتافيا، التي لا تزال متأخرة عنهم، وتتعثر في أثناء ركضها. وفي مشهد كابوسي، ظهر من الظلال بالغابة، ثلاثة أشخاص طوال القامة في ثياب بيضاء. لم يستطع سوى الركض والاستمرار بالركض، وعيناه مثبتتان على وجه أخته. يصرخ بها: «اهربي».

لكن الكلمات انحشرت بحلقه، حتى عندما قبض عليها رجلان منهم، وثبَّتا ذراعيها خلف ظهرها، بينما أخرج الثالث حقنة من جيبه وغرسها في رقبتها. بعد ثوانٍ، خارت قواها، وسقطت كالدمية بين ذراعيهما.

صرخ فيهم بيلامي: «لا! ارفعوا أيديكم عنها، وإلا قتلتكم!».

ألقى الأشخاص الثلاثة نظرة غريبة إليه، ثم ألقى أحدهم شيئًا ما، بينما حمل الآخران أخته، إلى داخل الغابة.

تهيأ لمطاردتهم، قبل أن يوقِفه لوك، ويجذبه للوراء.

- إنها قنبلة. انبطِح!

سقطا على الأرض، وغطيا رأسيهما، استعدادًا للانفجار، لكن لم ينفجر شيء، إنها مجرد قنبلة دخانية. رفع رأسه ناظرًا، فلم يجد إلا جدارًا من الدخان، يفصله عن آخر بقعة رأى فيها أخته. شدَّ قميصه ليغطي وجهه وحبس أنفاسه، بينما يشق الضباب، نحو الجانب الآخر.. نحو اللاشيء.

اختفى الرجال الثلاثة. واختفت معهم أوكتافيا.

الفصل الخامس

ويلز

ضرب رأسه شيءٌ ما، مرارًا وتكرارًا، دون هوادة. حاول أن يفتح عينيه، لكنهما ثقيلتان كثقل الصوت الذي يضغط بعقله، هامسًا ألا رغبة لديه لفتح عينيه بعد. ليس مستعدًّا لمعرفة ما يحدث.

آخر ما يتذكره، أنه ظل مختبئًا خلف الأشجار. ذهب بيلامي بحثًا عن كلارك، بينما تسلل مع إريك إلى ساحة المخيم بين الحين والآخر، لحمل الجرحى ونقلهم إلى الغابة، لتلقِّي الإسعافات اللازمة على يد والدَي كلارك. عندما عادا حاملَي أحد المصابين، شعر بسن حادة تنغرس بكتفه. استدار ليرى في مواجهته رجلًا غريبًا متجهم الوجه، له وجنتان غائرتان. ثم.. لا شيء.

استعاد وعيه ببطء. شعر بكتفه ثقيلة متحجرة، وبنوبة دوار كالتي اجتاحته على متن سفينة الإنزال قبل أن تضرب الغلاف الجوي للأرض. تسللت إليه رائحة رطبة، وصوت غريب لشيء يُسحق. ثم باغته وميض باهر ارتجف له جفناه. تهادى إلى سمعه صوت فاتر بالقرب منه: «إن أحدهم يسترد وعيه».

فتح ويلز عينيه لتصطدما بحاجز خشبي متهالك، تتخلله فجوات صغيرة عطنة. من خلال إحدى الفجوات، رأى ضبابًا زمرديًّا. جاهد بعقلٍ منهك أن يستوعب ما يحدث. إنهم يتحركون عبر الغابة، داخل ما يشبه عربة نقل بضائع.

سمع عن بعد رجلًا آخر، ذا صوت عميق، يقول: «راقِبه».

صاح صوت يألفه: «إلى أين تأخذوننا بحق الجحيم؟».

شعر برطمة عنيفة رجَّت الحاجز الخشبي. خطر بذهنه وجهٌ ذو ابتسامة سمجة. لا بد أن ذلك الصوت الصائح، هو جراهام.

قال الرجل نفسه، ذو الصوت العميق: «إنه ليس جاهزًا بعد. احقنه مجددًا».

اتسعت عيناه، ملتفتًا نحو الصوت، قبل أن يدرك أن يديه مقيدتان وراء ظهره، وربما كاحلاه كذلك. من الصعب التأكد من الأمر، فظهره مقوس ومتشنج، ولا يشعر بساقيه. ركل بضع مرات بقدمه، فداهمته آلام مبرحة كوخز الإبر.

قال فتى ذو نبرة فاترة: «أنت بخير».

أدار رأسه بما يكفي، ليرى فتىً شاحب الوجه يحدق إليه.

- انتهى القتال. أنت من المحظوظين.

- المحظوظين؟

حاول أن ينطق، لكن لسانه لم يستجب.

لقد خُدِّرتُ. ظهري يؤلمني... قبضوا عليَّ في الغابة هناك، حُقِنتُ بشيءٍ ما.

استطرد الفتى ناظرًا إلى الجهة الأخرى: «صرت واحدًا منا الآن. إذا سكنت ولم تصرخ، سنسمح لك أن تسترد وعيك».

بالكاد استطاع إتمام سماع ما يقوله، قبل أنِ يغيب عن الوعي ثانيةً.

عندما فتح عينيه مجددًا، لم يرَ إلا ظلامًا دامسًا. جعله أحدهم يجلس معتدلًا، وساقاه ممدودتان للأمام، مربوطتان بحبل سميك. كتم أنفاسه، ورمش بعينيه حتى اعتادت عيناه الظلمة. لقد صحَّ تخمينه السابق. إنه داخل عربة نقل مغطاة السقف، لها جوانب خشبية طويلة، ونوافذ ذات قضبان. في الجهة القريبة المقابلة، يوجد مقعد طويل، يجلس عليه ثلاثة حراس في زيٍّ أبيض، من بينهم، ذلك الفتى شاحب الوجه، والرجل المتجهم، الذي رآه في الغابة. زفر ويلز بقوة، ولم يلتفت إليه أحد. يجلسون ولا ينبسون ببنت شفه. مهما تأرجحت بهم العربة بعنف، تظل أعينهم فارغة تمامًا.

انحرف الطريق، فاصطدمت كتفه بشخصٍ ما. رغم أن جسده لا يزال متشنجًا، على عكس ما تمنى، أدار رأسه قليلًا، ليرى أربعة أشخاص إلى جواره. رُبِطت أرجلهم في وضع الجلوس مثله، غير أنهم نائمون، أو ربما مخدرون. خفق قلبه بشدة، وهو يدقق النظر بوجوههم واحدًا تلو الآخر. إلى جانب جراهام، يجلس إريك، وعلى وجهه جرح عميق، وبجواره فتى آركادي. أما الشخص الرابع، فهو أكبر سنًّا، ووجهه غير مألوف، لربما هو أرضيٌّ من قرية ساشا.

انقبضت عضلات معدته. مهما حاول أن يفعل، يستمر بخذلانها على الدوام. ليس لديه أدنى معرفة بهؤلاء الرجال مرتدي الأبيض، لكن هذا لا ينفي حقيقة أنه لو لم يهبط المستوطنون على الأرض، لما ظهر هؤلاء القتلة المجرمون.

ظل لديه شك من وجود مجتمعات أخرى على قيد الحياة، رغم أن أهل قرية ساشا لم يصادفوا أي غرباء من قبل. هل كُشِف موقعهم بسبب سفن الإنزال؟ هل حكم المستوطنون عليهم بالهلاك؟

ارتجت العربة، فمال رأسه للوراء. تنفس بعمق، وأخذ يعدل وضع رقبته المتشنجة مرة أخرى. حدق الحارس الشاحب إلى وجهه، فبادله ويلز التحديق، وسأله: «من أنتم؟».

خرجت الكلمات من بين شفتيه هذه المرة، فيما رد عليه الفتى بنبرة حالمة مريبة: «نحن الحُماة».

تذكر الانفجارات وجثث الجرحى والمصابين. قال متهكمًا: «*الحُماة!* لقد كدتم تقضون علينا جميعًا. من أنتم بحق الجحيم؟ وماذا تريدون منا؟».

أجابه بهدوء: «لقد غزونا مخيمكم، أخذنا ما ينفعنا، وتجاهلنا ما دون ذلك. ستتعلم».

تملكه الذعر، وجاهد ليهدئ من روع نفسه.

- لو أنكم بحاجة إلى بعض الإمدادات فقط، لماذا أُسِرنا؟

حدَّجه الفتى بنظرة متفحصة بعينين زرقاوين جامدتين: «ربما تكون نافعًا لنا، وربما لا. سنعرف بعد قليل. لا يستغرق أمر إقصاء الضعيف وقتًا طويلًا».

أبى ويلز أن يشيح بنظره بعيدًا، كما لو أن اشتعاله غضبًا لم يجعله ثابتًا على موقفه فقط، بل وساعد في الحد من تأثير المخدر الذي حُقِن به. جذب انتباهه أكبر هؤلاء الرجال الثلاثة سنًّا، الذي أومأ برأسه قائلًا: «لا تزال فتيًّا وقويًّا. إذا أرادت الأرض، سيسير الحال على ما يرام».

كرر الاثنان الآخران من بعده: «لو أرادت الأرض».

سمع شهقة بجواره، فأدار رأسه ليجد إريك يستفيق. طرف بعينيه عدة مرات، ثم اتسعت عيناه. ارتعش فكه، كما لو أنه على وشك الصراخ، فهز ويلز رأسه يوقِفه عن المتابعة، آملًا أنه متيقظ كفاية ليفهم تحذيره. وبالفعل، ابتلع إريك ريقه، وغمز بعينه، تأكيدًا على فهمه، ثم ركز بصره على أرضية العربة.

فكر ويلز: جيد. *أحتاج لبعض الوقت حتى أحصل على مزيدٍ من الإجابات.*

سأل محاولًا الحفاظ على رباطة جأشه: «إلى أين تأخذوننا؟».

أجابه ثالث نحيل وطويل القامة: «سيعجبك المكان هناك».

لم يسمعه يتحدث قبل الآن. إن لصوته نغمة جذابة غريبة، كأنه يدندن تهويدة للأطفال. تابع الرجل: «إنه المكان الأكثر أمانًا».

لم يتمالك نفسه، وتهكم سائلًا: «أين ذلك المكان الأكثر أمانًا؟».

ابتسم الرجل: «ستصبح الأرض كلها المكان الأكثر أمانًا يومًا ما، إذا أرادت الأرض».

ارتعشت أوصاله، والحراس الثلاثة يرددون معًا ثانيةً: «إذا أرادت الأرض».

أضاف الحارس الشاحب: «وإذا اختِرتَ، ستساعدنا على نشر السلام».

- وهل أنتم جنود حفظ السلام؟

قال أكبرهم سنًّا: «نحن الغزاة. ستصير واحدًا منا، إذا تعلمت إبقاء فمك مغلقًا».

علق بحذر: «اعتقدتُ أنكم تسمون أنفسكم الحُماة».

التفتوا جميعًا محدقين إليه للحظة طويلة، قبل أن يبتسم الرجل ذو الصوت العذب: «ستتعلم».

قرر ويلز أن يتخذ أسلوبًا آخر لمتابعة الحوار.

- ما رأيكم بمخيمنا؟

أجاب الأكبر سنًّا بنبرة حادة: «إنه ليس مخيمكم، وليست قريتكم كذلك. لا يمكن أن تمتلكوا قرية، لم تباركها الأرض».

قال إريك بنبرة حانقة ممزوجة بالأسى: «لهذا دمرتموها، وقتلتم كل من اعترض طريقكم».

ينم صوته عن أنه استعاد وعيه بالكامل، وينتفض غضبًا.

اتسعت عينا الفتى الشاحب، وكأن الكلمات صدمته: «لم نقتل الجميع. لسنا وحوشًا. نفعل ما تريده الأرض منا فقط. أنقذنا أقواكم وحمينا خيرة نسائكم، ألم نفعل؟».

تبادل مع إريك نظرات فزعة. مَن أُسِر غيرهم؟ دعا بكل ذرة في كيانه، ألا يعني كلامهم هذا أن كلارك أو أوكتافيا أو جلاس من النساء الأسرى، أو.. انقبضت معدته، أو إحدى الفتيات الأصغر سنًّا مثل مولي.

تابع الفتى احتجاجه منحنيًا للأمام: «وتركنا الصغار والضعاف أيضًا. لم نقتلهم. ستفعل بهم الأرض كيفما يتراءى لها».

الصغار والضعاف. تسارعت دقات قلبه. خطرت كلارك على باله، يأمل أنها قد تمكنت من الاختباء وقت الاقتحام. لعلها ممن تركهم هؤلاء الغزاة وراءهم. لكن، ماذا عن بيلامي؟ وماكس؟

سأل صوت أجش من نهاية الصف: «لماذا تفعلون هذا؟ لماذا تهدمون كل ما عملنا بجِد من أجله؟».

إنه الرجل الأرضي. لا بد أنه استيقظ للتو. ظل محدقًا إلى الحراس، وقد ترقرق الدمع بعينيه.

طرف الفتى، كأنه ارتبك من وقْع السؤال.

- لأنه الأمر الذي ينبغي عمله. هذا ما نفعله في كل مكان نذهب إليه.

- في كل مكان؟

أجابه محدقًا إلى الظلام بالخارج، من خلال النافذة المُسيجة: «في كل مكان بقي على الأرض، حتى تصبح الأرض كلها آمنة».

اندفع ويلز صائحًا، وفاقدًا السيطرة على أعصابه: «آمنة من ماذا؟».

قال الرجل الأكبر: «ستتعلم».

كرر الآخران في رتابة: «ستتعلم».

قبض راحتيه وراء ظهره، وضبط جلسته، فلا يزال أمامهم طريق طويل. بطريقة أو بأخرى، هؤلاء «الغزاة» أو «الحُماة»، أو ما يطلقونه على أنفسهم، لديهم حق في أمر واحد: عليه أن يتعلم. وسيتعلم بقدر المستطاع. وحينها، يمكنه المقاومة.

الفصل السادس

كلارك

ظهر قمر الصياد المتوهج بالسماء، ثم توارى مع طلوع نهار يومٍ جديد، والمخيم لا يزال يحترق. تتصاعد ببطء سحابة دخانية من الأرض المحروقة، حجبت السماء وراء ضباب رمادي كامد، ومع ذلك، لم تخفَ آثار الدمار والحطام.

خرجت كلارك من كابينة المشفى لتستنشق بعض الهواء. رغم محاولتها لتهيئة نفسها لما ستشهده من الدمار، صدمها ما رأت، كأنما تلقت ضربة قوية في معدتها. إلى جانب برج الحراسة، تهدمت معظم الكبائن حديثة الإنشاء. تناثرت في أرجاء الساحة قطع خشبية متفحمة، وأجزاء معدنية مهشمة، وثياب ممزقة، و.. جثث هامدة.

رغم أن المقتحمين قد رحلوا بسرعة وخفية كما ظهروا، فإن ما حدث بالأمس كان كابوسًا مروعًا. عند غروب الشمس، سيُدفَن اثنان وعشرون قتيلًا في قبور حُفرت حديثًا. فيما تسعى كلارك برفقة والدها والطبيب لاهيري لإنقاذ ما أمكنهم من الجرحى، حتى لا يرتفع عدد الضحايا.. بما فيهم والدتها.

توجهت نحو طرف من المخيم، حيث كبائن المبيت التي احترقت، ولا يزال ينبعث منها وهج خانق. لقد حاولوا إخماد الحريق في البداية، قبل أن يطلب المجلس وقف ذلك. فهمت كلارك ما يقصدون، لم يتبق ما يكفي من احتياجاتهم: قليل من الماء، وقليل من الطاقة للعمل. لا فائدة تُرجى من خوض معركة خاسرة، خاصةً والرياح قد سكنت، وتوقفت النيران عن الانتشار.

صارت بعض الكبائن المنكوبة أكوامًا من الحطام. لم تبق هناك كبائن للمبيت أو أَسِرة، فيما عدا تلك المخصصة للمرضى بالمشفى. لذا لم تتفاجأ عند رؤية الناس متجمعين حول كتل الحطام المشتعلة طلبًا للدفء.

خطر بذهنها، وهي تحك عينيها نتيجة التعرض للدخان: *ما زلنا في حاجة للطعام.*

في الليلة الماضية، ذهبوا لفحص المؤن المخزنة بالمخيم، رغم توقع ما قد يجدونه. وبالفعل، كل ما خزنوه لفصل الشتاء سرقه هؤلاء الغزاة. مما سيضطر بيلامي أن يذهب للصيد في أقرب وقت.

لكن ما فقدوه من الطعام والعتاد والحطب لا يعني شيئًا بالمقارنة بما سُلب منهم. بعد تحديد عدد الضحايا والجرحى، اتضح أن هناك تسعة عشر مراهقًا مفقودًا. لم يُختطَف أحد في منتصف العمر، وجميع الصغار بأمان، لا يكفي ذلك لتعزية أهل وأصدقاء المفقودين. بالكاد مُنعت إحدى الأمهات من ملاحقة المجهولين الذين جروا ابنتها بعيدًا. ولدهشتها، شارك بيلامي الآخرين لمحاولة منعها من الذهاب، رغم أن أوكتافيا وويلز اختُطِفا كذلك. حتى في ثورة غضبه وألمه، أدرك أنه لا جدوى من ملاحقة مهاجمين مجهولين، دون استعداد ولا عتاد.

ما إن اقتربت كلارك من ثكنات الحراس، اعتلت جذع شجرة متفحمًا، وحصرت التعداد مجددًا. نجا مئتان في مجملهم، لدى القليل منهم إصابات طفيفة، ولدى ثلاثين منهم إصابات بالغة الخطورة، إلى جانب اثنين وعشرين قتيلًا، وتسعة عشر مفقودًا.

من بين المفقودين: أوكتافيا، جلاس، جراهام، إريك، و.. ويلز، أقرب أصدقائها وحبها الأول. إنه الفتى الذي خاطر بكل شيء في سبيل حمايتها.

ضاقت أنفاسها، ضغطت بيديها على ركبتيها، ولهثت مرتعدة. تحاول كبت رغبتها في البكاء المحتقن بحلقها. ليس الآن، ليس بعد، ليس قبل أن يفعلوا كل ما في وسعهم لإنقاذ المصابين، وطمأنة من يحتضر منهم، وإعداد المخيم من أجل ليلة أخرى من القلق.. ومعرفة ماذا عليهم فعله. اعتدلت وأصلحت ربطة شعرها لأعلى، ثم استدارت عائدةً نحو المشفى.

استوقفها صوت أحدهم عن بُعد. إنه بيلامي. التفتت، ووجدته يشارك رودس وماكس حديثًا خافتًا حول شعلة النار التي تتضاءل جذوتها. لم تر سوى ظهره ورأسه المحني. بالكاد التقت أعينهما طوال اليوم. لقد انشغل بعمل دوريات تفقُّدية في أرجاء المخيم، ولم يقترب من المشفى قط. لربما يحاول تجنبها.

يحثها صوت بداخلها أن تكمل طريقها وتتجنب النظر إلى عينيه المتألمتين. لماذا لم تثق به؟ وجب عليها أن تصدقه حينها، بدلًا من الاستخفاف بمخاوفه، واعتبارها مجرد ارتياب غير مبرر. إنه من أذكى وأنبه من قابلتهم في حياتها، ومع ذلك، عاملته كمضطربٍ نفسيٍّ.

خطت تجاههم، والخجل يحرق صدرها أكثر من هذه الشعلة المتقدة. مع اقترابها، استطاعت التقاط بعض من الحديث. سمعت ماكس يسأل: «وماذا أيضًا؟».

قال بيلامي، مشيرًا باتجاه الغابة: «أكوام مكدسة من أوراق الشجر، وهذا الصباح، عندما فتشت المنطقة مع لوك، تأكدنا من الشكوك السابقة. هناك حُفر تحت هذه الأكوام. ربما استخدموها كمخابئ مؤقتة، لإخفاء معداتهم تجهيزًا للهجوم، أو حتى لإخفاء أنفسهم».

سأل ماكس: «وهل سمعت أصواتًا وراء الأشجار قبلًا؟».

تسمرت كلارك مكانها، بينما رفع بيلامي كتفيه وأخذ نفسًا عميقًا.

- نعم، الأسبوع الماضي. كل ما سمعته جملة واحدة من كلمتين: «هذا هو»، تبعتها صافرة من وراء شجرة أخرى. هذا كل ما حدث. بحثتُ طويلًا بين الأشجار عن مصدر الصوت، لكن لم أجد شيئًا.

قال رودس: «وددتُ لو أخبرتنا حينها».

ربما لمح تعبيرًا ما على وجه بيلامي، فجفل وحرك شعره للخلف، مستطردًا: «لا بأس. أتفهَّم بالتأكيد».

قاطعه ماكس، وهو يومئ برأسه نحو بيلامي: «هل لديك تفسير ما؟».

اعتدل بيلامي في جلسته، وشدَّ ظهره.

- أعتقد أنهم ترصدوا المخيم طوال الشهر الماضي، أو ربما لفترة أطول. تمكنوا من معرفة كل خططنا ونظامنا اليومي. عرفوا تخطيط جميع المباني، وكشفوا خطة حراستها، و...

وهن صوته قليلًا، وأضاف: «حددوا من سيقتلون ومن سيأخذون».

سأل ماكس: «هل تعتقد أنهم خططوا لأسرك معهم؟».

- لم أكن هدفًا سهلًا حينها.. نعم، أعتقد ذلك.

تستطيع من موقعها، أن تسمع مرارة الاشتياق في صوته. يتمنى لو أُخِذ برفقة إخوته، لعله استطاع بذل قصارى جهده لحمايتهم. تنهد ونظر بعيدًا باتجاه الساحة، فوقعت عيناه على كلارك. اشتد فكه، وفكرت للحظة أنه سيتجاهلها: إنه يلومني. بالطبع، يجب أن يفعل، فما حدث هو خطئي.

لكنه زفر ببطء، وأومأ برأسه لرودس وماكس منصرفًا، ثم خطا باتجاهها. هيأت نفسها لموجة غاضبة منه، غير أنه أمسك بكتفيها، وجذبها إلى صدره يعانقها. ساعدها دفء صدره، وثقل ذراعيه، أن تطلق سراح شيء ما بداخلها. انفك حصار الخوف والندم، وسرعان ما انهمرت الدموع على وجنتيها. ولم تستطع كبح نشيجها المستمر.

همس بأذنها: «هل أنتِ بخير؟».

أجهشت بالبكاء لبضع لحظات، لم تستطع معها الكلام. تقطعت أنفاسها، واستندت إليه بجذعها، فشدد قبضته، ممسدًا شعرها لتهدئتها. تراجعت خطوة، ومسحت دموعها، قائلةً ببحة باكية: «إنني آسفة للغاية. لقد عرفتَ، يا بيلامي. لقد توقعتَ ما حدث، ولم أستمع لك. أتمنى لو أن هناك كلمات أفضل لقولها، لكن كل ما يمكنني قوله هو أنني آسفة. كم أنا حمقاء. كم أنا...».

أمسك يديها: «لا، يا كلارك. هذا ليس ذنبك. الذنب كله يقع على هؤلاء الغرباء».

هزت رأسها بحدة متألمة: «وجب عليَّ أن أثق بك».

أغمض عينيه للحظة، وتنهد: «نعم، أوافقكِ، وجب عليكِ ذلك. أتعلمين؟ لا أعتقد أنني قد أثق بنفسي، لو كنتُ مكانك. علينا أن نبذل الآن كل ما في وسعنا».

عانقها مرة أخرى، وضغط على ظهرها بقوة، مترفقًا بحالها، حتى لو لم يرَ أي داعٍ لذلك. أراحت رأسها على صدره، فأغمضت عينيها للحظة. وعندما فتحتهما، ألقت نظرة إلى أعلى نحوه. وجدته ينظر باتجاه الغابة. بدا القلق على وجهه. يمكنها سماع دقات قلبه تتسارع. يريد دخول الغابة، والعثور على أخيه وأخته، وقتال الغزاة الذين اختطفوهما. ليس لديه وقت للانفعال غضبًا. هناك وقت للعمل فقط.

كان يمكنهم تجنب كل هذا الموت والدمار والخسارة، لو أنها فعلت فقط ما وعدت به بيلامي: أن تحمي ظهره، أن تشاركه همومه وتستمع إليه وتصدقه. لديه حق فيما قال. وقد حدث ما حدث. لم يعد بوسعها فعل شيء، غير أن تُحسِن التصرف من هذه اللحظة فصاعدًا.

ابتعدت عنه بلطف، مسحت وجنتيها، واستنشقت، ثم سألته: «ماذا علينا أن نفعل؟».

أشار إلى ماكس ورودس، اللذين اجتمع حولهما بعض الحراس وبعض الوجوه المألوفة الأخرى.

- نحن على وشك الإعلان عن خطتنا.

الفصل السابع

بيلامي

تحلق المستوطنون الناجون والأرضيون حول شعلة النار، يسترقون النظر بقلق نحو الغابة. بينما يتقدم بيلامي للانضمام إلى ماكس وباقي أعضاء المجلس في منتصف الحشد، وقد سيطر عليه هاجس مُر: *لن نهنأ بالأمان بأي مكان على الأرض.*

غابت عن الحضور فيونا، المرأة الآركادية الحكيمة ذات الحضور الآسر الدافئ، فبينما يتجمعون، ترقد هي تحت التراب في مقبرة جماعية.

رفع ماكس يده فتوقفت الهمهمات، وحلَّ محلها صمت ثقيل. تمايل بيلامي من جهة إلى أخرى. ليس مستعدًّا لإضاعة وقت أطول من ذلك في مناقشة الوضع. يسمعهم بنصف تركيز، فيما ينشغل النصف الآخر بفكرة الانطلاق في الحال دون انتظار أحد، أو إضاعة دقيقة أخرى. جال بنظره بين الحشد، ووقعت عيناه على الأطفال الذين أنقذهم، حيث يتشبث معظمهم بمولي. رغم سنواتها الثلاثة عشر، فإنها لا تزال طفلة بنظره. تعلقت أعينهم الواسعة به، وطلت منها نظرات لامعة يملؤها الأمل وليس الخوف، على نحوٍ لم يتوقعه.

أدرك الأمر بدخيلة نفسه: *إنهم يثقون بي. إنهم لا يرونني آثمًا شقيًّا، يرتكب الحماقات، ولا يجلب لهم إلا الخزي، بل يرونني شخصًا يُعتمد عليه.*

أومأ رودس برأسه إلى ماكس، ثم تقدم للأمام وبدأ حديثه. لا يزال صوته يوتر أعصابه. رغم أنهما على وفاق حاليًّا، فإن مدة شهرين لا تُعد كافية،

ليتخلص تمامًا من شعوره بالاستياء المتغلغل بأعماقه تجاهه. لكن هناك أمور أولى للتركيز عليها في هذه اللحظة.. مثل إيجاد أولئك الأوغاد الذين اختطفوا ويلز وأوكتافيا.

قال رودس: «أعلم أنكم جميعًا بانتظار الحصول على إجابات حول ما حدث لنا الليلة الماضية. سأخبركم بما لا نعلمه أولًا. نحن لا نعلم شيئًا عن الأشخاص الذين هاجمونا».

هاج الجمع متذمرًا، وضربهم موج من القلق والاضطراب.

رفع رودس يده لتهدئتهم: «لكننا سنعلم ذلك. لا نعرف ما هي دوافعهم وراء مهاجمتنا، وسرقة مؤننا. *وسنكتشف حقيقة الأمر*».

صار صوته أكثر حزمًا، وصدَّقه الجميع، حتى بيلامي نفسه أومأ برأسه تأييدًا لكلامه. ابتسم رودس ضاغطًا على شفتيه. تُنبئ ابتسامته عن نية مُبيَّتة غير معلنة للانتقام: «لا نعرف لماذا اختطفوا أناسًا من شعبنا، لكن ثقوا بي عندما أقول إننا سنكتشف ذلك».

صمت الجميع، فيما تابع رودس وهو يدفع بيلامي للأمام: «لا نعرف كذلك إلى أين أخذوهم.. ومع ذلك، نعرف كيف نجدهم. فقد قاد زميلي عضو المجلس، بيلامي بليك، مجموعة كشفية صغيرة عبر الغابة هذا الصباح».

علت الهمهمات مجددًا، وتخللها هذه المرة بعض تعليقات الدهشة والإعجاب. طهَّر بيلامي حلقه، وبدأ حديثه: «رغم أن الأشخاص الذين هاجموا مخيمنا بارعون في إخفاء مخططاتهم، فإنهم أهملوا إخفاء آثارهم».

بحث عن لوك بين الحشد، ووجده مستندًا بظهره على شجرة في الجانب البعيد. لقد اكتشف معه آثار عربات كبيرة بالقرب من المخيم. حاول لفت انتباهه، غير أنه ظل شاردًا بعينيه بعيدًا. لا تظهر على وجهه تعبيراته المعتادة الدالة على التأهب والانتباه. يعرف تمامًا ما يشعر به. رأى العذاب باديًا على وجهه، عندما أخبره أن جلاس قد اختُطِفت.

أشار نحو السماء الشرقية المظلمة: «لقد جرَّ المهاجمون أصدقاءنا شرقًا، دون عنف أو صراع، لذلك من الواضح أنه، لسببٍ ما، أُسِروا دون إصابتهم بأذى».

انقبضت عضلات معدته مع تلك الكلمات. لا بد أن أوكتافيا لا تزال على قيد الحياة، وإلا فالنار التي تضطرم بداخله وتُبقيه على قيد الحياة ستنطفئ، ويموت بحسرته.

أضاف بنبرة أكثر حزمًا: «لدينا دليل، ولدينا بعض الأسلحة المستودعة بجبل العاصفة. ليست بالقدر الوفير، إلا أنها كافية لمنحنا فرصة للقتال. الليلة، سأتوجه مع فريق من المتطوعين. سنجد الأوغاد الذين اختطفوا أهلنا، وسنعيدهم جميعًا لوطنهم».

صاح الناس تصديقًا على الخطة في البداية، ثم سمع فيما وراء الهتاف، تذمرًا خافتًا. تقدمت للأمام امرأة مُسِنة، تعرَّف بيلامي عليها في والدن، وأخذت تهز رأسها رفضًا: «لا يمكنك أخذ كل البنادق معك، وتتركنا بلا حماية، عُرضة للهجوم مرة أخرى».

أومأ البعض مؤيدًا. فيما صاح بيلامي، حتى يسمعه الجميع: «أتفهَّم قلقك. لكن ليس لدينا إلا ثلاث بنادق، ونحتاج إليها من أجل مهمة الإنقاذ».

صاح رجل أرضي: «وماذا عنا؟ هل لحياتهم قيمة أكبر من حياتنا؟».

تقدم ماكس: «سيلاحق بيلامي وفريقه هؤلاء المجرمين. وإذا قرروا مداهمة مخيمنا مرة أخرى، لسببٍ غير معلوم، سيعرف في الحال. وحينها، سيعود فريقه بالبنادق ويحموننا».

صاحت المرأة المُسِنة: «هذه خطة سخيفة. لمَ لا يتركون بندقية واحدة على الأقل هنا! كما أن بيلامي أفضل صائد بيننا على الإطلاق. بعد ذهابه، سنموت من الجوع. يجب أن يبقى معنا».

رد بيلامي مندفعًا دون تفكير: «لا يمكنكِ إجباري!».

قال ماكس، موجهًا له نظرة تأنيب: «أؤكد لكم أن هناك العديد من الصيادين المهرة بين شعبي. لن ندع أي أحد يتضور جوعًا».

صاحت امرأة من فينيكس، ممن هبطوا على الأرض مؤخرًا: «لماذا علينا الوثوق بك؟ لقد أخفيت أسلحة في جبل العاصفة، كانت لتحمينا من المهاجمين!».

سرعان ما طغى، على طقطقة النار، ضجيج أحاديث محمومة صاخبة، حتى بات لا يسمع أحدهم الآخر. صرخ فيهم رودس بأعلى صوته: «هذا يكفي! سنطرح الأمر للتصويت. كل من يؤيد إرسال فرقة مسلحة لإنقاذ المختطفين من شعبنا، الذين أُسِروا خلال هجوم الليلة الماضية، فليرفع يده».

قبل أن يُنهي جملته، ارتفعت أيدي البعض، يهتفون: «نعم».

- وكل المعارضين...

رفع قليلٌ من الناس أيديهم، لكنها لا تكفي للفوز بالتصويت. خفق قلب بيلامي بحدة متحفزًا. يمكنه أن يفعل ما يتحرق إلى إتمامه منذ اللحظة التي رأى فيها أخته تُجر إلى داخل الغابة. يريد مطاردتهم، يريد أن يجدها وأخاه، وينتقم لهما، بغض النظر عن المخاطر.

سمع ماكس يقول: «لدينا عدد قليل من المتطوعين بالفعل، وقد رُتِّب ذلك عن قصد، حتى لا يُكشَفوا. ومع ذلك، إذا أراد أحدكم الانضمام إلينا، فليتقدم لكي...».

صاحت كلارك: «سأذهب معكم. تحتاجون إلى من لديه خبرة طبية».

هربت الدماء من عروق بيلامي، وهو يراها تشق الطريق عبر الحشد، وقد زمَّت شفتيها في تعبيرٍ يعرف ما يعنيه حق المعرفة. لن يستطيع أحد أن يثنيها عن قرارها. دار بخلده: لا يمكن.

ليس لديه مانع أن يعرض نفسه للخطر، لكنه لن يحتمل أن يحدث مكروه لها. قبل أن يتفوه بأي كلمة ليمنعها، صاح صوت آخر: «بالطبع لا».

إنه والدها، يلهث مهرولًا، حتى وصل إلى حيث الحشد. نظرت كلارك إلى والدها بنفاد صبر. إن عثورها على والديها حيَّيْن كمعجزة، بدَّدَت شبح الحزن الذي تملَّكها لفترة طويلة. وعلى الرغم من أن قلبها المفطور عليهما، قد شُفِي، فإن بيلامي يدرك أن وجود والديها إلى جوارها مجددًا، هو وضع جديد لم تتكيف معه بعد.

أخذت نفسا عميقًا، واقتربت من والدها لتحادثه بعيدًا عن الحشد. تحرك بيلامي لينضم إليهما، معتصرًا عقله بحثًا عن طريقة لدعمها، وإقناعها بالعدول عن الانضمام إليه في نفس الوقت.

قال والدها: «بذلتُ ووالدتكِ كل ما في وسعنا لنصل إليك».

ردت كلارك بهدوء: «أعرف».

- وبعد كل ما مررنا به من صعاب، اجتمع شملنا معًا. إن حالة والدتكِ الصحية خطيرة، وهي بحاجة إليكِ هنا. ليس هذا هو الوقت المناسب لتذهبي في مهمة لا يعلم أحد مدى خطورتها.

- ليس باستطاعتنا اختيار الوقت المناسب، أليس كذلك؟

عندها أخذت يدَي ديفيد بين راحتيها، وضغطت عليهما. رأى بيلامي كيف تلاشى الغضب من عينَي والدها، وهي تستطرد: «لو أنه باستطاعتنا، لما تعرضنا للهجوم، لما أُرسِلتما إلى الأرض قبل أن آتي إليها، لما قضينا كل هذا الوقت معًا».

ثم وجهت لبيلامي نظرة توحي بحاجتها إلى دعمه. يتمنى لو يقنعها بالمكوث هنا، لكنها محقة؛ لا يمكنهم التكهن بحالة أصدقائهم وأهلهم. يحتاجون إلى وجود مسعف معهم للاحتياط. لذا اقترب منها معلنًا وقوفه بصفها.

قالت: «لن أذهب وحدي. كما سنحافظ على حذرنا ونتصرف بذكاء. علينا أن نبذل ما في وسعنا من أجلهم. لا يمكنني المكوث هنا والانتظار. لقد اختطفوا ويلز، يا أبي. لا يمكنني التخلي عنه. هذا ليس من شيمي».

استرخت كتفا والدها، وتنفس بعمق، ثم أومأ برأسه: «عِديني فقط أن تحافظي على حذرك».

رغم أنه لا يريدها أن تتعرض للخطر، شعر بيلامي بالارتياح على نحو غريب. إنه ممتن لوجودها إلى جانبه. لا يرى أفضل منها لتنضم إليهم، فهي ذكية وشجاعة، ولديها قدرة مدهشة على حل المشكلات. لربما هي أنانية منه، أن يكره فكرة الابتعاد عن هذه الفتاة التي لولاها، لما أصبح هذا الكوكب البري الغريب وطنًا لهم.

قالت: «سأفعل. أعدك».

- عِديني ألا تُقدمي على تصرف أحمق، فهناك فرق كبير بين الشجاعة والتهور.

ألقت نظرة إلى بيلامي، وكأنها تقول إنه أجدر منها بهذه النصيحة. مما جعله يبتسم على الرغم منه. ردت: «بالطبع، أفهم ذلك».

سأله ديفيد: «هل ستغادرون الليلة؟».

أومأ له برأسه: «لا يمكننا الانتظار حتى الغد، والمجازفة بخسارة فرصة اقتفاء الأثر. نحتاج للمغادرة في الحال».

التفت بيلامي نحو الساحة، وهو ينقر الأرض بقدمه في قلق.

- لماذا يقف لوك ساكنًا هناك؟ علينا التحرك.

طهَّر حلقه، ونادى: «لوك.. لوك! ماذا بحق الـ...».

لكزته كلارك بذراعه، وعلى وجهها تعبير استياء. إنه يتعجل الاستعداد للرحيل، ولم ينتبه للقلق المتزايد على وجه ديفيد، الذي زفر بقوة، مردفًا: «حسنًا. على الأقل، ودِّعي والدتكِ قبل ذهابك. وأنت... ».

التقت عيناه عينَي بيلامي.

- اعتنِ بها.

أجابه ناظرًا إليها: «أعدك. رغم أن كلينا يعرف أنه يمكنها الاعتناء بنفسها».

شعرها الذي يلمع كالذهب تحت شمس ما بعد الظهيرة، إلى جانب عينيها الخضراوين المتوهجتين، يجعلها ذات إرادة لا تُقهر، كأنها جاءت من عالم آخر، أو إلهة حرب من زمن قديم.

ابتسم ديفيد بحزن، قبل أن يبتعد: «أعرف».

لقد صار والدها أكبر سنًّا، وأكثر إرهاقًا، في دقائق معدودة.

أخذ بيلامي يد كلارك. لا يمكنه إخفاء سعادته بمجيئها معه. يشعر أنهما أقوى معًا دائمًا. ربتت على يده، قبل أن تتركها قائلة: «من الأفضل أن أودع أمي قبل الذهاب».

بدأ الحشد المتجمهر حول الشعلة بالتفرق. شرعت مجموعة منهم بتوزيع الحصص الغذائية الزهيدة من أجل العشاء، فيما تزعَّم بول مجموعة أخرى لفرز أكوام الأغطية المتفحمة، بحثًا عن أي شيء نافع من أجل المبيت في العراء، كالليلة السابقة.

- حسنًا. سأخبر لوك وأتأكد من جاهزية المؤن.

جالت بنظرها: «من سيذهب معنا؟».

- لوك، بالطبع. وفيليكس أيضًا. لا أعتقد أنه يستطيع المكوث وإريك واحد من المختطفين. لنأمل أن يتصرف بهدوء وتركيز. سيرافقنا كذلك بعض الأرضيين، بالإضافة إلى بول، الذي تطوع بالمجيء.

عبس وجهه قليلًا، وتوقع أن تتجهم كلارك، هي الأخرى، ولدهشته أومأت برأسها، وتطلعت باتجاه بول وفريقه الذي يفرز الأغطية.

- رائع. يبدو متماسكًا. سيصبح خير عون لنا.

أثار تعليقها حفيظته: «متماسك؟».

هزت كتفيها، وحاولت الإيحاء أنها غير مبالية، رغم أنه استطاع أن يلمح بعينيها قلقًا، وخوفًا. إنما ليس بشأن أصدقائهم المختطفين. ربما لا تزال قلقة بشأنه. لا تثق إذا ما تعافى بما يكفي. والأسوأ أنه لا ينكر أن لديها حقًّا فيما تشعر.

الفصل الثامن

جلاس

بعدما استيقظت والفتيات السبع الأخريات، صرخن حتى فقدن أصواتهن. لم ينتج عن صرخاتهن شيء. ظل آسروهن صامتين، ولم تتأثر وجوههم الجامدة الخالية من أي عاطفة.

واصلوا الطريق طوال الليل وحتى الساعات الأولى من الصباح، ولم تتوقف العربة قط إلا لفترات قصيرة للراحة. كل ما أدركته أنهم يسيرون في دروب وعرة عبر غابة كثيفة.

لم تتعرف على معظم الأسيرات معها، فيما عدا أوكتافيا، وفتاة جميلة من الأرضيين تُدعى لينا. أما الخمسة الأخريات، فكن غريبات بالنسبة إليها، رغم أنه يجمعها معهن شعور واحد بالإحباط. ما يطمئنها فقط أن لوك على قيد الحياة. آخر ما تتذكره هو تلك النظرة اليائسة المؤلمة على وجهه. أينما ينوي هؤلاء الأشخاص أخذها، بالتأكيد سيأتي بحثًا عنها.

تقاوم ما يعتريها من الإعياء، وترفض أن تخور قواها وتستسلم للنوم. لن تفوت على نفسها فرصة سانحة كتلك لجمع معلومات مهمة عنهم. لا تعرف أي معلومة، قد تفضي بالنهاية إلى حياة أو موت.

لم تقُدها الملاحظات إلا لمزيد من الحيرة، لكنها توصلت إلى بعضها على الأقل. ما إن تطأ أقدامهم الأرض، في كل مرة يترجلون فيها عن العربة، يُقبِّل هؤلاء الغزاة أطراف أصابعهم، ثم يلمسون بها الأرض. يمكنها القول

استنادًا إلى بعض همهماتهم، التي وصلت إلى سمعها، إنهم يقدسون العمل الجاد، ويطلقون على أنفسهم «الحُماة».. لا تستطيع الفهم كيف لمسألة قتل الناس أن تخضع لمعايير خير أو شر، باستثناء أن الأرض، التي يبدو أنهم يقدسونها، ترشدهم إلى أي المعايير يتبعون. مما يعني أن الأرض.. هي.. مَن تقرر مَن يستحق الحياة، ومَن لا.

مرت ساعات دون طائل، والعربة تتأرجح بهم والحراس يحدقون في صمت. استمرت لينا في البكاء حتى نفدت دموعها. أخيرًا، انحنى للأمام الحارس الشاب، الذي يجلس قبالتها، وتطلع من خلال النافذة العالية.

- لقد اقتربنا.

ثم التفت نحو الفتيات في تقطيبة جامدة: «لم يبق الكثير من الوقت، إذا أرادت الأرض».

كرر الآخرون: «إذا أرادت الأرض».

تبادلت جلاس وأوكتافيا نظرات قلقة.

انحرفت العربة بحدة، فمالت الفتيات، هبت رائحة العرق النتنة ورائحة الفم الكريهة إلى أنفها مع الحركة المتأرجحة. التفت الحراس جميعًا ينظرون إلى الخارج من خلال النافذة الأمامية الصغيرة، خلف مقعد السائق. دفعها مزيج من الفضول والتوتر، أن تمد عنقها لأعلى، لتعرف إلى ما ينظرون.

إنه جدار ضخم عالٍ، مُغطى باللبلاب. يزداد طولًا وعرضًا مع اقترابهم. انتبه ذلك الحارس الشاب أنها تراقب، فابتسم لها في جمود: «لقد وصلنا إلى منزلنا الكبير».

ردت جلاس، غير واثقة مما عليها أن تقول: «نعم».

بدا عليه تحمُّس بالغ، وانتفخ صدره متفاخرًا: «لقد بُني هذا المكان قبل زمن الحروب، التي صار الإنسان حينها شريرًا ومؤذيًا.. إنه أعظم حصن على وجه الأرض. عاش هنا أقوى الرجال، وادخروا قوتهم، وبعدها، استولت الأرض على قوتهم، ومنحتنا إياها. يكمن سحر الأرض فينا، هكذا هو قول سورين».

سألت: «من هو سورين؟».

أومأ لها: «المتحدث باسم الأرض».

فكرت: سورين هو زعيمهم إذن.

باتت لديها معلومة إضافية عن هؤلاء الغزاة.

أردف آخر: «لقد بُني منزلنا الكبير في تصميم خماسي مثالي».

قاطعه أصغرهم سنًّا: «نطلق عليه النواة، وهو موطننا الجديد. إذا أرادت الأرض، سيُعد قاعدة لعملنا الأعظم».

أظلمت العربة، لسقوط ظل الجدار الرمادي الضخم عليها. ثم توقفوا بحدة. مدت رأسها للأمام في فضول، عندما فُتحت الأبواب الخلفية، لتتابع استطلاعها. لكن ما إن وطأت أقدامها الأرض، ربط أقرب الحراس عصابة حول عينيها. لم تعترض، فهي تعلم أنها على أرض العدو، والسبيل الوحيد للنجاة هو البقاء على قيد الحياة لأطول فترة ممكنة، حتى وصول فرقة الإنقاذ. التزمت الصمت، وكمكافأة على حسن تصرفها، لانت قبضة الحارس حول مرفقها. حيث افترضت أنه يقودها للأمام، إلى داخل هذا البناء الضخم، نحو ما ينتظرهم، نحو ما ستجبر نفسها على تحمُّله، لفترة قد تطول.

بينما يعبرون خلال ما تعتقد أنه بهو، ذات أرضية صلبة منبسطة، أصابتها قشعريرة وتسارعت دقات قلبها. لقد أصبحت داخل حصنهم. سكن الهواء وصار دافئًا، فيما يقودونها عند زاوية، تتبعها أخرى. حاولت أن تحفظ الطريق، ولم تقدر. توقفوا ثم رُفعت العصابة عن عينيها، بطريقة درامية غريبة، وكأنها من المفترض أن تنبهر.

طرفت عيناها، لتجد نفسها في غرفة واسعة خافتة الإضاءة، بلا نوافذ، كالكهف. تمتد بها حتى نهاية السقف العالي، أعمدة خرسانية متقاربة نسبيًّا، ومُعلق بكلٍّ منها مصباح مضيء. بدأت عيناها تتكيفان الضوء، لكن ليس هناك ما يحتاج للفحص، فبالكاد توجد أشياء هنا، فيما عدا أُفْرِشة منبسطة على مسافات متباعدة متساوية. تجلس عليها بعض الفتيات، لا تصدر عن إحداهن حركة، ويمددن أرجلهن على الأرضية الباردة، فيما تسمرت أعينهن على الوافدات الجدد.

حاول الحارس الشاب الابتسام قائلًا: «هذا عرين النساء. تصرفي على راحتك».

عرين؟ استغربت جلاس الاختيار العجيب لهذه الكلمة.

انحنى الحراس بطريقة غريبة، قبل أن يتركوا وراءهم الأسيرات الثمانية، ومن ثم، تراجعوا للخلف، وأغلقوا الباب خلفهم.

تهيأت لسماع صوت القفل، وبالفعل، صدرت القرقعة نفسها التي لا تزال تطاردها منذ أشهر احتجازها الرهيبة. أطلقت ضحكة يائسة مكتومة على سخرية القدر. لقد هربت من سفينة الإنزال، وزحفت عبر مجاري الهواء كالمطاردين، وسارت في الفضاء، وفقدت والدتها في أثناء كفاحها للوصول للأرض.. *من أجل ماذا؟* ها هي، تُحتجَز مجددًا، وتبعدها عن لوك مسافة أبعد من الجسر السماوي.

بعد إحكام غلق الباب بالقفل، جلسن على الأُفْرِشة المتنقلة في استكانة. يلتمسن بعض الراحة، يدلكن كواحلهن، ويُربِّتن على أكتافهن. وجدت أكثر من عشرين فتاة في هذا «العرين»، يرتدين فساتين بيضاء، وشعرهن مشدود في ضفائر للخلف. تجلس أقربهن إليها بقدمين عاريتين، ولسبب ما، كانت عابسة. حاولت أن تبتسم باضطراب في وجه الفتاة، لكنها لم تبادلها الابتسام، بل انفجرت بها صائحة: «عليكِ أن تخلعي حذاءك. يجب أن تلمس أقدامنا الأرض، ما دمنا في خدمتها».

تنهدت فتاة حسنة المظهر، ذات شعر داكن مجعد، بضجر: «انظري تحت قدميكِ، يا بيثاني. هل هذه هي الأرض بالنسبة إليكِ؟ إننا بالداخل الآن».

حدَّقت جلاس إلى وجهها في ذهول. لم تشبه لكنتها أحدًا من الأرضيين، ولا أحدًا من هؤلاء الحُماة، بل تشبه... *لا، هذا مستحيل...*

لاحظت أوكتافيا الأمر أيضًا، وأدارت رأسها لتحدق إلى هذه الفتاة، وقد اتسعت عيناها.

أسندت الفتاة ذات الشعر المجعد قدميها على الفراش، ضاربةً بقاعدة *الأقدام الملامسة للأرض عرض الحائط*. انعكست إضاءة المصباح على وجهها، بينما تتراجع للوراء، فتأكدت جلاس من ظنها. قبضت على ذراع أوكتافيا وسارتا معًا بهدوء في اتجاه الفتاة.

همست جلاس: «هل أنتِ من المستوطنة؟».

انتفضت الفتاة، وكادت توقع جلاس أرضًا. قالت: «إن لكنتكِ... هل أنتِ من فينيكس؟».

تبادلت الفتاتان نظرات الحيرة لبضع لحظات، حتى قالت جلاس: «هل هذا معقول؟ ما هو اسمكِ؟ من أين أتيتِ؟».

- اسمي آنا. جئت على متن سفينة إنزال جنحت عن مسارها. لا أعرف ما حدث، غير أن السفينة تحطمت بنا في منطقة بعيدة.

جفلت جلاس، وقد عاودتها بعض ذكريات الارتطام الرهيب، فأغلقت عينيها.

استطردت آنا، بصوت مبحوح: «لم أشهد أبشع مما حدث. مات أحد عشر شخصًا تأثرًا بالاصطدام، تبعهم الكثير خلال الأيام التالية. يا للسخرية. نقضي حياتنا كلها، يُحكى لنا عن الأرض، وأنها الجنة، ثم نتبين أنها مجرد كابوس مرعب لا ينتهي. تمنيت حقًّا لو أنني ممن تُركوا هناك».

قالت جلاس، متمايلةً من جانب إلى آخر، تتذكر وجوه الناس الذين أدركوا ألا ملجأ لهم من حتمية نفاد الهواء: «لقد هلك من بقي على السفينة».

ردت آنا بمرارة: «أعرف، ومع ذلك تمنيت لو بقيت مع عائلتي. لا أحد لي هنا. كم أكره هذا الكوكب».

- ليست الأمور كلها هنا بهذا السوء.

شابَ صوتها بعض الحزن، وهي تفكر في لوك، وتجولها معه عبر الغابة، متعلقةً بمرفقه. تفكر في استيقاظها بين ذراعيه على زقزقة العصافير المبهجة كل صباح.

اقتربت أوكتافيا من آنا، تسألها بفضول: «ماذا حدث بعد تحطم سفينتكم؟».

توارى الرعب البادي على وجه أوكتافيا للحظات، وراء لقائها المثير لأحد المستوطنين الجدد.

- ما حدث لا يُصدق. فشل الجميع في الاتفاق حول ما يجب فعله. أردنا العثور عليكم بالطبع، لكننا لم نعرف كيف نصل إليكم. انقسمنا في النهاية إلى عدة فرق صغيرة. أُدرك الآن كم كان قرارًا سخيفًا. ربما

لو كنا معًا، لنجا الكثير منا. أما فُرقتنا عن بعضنا بعضًا، جعلت من السهل مهاجمتنا...

هزت رأسها باتجاه الباب ساخرة.

- لقد قاتلتُ بأقصى طاقتي، حتى إنني كسرت أسنان العديد منهم.

قهقهت أوكتافيا ثم قالت: «أحسنتِ».

تابعت آنا: «قاتلنا، إنما ليس بما فيه الكفاية للهروب منهم. لقد أُسِرتُ وعدد قليل من الفتيان. مرت علينا عدة أسابيع، وما زلنا هنا».

ثم أضافت، بعدما نظرت حولها بحذر، كأنما تخاف أن تسمعها إحداهن: «وماذا حدث معكم؟».

انقبضت عضلات معدتها. هل أُسِر أحد الفتيان من مخيمهم كذلك؟ دعت ألا يكون ويلز من بينهم.

اكتفت جلاس بالاستماع، فيما أخذت أوكتافيا تحكي لها ما حدث بإيجاز. تفاجأت جلاس من طريقتها الطفولية في الحكي. تذْكُر أن أوكتافيا لم توجد مع أناس لعدة أعوام. الأمر الذي يبدو منطقيًا، وخاصة، بعدما عرفت عن فترة طفولتها، التي قضتها مختبئة، وعن فترة مراهقتها بمركز الرعاية، وكذلك الصدمات التي تعرضت لها بعد الهبوط على الأرض.

خلال الضوء الخافت، رأت عينَي آنا تتسعان تشوقًا للمزيد، بينما تستطرد أوكتافيا في أحداث قصتهم.

- لديكم كبائن؟ وما يكفي لإقامة وليمة؟ هذا مذهل.

ابتسمت أوكتافيا بأسى: «كانت لدينا كبائن. قبل أن يفجر معظمها هؤلاء الحُماة. لا بد أن بيلامي يكاد يفقد عقله قلقًا».

- بيلامي؟ هل هو صديقك؟

هل تتخيل، أم هناك حقًّا نبرة إحباط في سؤال آنا؟

هزت أوكتافيا رأسها: «لا، إنه أخي».

- أخوكِ؟ أتعنين أنكِ من المستوطنة ولديكِ أخ؟ يجب أن تخبريني بكل شيء عنه.

تراجعت آنا، وربتت على فراشها تدعوهما للجلوس. استجابت أوكتافيا على الفور، وجلست إلى جوارها.

همست جلاس، وهي تجلس على الجانب الآخر من الفراش: «لماذا يفعلون ذلك؟ ماذا يريدون منا؟».

نظرت آنا حولها مرة أخرى، وهمست: «يُطلقون على كل الفتيات بهذا المهجع *المجندات*. وقد أُسِرن من عدة أماكن. في وجهة نظرهم، اختِرنا من أجل خدمة الأرض. وبالحقيقة، يقصدون خدمتهم: نطبخ، وننظف ونغسل، ونفعل أيًّا ما يأمروننا به...».

توقفت آنا وعضت شفتيها.

سألتها أوكتافيا: «إذن فنحن مجرد خادمات؟».

ردت آنا هامسة: «لا. هذا كل ما فعلته خلال الأسابيع الماضية، لكن أعتقد أن هناك عملًا آخر خلاف ذلك».

رغم دفء المهجع، ارتجفت جلاس.

- ماذا؟

- لستُ واثقة تمامًا. عندما وصلنا إلى هنا، جعلونا نخضع لنوع من طقوس التطهر في النهر. قالوا إننا لسنا مستعدات لننضم إلى الحُماة، لأنه لا أحد ينضم رسميًّا إلى صفوفهم، إلا إذا أذنت له الأرض بغرس البذور. من الواضح، أنهم ينتظرون إشارة من الأرض، ليصبح حصن النواة موطنهم الجديد بالفعل. حينها، يتبقى أمامنا اختبار أخير لنثبت أننا صرنا نُصدِّق عقيدتهم، غير أنه لم نُخبَر بالكثير عن هذا الاختبار، ويساورني القلق من احتمال استغلالنا في أعمال أخرى.

شعرت جلاس بالغثيان، فيما تجول ببصرها، تتأمل الفتيات الجالسات على الأفْرِشة، وقد وقعن جميعًا تحت رحمة بعض المختلين.

علقت أوكتافيا، بنبرةٍ خطرة مقلقة: «يسعدني أنكِ أوضحتِ لي كيف سأكون ذات فائدة لهم، بينما أغرس خنجرًا في ظهورهم».

- رائع، تتبعين نفس نهجي. أُكِنُّ إعجابًا كبيرًا بالفتيات الشجاعات، وخاصة اللواتي يربطن شعرهن بشريط أحمر.

مدت أوكتافيا يدها إلى شعرها: «لقد قلتُ لهم إنني سأخنقهم بهذا الشريط، إذا فكروا في قطعه، لذا سمحوا لي بالاحتفاظ به».

ابتسمت لها آنا: «لسببٍ ما، لا أندهش من ردة فعلك».

سمعت جلاس صدى خطوات من مسافة قريبة. بهت وجه آنا فجأة، وصار شديد الشحوب، وأسرعت بوضع قدميها على الأرض.

تبادلت جلاس وأوكتافيا نظرات متسائلة: *ما الذي يجري هنا بحق الجحيم؟*

الفصل التاسع

ويلز

- إنك تركض مثل أرنب جريح، يا فتى! هل علقت شوكة بقدمك؟ اركض! أسرِع!

جعلته رائحة فم أحد الحراس، وهو يصيح بوجهه، يرغب في التقيؤ. شعر ويلز، وكأن دهرًا قد مضى، وهو يركض، حتى صار كل جزء بجسده يصرخ من التعب.

أخيرًا، بعد رحلة شاقة، بدت لا نهائية، في تلك العربة النتنة، وصلوا عند الظهيرة إلى حصن النواة، ذي الجدران الخمسة المتداعية. لم يُسمح لهم حتى ببضع لحظات لالتقاط أنفاسهم من الرحلة. بعد جرِّهم للخارج، ساروا في صفوف عسكرية، وتوقفوا عند ما يشبه أحواضًا كيميائية. أخذ الحُماة يدفعون أسيرًا تلو الآخر، ويلقونه داخل الأحواض دون أي مقدمات. سبق إريك الجميع وتوقف عن الصراخ، مدركًا أنه لا يُغرَّقون في سائل خطير، بل في ماء بارد مثلج.

صرخ فيهم الحراس: «اغتسلوا».

رغم غرابة الموقف، شعر بالامتنان، جاءت فرصته أخيرًا ليستفيق ويستعيد انتباهه. أخرجوا بعدها الأسرى، وتركوهم وسط رياح الخريف قارسة البرودة، ليجففوا أنفسهم، فيما يلتقطون زيهم الجديد من كومة الأردية البيضاء. لا يزال هناك اسم *لوران* مكتوبًا على ياقة الرداء الذي اختار ويلز. تساءل: *أكان*

لوران هذا أسيرًا؟ أم من مُصدِّقي هذه العقيدة؟ أم أنه قضى هنا زمنًا طويلًا بما يكفي لإطلاق سراحه؟

يبدو أن هذا الحصن قد شُيِّد في الماضي ليصير قلعة محصنة، ومع ذلك، قضت الطبيعة على كثير من قوته وبهائه. تنتهي بهم بعض الأروقة، إلى أشجار كثيفة متشابكة، تخترقها سلالم، لا تفضي إلى أي مكان. هناك أيضًا درب قديم يطوق الحصن، حيث يركض ويلز، وإريك، وجراهام، وباقي الأسرى من الأرضيين. لا يعرف ماهية ما يفعلونه: أهي لعبة، أم عقوبة، أم اختبار؟ كل ما يعرفه أن عليه الاستمرار في الركض.

صاح فيه حارسٌ ملتحٍ، بينما يهرول بجانبه: «أنت تجري على *الأرض*».

ثم صرخ فيه: «إنك تجلدها بقدميك. اعتذر منها!».

ردد ويلز لاهثًا عند كل مسافة: «إنني آسف».

تابعهم الحراس على طول الطريق، حاملين عصيًّا غليظة قصيرة. رأى بعينيه ماذا يفعلون بهم عند رفض الترديد.

- تركتها لتموت، يا حثالة الفضاء. توسل الغفران منها!
- أرجوكِ.. اغفري لي...
- تعهد أن تظل بخدمتها!

شعر بساقيه تتهاويان، وبصدره يحترق. بالكاد يمكنه التحرك، كيف له أن ينطق.

- أتعهد...

طارت قبضة الحارس في الهواء، وضربت فكه بقوة، جعلته ينحرف عن الطريق. رغم اللكمة الساخنة المؤلمة على وجهه، أبت قدماه الاستسلام. يجب أن يواصل الركض.

رافقه الحارس مهرولًا، لكنه أشاح بنظره بعيدًا: «إنك لا تصلح لخدمتها بعد. استمِر بالركض».

لفت انتباه ويلز حركة على يساره. لقد تعثر جراهام، وسقط على جانب الطريق، قابضًا على فكه، وبجانبه حارس آخر من الحُماة يضم ويفتح يده، فعلم أن جراهام وصل، إلى جزء *تعهد بخدمتها* من النص الموضوع لهذا البرنامج.

نبض الوريد برقبة جراهام بسرعة، وتحول وجهه إلى أحمر دامٍ. رآه يشدُّ على قبضتيه وينهض، فانحرف ويلز عن طريقه، متجهًا نحوه، ومن ثم طرحه أرضًا. للحظة، بدا في عينَي جراهام المسعورتين، أنه سيلكم ويلز في وجهه، قبل أن يلتصق بأذنَي جراهام، في الوقت المناسب، هامسًا: «لا تفعل شيئًا، ليس دون خطة».

انتفض الحراس، وجروهما من ذراعيهما بعيدًا.

عند المنعطف التالي، اتسع الطريق وظهرت ساحة صخرية شاسعة. بخلاف بعض حطام الحصن، الذي اختلط بجذوع شجر متكسرة، خلت هذه الساحة من أي شيء، فيما عدا دربًا واسعًا ممهدًا، يؤدي لأكبر جانب سليم من هذا المبنى الهائل.

وجدوا في انتظارهم صفًّا من الجنود المسلحين أمام المدخل. شعر أن الدم يندفع من وجهه وصدره، فيما يتساءل عما إذا ارتكب خطأً فادحًا. لربما خاطر بفرصته الوحيدة للنجاة، ليحذر جراهام.

صاح حارس آخر ملتحٍ، عندما اقتربوا منهم: «اصْطَف».

سأل ويلز بحزم، محاولًا المحافظة على ثبات صوته بقدر الإمكان: «إلى أين يأخذوننا؟».

رأى صف الجنود يقتربون منه، ليقوده بعيدًا. جاءه الرد من أحد الجنود: «لتأكل».

تنهد ويلز بارتياح، أما الحارس فسعل بطريقة مريبة، وكأنه يشمئز من كلمةٍ تعني طعامًا.

- وبعد ذلك، ستعود إلى هنا مباشرةً. هل لديك أي اعتراض؟

هز ويلز رأسه نفيًا، وألقى التحية، التي تعوَّد إلقاءها في أثناء تدريب الحراس على متن السفينة سابقًا. بدأ الحارس بالتحرك، وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة. تجرأ وسأله، قبل أن يبتعد: «ما هو اسمك؟».

استدار الحارس، ووجهه لا ينم عن خير، لكن ويلز أصرَّ، ولم يرمش له جفن، سائلًا: «ما اسمك؟».

أجاب الحارس، وكاد يلصق وجهه بوجه ويلز: «غير مسموح لك بسماع اسمي. إذا أردت مناداتي، فاختَر ما شئت. نادِني باسم أُوك مثلًا».

- حسنًا، يا سيدي.

اقتنص فرصة قرب الرجل الشديد منه، ليلقي نظرة على ياقة قميصه. قرأ اسمًا مكتوبًا بحبر واضح: «أومالي». هل هذا اسمه الأصلي، أو اسم شخص آخر سبقه إلى ارتداء هذا الزي؟

لم يحصل إلا على طبق بارد من الشوفان، ولديه جولة ركض شاقة أخرى لاحقًا. فوق ذلك، أسدل الليل ستائره سريعًا، فتعثر في درب مظلم، على طول هذه الجدران الضخمة. بالكاد يستطيع الوقوف على قدميه، ورأسه يتدلى على صدره، بينما ظل حارسان برفقته، يجبرانه على المشي.

عندما رفع رأسه بصعوبة ناظرًا، وجد أنه وصل إلى نهاية الدرب، حيث تقع غرفة واسعة، تصطف بها عدة أقفاص. نظرًا إلى حالته الشديدة من الإرهاق، استغرق الأمر منه بضع لحظات ليتخلص من دهشته، ويدرك أن هذه الأقفاص ليست مخصصة للحيوانات، بل لهم. في كل قفص، بالكاد تتوفر مساحة للنوم على فراش ملفوف، بجواره إناء خزفي. فهم بالطبع أن هذا وعاء للفضلات. بالإضافة إلى مَن أُسِروا من المخيم -وعددهم أحد عشر، بما فيهم هو نفسه- هناك نحو اثني عشر 'مجندًا' آخر، لم يأتوا معهم.

هاله ما رأى. مَن هؤلاء الأسرى الآخرون، الذين يتأوهون ويتمتمون في الأقفاص المجاورة؟ ومن أين أتوا؟ يعرف جيدًا كل القرى التابعة لماكس، بما فيهم، الفصيل المنشق. من الواضح أن الحُماة قد اكتشفوا -وداهموا- مجتمعات مأهولة أخرى على هذا الكوكب.

صاح أحد الحارسَين، بينما يحملانه، ويلقيان به إلى داخل القفص: «ستبقى هنا حتى تصبح واحدًا منا رسميًّا. اغتنِم بعضًا من الراحة، فغدٌ يوم شاق».

انطفأت المصابيح، وأحاطهم ظلام دامس. استمع إلى أنفاس غير منتظمة، وسعال بآخر الصف، ولم يصل إلى سمعه أي محادثات بلكنة الحراس الجامدة.

في هذا الصمت، عاوده التفكير فيمن تركهم خلفه: أخيه بيلامي، وكلارك -التي لم تعد حبيبته، لكنه لا يزال يهتم بسلامتها- وماكس، الذي يعتبره بمكانة أب له، بعد أبيه الذي فقده. تساءل عما إذا ما زالوا بخير، ولاحت بعقله

خيالات مؤلمة، لا يقوى على احتمال التفكير فيها. بالنهاية، صب تركيزه على حقيقة واحدة. أنه قد يفعل أي شيء، ليراهم مجددًا.

قد يفعل أي شيء، ليستيقظ عند الفجر، ويعبر الساحة الهادئة، ليجد مولي في انتظاره. ينصت إلى ثرثرتها، بينما تجلس على الصخرة، تراقبه وهو يقطع الحطب. يريد مساعدة لوك في إعادة بناء الكبائن. يجب عليه زراعة الزهور عند قبر ساشا، ويسقيها حتى تنمو. رغم أنه فشل أن يصبح قائدًا جيدًا لهم، يمكنه أن يقدم أفضل ما لديه من أجلهم. يمكنه أن يحسن العمل. يمكنه أن يكفر عن خطاياه التي ضاعفت معاناة الجميع.

سمع همسًا بالقرب منه: «ويلز!».

قفز فزعًا، مما جعل قفل قفصه يرن مهتزًا.

- هل أنت مستيقظ؟

زفر ويلز. إنه إريك. هذه هي الفائدة الواحدة من احتجازهم داخل أقفاص، تشبه حاويات نقل البضائع السائبة، حيث يظل بقرب من يحتاج إلى محادثتهم.

همس له: «نعم، إنني مستيقظ».

سمع همسًا من الجهة الأخرى: «وأنا كذلك».

إنه جراهام، لكنه لم يعتد سماع تلك النبرة الخافتة منه. يبدو أن تبجُّحه قد ارتد كله في وجهه اليوم. خفق قلبه، وشعر بجرعات من الأدرينالين تندفع إلى عروقه.

- يا لهم من أغبياء ليتركونا متجاورين.

قال جراهام بنبرة خافتة: «ماذا تعني؟».

رد ويلز هامسًا: «علينا الخروج من هنا، دون فعل تصرفات غير محسوبة، مفهوم؟ لديهم قناص، وقنابل يدوية، ولا نعلم ماذا لديهم أيضًا، ويخفونه عن أعيننا. الأمر الوحيد الذي سيمكننا من ذلك، هو التصرف بذكاء، أن ننتظر، ونستمر بالتظاهر، حتى تحين الفرصة المناسبة».

قرقر قفص ويلز، فيما يهزه جراهام بعصبية: «نتظاهر بماذا؟ أننا نتعلم كيف نقدس الكوكب، إلى آخر هذا الهراء؟».

قال ويلز: «نعم، هكذا بالضبط. إنهم يتصرفون، وكأننا محظوظون لأنه أُخْتِرنا. لذلك لنجعلهم يعتقدون أننا نتعلم حقًّا».

- وكأنني سأقبل! عندما يفتحون هذا القفص، سأخرج من هنا، مهما كثر عدد الرؤوس التي سأهشمها.

قال إريك بضجر: «سيطلقون عليك النار قبل أن تفكر في فعل أي شيء. أتفق مع ويلز. هذه فرصتنا الوحيدة لمعرفة نقطة ضعفهم، ومن ثم العودة إلى وطننا».

همس جراهام بحسرة: «عن أي وطن تتحدث؟ وهل تبقى لنا شيء هناك؟».

رد عليه إريك، وقد شاب صوته ألمٌ خفيٌّ: «لقد رأيتُ فيليكس على قيد الحياة، عندما أُسِرتُ. يساعد الأطفال على الهرب نحو المشفى. ربما استطاع النجاة، وربما لا يزال بانتظاري».

قال ويلز: «نستحق جميعًا النجاة، حتى أنت يا جراهام. رأيتك عند البحيرة في يومٍ ما، تُعلِّم كيث كيفية صيد السمك. لقد جعلتنا رحلة وصولنا إلى الأرض أكثر شجاعة، ونبلًا، وجسارة. لسنا مثل هؤلاء الحُماة المخبولين. فنحن نعلم أن الأرض قد غفرت لنا، ومع ذلك، هذا لا يعني أن عملنا قد انتهى. يتوجب علينا الخروج من هنا، والعودة للوطن».

حدثت جلبة خفيفة، وجراهام يعتدل في جلسته. تنهد، ثم قال بعد صمت طويل: «حسنًا، أنت الفائز، أيها المستشار المبتدئ. ما دمتَ تعتقد أنه علينا التظاهر.. سأتابع التظاهر. وفي غضون ذلك، نتجهز للقضاء على هؤلاء الأوغاد، عندما يحين الوقت المناسب».

أردف إريك، بنبرة مازحة: «إذا أرادت الأرض».

كرر ويلز ساخرًا، قبل أن ينكمش على نفسه فوق فراشه البالي: «إذا أرادت الأرض».

رغم النبضات التي تخفق بصدره من الإعياء والقلق، فإن قلبه قد مسَّه، أخيرًا، طيفٌ من الأمل.

الفصل العاشر

بيلامي

في هذا الجو الحار من الظهيرة، اصطفت ثماني حقائب متجاورة محشوة بالمؤن والمعدات، وجاهزة لحملها على طول طريق طويل، لا يُعرف له نهاية.

فتح حقيبته، وأفرغ محتوياتها: لحم مجفف، تفاح، قطعة جبن، نصف رغيف خبز محروق بعض الشيء، فراش نقَّال. رُتبت الحقائب بعناية، لكن الناس هنا أولى بكل هذه الأشياء هنا. إن كل ما يحتاجه هو قوسه وجعبة السهام، وكذلك قربة ماء جلدية صغيرة، يملؤها خلال الرحلة. لا حاجة له للفراش. وبالنسبة إلى الطعام، لديه خنجره الصغير، يمكنه الصيد وقطف الثمار على طول الطريق.

صاح بول، مصفقًا بوتيرة مزعجة: «هيا جميعًا. انهضوا واحملوا الحقائب. هذا أفضل وقت للتحرك».

استدار بيلامي وحكَّ صدغه. إذا استمر هذا الأحمق في الصياح على هذا النحو، سينقض عليهم الغزاة، قبل أن تطأ أقدامهم الطريق.

استرق بعض الأطفال النظر إليهم، من خلال فتحات بالثكنة الخشبية، التي بناها بيلامي. فركت فتاة صغيرة من بينهم عينيها، ثم حدَّقت إلى وجهه في عبوس. لوَّح لها، فابتسمت بخجل، ثم تلاشت ابتسامتها، وأخذت تتأرجح للأمام والخلف على قدمين عاريتين. اعتزم أن يقدم لها تفاحة، على أن تعده

بمشاركتها مع أصدقائها، غير أنها سبقته، وأشارت له بإصبعها ليقترب. ابتسم واقترب منها لتهمس بأذنه بما تريد.

- هل ستذهب للبحث عن أوكتافيا؟

أجابها، وتراجع قليلًا لينظر إلى عينيها مبتسمًا، رغم الألم الذي يعتصر قلبه: «بالطبع».

انحنت لتهمس له مجددًا: «هل ستخبرها أننا نحبها ونفتقدها، ونريدها أن تعود للمنزل؟».

- سأفعل ما هو أفضل. سأعيدها بنفسي.

قبل أن يطرف بعينيه، شعر بدفء ذراعيها الصغيرتين تطوقان رقبته. ثم تركته وطارت بعيدًا، حتى اختفت عن ناظريه.

تنهد والتفت نحو كلارك، التي بدأت عند نهاية صف الحقائب، بإفراغ حقيبتها من الطعام، لتتركه بالمخيم، كما فعل تمامًا. بادلته الابتسام، ورفعت تفاحة قرمزية زاهية بيدها، ثم وضعتها جانبًا. تلاشت ابتسامته، ما إن اقترب بول قاطعًا عليهما تلك اللحظة.

- هل تعتقد حقًّا أن إعادة ترتيب حقائبنا الآن فكرة جيدة؟ علينا التحرك في الحال.

قال بيلامي بشموخ، متفاخرًا بطوله، الذي يضاهي طول بول: «إنني على أتم الاستعداد. أحرص فقط ألا يموت شعبنا من الجوع في غيابنا».

لم يبدُ على بول أنه فهم تلميح بيلامي: «هل ستترك كل حصتك من الطعام هنا؟».

قاطعته كلارك ملوحةً بيدها بلا اكتراث: «لا نحتاج إلى كل هذه الأشياء. كما أننا سنكون أسرع مع حمل أخف، ألا تعتقد ذلك؟».

قال بول بتمعن، بينما اتسعت عينا بيلامي: «فكرة جيدة، يا آنسة جريفين».

انتظرهم باقي أعضاء الفريق عند الساحة. وصل عدد المتطوعين إلى عشرين شخصًا، قبل أن يصر ماكس ورودس على ذهاب ثمانية منهم فقط، من بينهم: بيلامي، كلارك، لوك، بول، وفيليكس، بالإضافة لثلاثة مقاتلين مهرة من الأرضيين، لهم خبرة في تقفي الأثر ودراية بالغابات، وهم: امرأة

شابة تُدعى فال، رجل عريض المنكبين، يُدعى كوبر -لديه ندبة على وجهه- وأخيرًا، فتاة تكبر بيلامي بعدة سنوات، تدُعى جيسا، التي يُعد أخوها كيت، أحد أعضاء المجلس، ضمن الذين أُسِروا من قِبل المهاجمين.

ساور رودس وماكس بعض القلق حول قدم لوك، لكنه رفض التراجع. وقال لهم بنبرة مهذبة: «مع كامل احترامي، إنني من أفضل الرماة. ولن أتنازل عن بندقيتي في سبيل إنقاذ جلاس».

أما بالنسبة إلى بول، فليس لديه قريب أُسِر، إلا أن واجبه يحتم عليه التطوع، من وجهة نظره، بحكم أنه عمل ضابطًا رسميًا على متن السفينة. وكأن أحدهم قد يهتم لسبب يزعمه.

جادلهم بول، صائحًا بالطبع: «إنني الوحيد من بينكم، الذي سار في الغابة شرقًا. لدي دراية بطبيعة المنطقة هناك، وأعرف التحديات التي قد تواجهنا. لقد قدتُ الناجين منا بنفسي حتى هنا، وباستطاعتي إرشاد هذه الفرقة إلى هناك».

يفضل بيلامي أن ينسل بهدوء، ويذهب وحيدًا، على هذه الجلبة، التي لا لزوم لها. حمل حقيبته على كتفه، وجال بخاطره للحظة خاطفة، أن يحمل حقيبة كلارك كذلك. تخيل عينيها الخضراوين، وهي تحدق إليه في نفور، فعدل عن ذلك. إنها أقدر منه بألف مرة على احتمال العمل الشاق، على أي حال. بعدما صافح يد ماكس، وأومأ برأسه إلى رودس، لحق بالفريق عند حافة الغابة.

سمع بول يتنحنح: «نحن فريق من ثمانية شجعانٍ يزحفون إلى الخطر بأرجلهم، لأن هذا واجب عليهم. رغم أنه لا يمكننا توقُّع الطريق، لديَّ يقين بأننا سنتغلب على الصعاب، ونعيد أصدقاءنا إلى الوطن سالمين...».

ضرب صدره بقبضة يده، وكزَّ على أسنانه في حماس، مستطردًا: «عندما سقطت بنا سفينة الإنزال، واعترى الجميع القلق واليأس، أتعلمون ماذا قلتُ لهم؟ قلتُ...».

قطع بيلامي عليه خطبته: «لنرجئ نهاية هذه الحكاية الرائعة لوقت لاحق. حان وقت الذهاب».

هز بول رأسه: «لا يمكننا دخول الغابة دون نظام. علينا أن نسير وفق تشكيل محدد».

كرر متمالكًا أعصابه: «تشكيل؟».

- هذه هي الطريقة التي تتبعها قوات الحراسة. إليكم اقتراحي: سأسير في المقدمة، في حال وقعنا في مأزق، وعلى الباقي أن يتبعني في تشكيل ثنائي.

فأردف بنبرة جافة: «عددنا زوجي. لا يمكننا السير جميعًا في تشكيل ثنائي...».

سارع بول إلى الرد: «أعرف ذلك. سيسير لوك في المؤخرة، ليحمي ظهرنا».

نفد صبر بيلامي، فثار غاضبًا: «إنها فكرة سخيفة أن تترك لوك وحيدًا خلفنا»، ثم جفل ناظرًا إلى لوك، «لا تؤاخذني يا صديقي. لكن قدمك لم تُشفَ تمامًا بعد، وهذا العرج سيبطئ حركتك».

التفت إلى بول ثانيةً: «كما أنه ليس بإمكانك قيادتنا. هل لديك معرفة بتتبع الأثر في طرق مجهولة بالغابة، سواء بالليل أو بالنهار؟ هل تعرف ما يتوجب فعله لعبور طرق كهذه؟ هل واجهت أحراشًا مظلمة تسد عليك الطريق، يصعب من كثافتها تحريك قدميك؟ هل سرت على صخور تستحيل وحلًا زلقًا في ليلة؟ هل لديك إلمام بكل هذا؟».

صمت بول تمامًا، ولم ينبس ببنت شفة. أومأ بيلامي برأسه، مشيرًا نحو الأرضيين الثلاثة: «لا يمكن أن أرغب بدور قيادي في وجود هؤلاء الناس. إن لديهم خبرة في الصيد والسير في الغابة تفوقني إلى حد بعيد. لذلك إذا أردت أن تقودنا، فالمقدمة لا تصلح لك، عليك أن تقود بين الصفوف».

دهش بول، وقد امتقع وجهه: «الصفوف؟ هل لي أن أذكرك بأنني كنتُ ضابطًا برتبة عالية؟ ولا أقبل أن يقلل أحدهم من شأني، وخاصة شخصًا...».

قاطعته كلارك: «إليك ما سنفعل. سيتقدمنا بيلامي، ليحدد لنا الطريق الأفضل الذي سنسير فيه. أما بالنسبة إليك يا بول، يمكنك أن تظل في مقدمتنا نحن لتحمينا وراءك. وبدلًا من أن تنشغل بتتبع الطريق، يمكنك الاهتمام

باختيار المكان الأنسب للراحة والتخييم، بعيدًا عن أي خطر محتمل، بما أنك تعرف طبيعة هذه المنطقة جيدًا. وسيتبعك لوك ببندقيته، ليحمي ظهرك، ويحمي بقيتنا».

توقفت للحظة، متطلعةً في وجوه الفريق، مفسحةً لهم فرصة للاعتراض أو التعقيب. ولمَّا لم ينطق أيٌّ منهم، تابعت: «إنني راضية أن أبقى بالمؤخرة. فإذا احتاج أيٌّ منا مساعدة طبية، لن أضطر إلى التراجع».

قال بول بابتسامة واسعة، بينما انقبض صدر بيلامي: «هذا يبدو منطقيًّا. أقبل بدور الثاني في المقدمة».

علق فيليكس هامسًا: «جيد أننا لم نُخضِع الأمر للتصويت».

سبقهم بيلامي ببضع خطوات. لقد أضاع عليهم هذا الحديث وقتًا ثمينًا، وقد حان الرحيل. إن القمر مكتمل هذه الليلة، وسيمدهم ببعض الضوء، لكن إذا سبقتهم تلك الغيوم البعيدة إليه، فسيقعون في ورطة. سار حتى ضمته الغابة في هدوئها الطاغي، وتكيفت عيناه الضوء الخافت. وصلوا عند كومة الأوراق، ومن خلفها آثار العجلات.

قال في نفسه، وهو يقتفى أثر الطريق، وقلبه يخفق بقوة: أخيرًا، هيا بنا. هيا لنعيد أهلنا لوطنهم.

الفصل الحادي عشر

كلارك

رغم أن فكرة بول عن التشكيل، بدت سخيفة إلى حد ما، لكنها لم تر مانعًا لديها من البقاء في الخلف. لم تندهش مما مروا به حتى الآن من أراضٍ جديدة، ومساحات خضراء شاسعة تنمو بها نباتات لم تَرَ مثلها من قبل، حتى أفضى الطريق إلى شجيرات قصيرة، ومن ثم إلى غابة كثيفة مجددًا. ساعدها السير منفردة، على مسافة من الآخرين، على تصفية ذهنها، إلا من فكرة واحدة: مع كل خطوة، يزداد الأمل بداخلها، رغم أشد الظروف إحباطًا. حتى إن كلمة ظروف لها وقْع ألطف مما حدث من هجوم وحشي وقفوا أمامه عاجزين.

تراجع الأرضيون الثلاثة قليلًا، حتى أصبحوا يسيرون إلى جانبها. صار أقربهم إليها هذه الفتاة النحيلة طويلة القامة، جيسا. بالكاد تحدثت الفتاة طوال الطريق. ورغم أن كلارك تُقدِّر صمتها، لحاجتها إليه، لاحظت أن عينَي الفتاة شاردتان بالأفق، وتشير تقطيبة حاجبيها إلى قلق بالغ يعتريها.

سألتها بلطف: «كم يبلغ أخوك من العمر؟».

ردت بحدة مفاجئة: «إنه يكبرني ببضع سنوات».

ثم تابعت، وكأنها تحادث نفسها: «يستطيع تدبُّر أمر نفسه جيدًا، لكنه آخر من تبقى من عائلتي. وفكرة أن تستمر الحياة دونه، غير واردة تمامًا. أن نساعد من نحبهم، وننقذهم، هذا ما يتوجب علينا».

قالت كلارك: «أفهم ما تعنين».

ذهب ذهنها إلى بيلامي. منذ خروجهم من المخيم قبل بضع ساعات، وهو متقدم عنها كثيرًا حتى إنها لا تتمكن من رؤيته. تعرف ما يدفعه بتلك السرعة الجنونية، ولا يعود ذلك لمجرد تتبع أثر الغزاة قبل اختفائه. بل ما يدفعه هو خوفه على عائلته. لقد قضى حياته في حماية أوكتافيا، كما اتسقت علاقته مع ويلز بعدما عرف أخوتهما. لذا لا تتعجب من رغبته اليائسة في إنقاذهما.

تعرف كلارك حُرقة الشوق هذه، التي لا تهدأ حتى العثور على من تفتقدهم. لطالما شعرت بذلك تجاه والديها، ورغم العقبات واستحالة تصديق أنهما على قيد الحياة، عادا إليها.

عند ذكر والديها، كزَّت على أسنانها، وقد اجتاحها شعور بالخجل من نفسها. أمضت بعض الوقت إلى جانب والدتها قبل المغادرة. يبدو أن علاج الطبيب لاهيري يُحدِث تأثيرًا جيدًا في تطهير جرحها، بعد أن أخرج الرصاصة التي لم تخترق أي عضو بجسدها، ولكنها ستواجه صعوبة في التعافي. جلست بجانبها، وتهامستا، وأيديهما متشابكة.

كادت تتراجع عن قرارها بالمغادرة، حتى تمتمت والدتها: «إنني فخورة بكِ. إنني فخورة بما أصبحتِ عليه».

إنها تشير إلى إقدامها على الخروج لإنقاذ أصدقائها. في حين أنها، مع كل خطوة تخطوها بعيدًا عن المخيم، عن وطنها، تجد قلبها ممزقًا بين الاستمرار بالتقدم والعودة لوالدتها.

لقد وعدت نفسها: *سأحرص على ألا يحدث لي مكروه. سأعود إليهما سالمة، كما وعدتهما.*

انحدر الطريق تحت أقدامهم، عندما بدأت الشمس في الغروب، وتغلف كل ما حولها بوهج ذهبي. رأت بول أمامها يتفادى كرمة كثيفة تدلى العنب من أغصانها، تمتد لأعلى، ولها أوراق صفراء باهتة. تقصَّت سابقًا عن طبيعة هذه الأوراق، فهي مغطاة بطبقة لزجة، تجذب إليها الحشرات قبل الصباح لتمتصها الكرمة.

سألته مهرولة: «هل أنت بخير؟».

- نعم.

توقف مكانه مما سمح لها باللحاق به، ثم ترنح من جانب إلى آخر، في ذهول: «ما هذا؟».

- لقد أسميتُها كرمة الليل المفترسة. لكن ليس لدي أي فكرة عن اسمها أو حتى إذا سُمِّيت من قبل. أعتقد أنها طفرة حديثة بالطبيعة.

قال بول، مُلقيًا نظرة خاطفة على الشجرة من وراء ظهره: «إنه أمر لا يصدق».

بدا لو أن تعبيره الصارم قد تبدل في لحظة، وصار اندهاشًا واضحًا لا يمكن أن تخطئه العين. لا يهتم كثير من الناس بالنباتات، لدرجة الافتتان بها.

سألته: «ما هو الأمر الذي لا يصدق؟».

هز بول رأسه: «لا شيء على الأرض، يجري على النحو الذي أُخبرنا به. الزهور التي قرأنا عنها وجدناها سامة، والغزلان لها رأسان، حتى الكروم تحولت إلى آكلة حشرات. اعتبرتُ في البداية أن ما حدث بالطبيعة مرعب وبشع، حتى أدركتُ سببًا منطقيًّا لهذا التحول. كل هذه الأنواع تفعل ما ينبغي لها للبقاء على قيد الحياة. كم أحب هذه الروح المقاتلة».

ابتسمت كلارك على الرغم منها: «هل ترى نفسك مقاتلًا؟ تبدو مبتهجًا بهذا التصور عن نفسك».

بادلها ابتسامة حزينة، وهز رأسه: «في بعض الأحيان، يُعد الابتهاج نوعًا من القتال. إذا رأيتِ ما رأيت... لنكتفي بالقول إنني لم أحظَ بنشأة جيدة».

حدَّقت إليه مدهوشةً من التشابه الغريب بينه وبيلامي، الذي لا يمكن أن يتصوره أحد. كلاهما قد عاشا طفولة شاقة، واختارا طرقًا مختلفة عن الآخرين من أجل التأقلم مع ظروفهما؛ تحول بيلامي إلى شخص متمرد ومنعزل، لا يثق بأحد إلا نفسه، بينما حاول بول أن يقترب من الآخرين، ويصبح شخصًا جديرًا بثقتهم.

هز كتفيه: «لكن مهلًا، مَن منا حصل على نشأة جيدة؟ أفترض أن حياتكِ لم تكن وردية أيضًا، وإلا لما انتهى بكِ الحال في السجن».

شحب وجهها، وتذكرت ليلي وباقي الصغار ممن لم تستطع إنقاذهم.

- إنه.. أمر معقد.

وجَّه لها ابتسامة جادة صادقة، تختلف عن ابتسامته المبهجة المعتادة، ثم قال بنبرة خافتة: «أشك في ذلك. إنني متأكد أنكِ حاولتِ فعل ما ترينه صحيحًا فقط».

استمر المسير حتى حل الظلام. لقد كان بيلامي على حق. من المنطقي التحرك بقدر الإمكان تحت غطاء الليل، حتى لا تُكشَف مهمتهم. كما يمكنهم الراحة لفترات وجيزة عندما يتعبون. لا يبدو أن هناك عقبات تواجه بيلامي في تعقُّب العدو. من حين لآخر، يقترب من الفريق ليشير لهم في اتجاه آثار العربة. وفي كل مرة، بالكاد تميز كلارك آثار العجلات في ضوء الشمس، ناهيك بالليل. ومع ذلك، لاحظت أنه كلما طالت فترة المسير، ازدادت حماسته. تراه الآن يقفز مسرعًا، في تلهف حاد، حتى يقبض على الرجال الذين اختطفوا أخته.

أما باقي الفريق، فقد أصابهم التعب والسأم، فاعترف، أخيرًا، بحاجتهم للراحة. تقدمهم للبحث عن بقعة مناسبة، ولحقه الآخرون بعد عدة دقائق. استقروا في وادٍ بجانب جدول صغير، بالقرب من تلة عالية.

رغم برودة المساء، اتفقوا جميعًا على عدم إشعال نار، كي لا يجذب الدخان انتباه الغرباء. افترشوا الأغطية على الأرض، فيما عدا كوبر وفال، اللذين راقبتهما كلارك يتغطيان بأكوام من الأوراق الجافة.

همس صوت سائلًا: «هل تفكرين في تجربة ذلك؟».

التفتت لترى بيلامي يبتسم لها. تسرب دفء إلى قلبها عند رؤية ابتسامته، التي بددت القلق الذي اعتراها في الهواء.

- لا داعي لذلك، فقد أحضرتُ فراشي، على عكس بعض النبلاء الحمقى ممن أعرفهم.

عقد ذراعيه، وارتجف على نحو مبالغ فيه، ثم سأل ناظرًا إلى السماء: «ماذا ترين أيتها الطبيبة؟ هل أصبت بالإشعاع؟ أم بقرصة برد؟».

- لا تقلق. إذا أُصبت بقرصة برد، فلن أتردد في بتر الجزء الذي تضرر دون عناء. أليس الخنجر الذي أحضرته حادًّا؟

- دائمًا ما تتوفر تدابير وقائية.

قالت، وهي تلكزه بمرفقها: «بالطبع، مثل إحضار فراش للنوم».

- لكن لدي فراش.

- كيف ذلك؟ رأيتك تخرجه من حقيبتك.

ابتسم، ودون قول شيء، رفعها عن الأرض، وحملها بعيدًا عن أنظار الآخرين، ثم سقطا معًا فوق كومة كبيرة من الأوراق الجافة.

ضحكت، وهي تدفع نفسها لتنهض: «دعني أذهب!».

لف ذراعيه حول خصرها، وجذبها إليه: «يا لهذا الفراش المشاكس».

لم تفلح في الابتعاد عنه، فتركت نفسها تغوص بين ذراعيه، وأسندت رأسها على صدره.

أردف، ممسدًا شعرها: «هذا بالضبط ما أمرَ الطبيب به، من أجل التدابير الوقائية».

تمتمت ناعسة: «اترك أمور الطب لي، يا بليك».

أخذت نفسًا عميقًا، واشتمت باسمة تلك الرائحة التي تعشقها: دخان نار المخيم، الممتزج برائحة التربة الرطبة والصنوبر والملح. إنها رائحة بيلامي.

قبَّلها على جبينها: «خذي قسطًا من الراحة».

اقتربت منه قليلًا: «وأنت كذلك».

شعرت بنبضات قلبه تتسارع، وذراعيه لم ترتخيا بعد، لا يبدو أن لديه قدرة على النوم. رفعت رأسها، وتأملت عينيه المفتوحتين، وفكه المتشنج.

- سيسير الأمر على ما يرام. سنجدهم ونعيدهم للوطن.

- تحتاجين للنوم، يا كلارك.

- وأنتَ بحاجة للنوم أيضًا. نحتاج لبعض الراحة.

تهدج صوته بعض الشيء: «لا يمكنني النوم».

مررت أصابعها على وجنته لتهدئته: «عليك المحاولة، يا بيلامي».

أشاح بوجهه جانبًا، فاعتدلت جالسة: «إنني قلقة عليهم كذلك، كما تعلم. ويلز هو أعز أصدقائي، وأوكتافيا وإريك، إنهم...».

أغمض عينيه وجفل، كأنها آلمته بكلامها.

- هلَّا تتوقفين رجاءً؟ لا يمكنكِ فهم ما أشعر به. ليس لديكِ إخوة، ولا تعرفين ماذا يعني أن أفقد إخوتي.

عندما فتح عينيه، اختفى منهما اللطف، وحلت محله قسوة، جعلتها ترغب بالهرب منه.

- سيدفعون ثمن ذلك. لن أُبقي على حياة أحد من هؤلاء الأوغاد الصُّلع، عندما أقبض عليهم.

نظرت إليه في ذعر: «إننا لا نسعى لخوض معركة معهم، يا بيلامي. سوف نتسلل بينهم، ونُخرِج أصدقاءنا، ونذهب. أو ربما نلجأ للتفاوض مع آسريهم. وهذا أكثر حل سلمي».

لعنَ: «حلٌّ سلميٌّ؟ هل تمزحين؟».

- دعني أذكرك أن لدينا بندقيتين فقط، وليس لدينا أي فكرةٍ عن العدو الذي نواجهه. لا يمكنك أن تجعل هذه المهمة انتحارية، لمجرد أنك في حالة غضب وثورة.

قفز ناهضًا، فكادت تسقط على ظهرها.

- لا يمكنكِ الوثوق بي بعد، أليس كذلك؟ تعتقدين أنني مجرد أحمق متهور، لا يقوى على وضع خطة مُحكمة.

تنهدت: «لا، أبدًا. أرى فقط أن لدينا احتمالًا...».

حدق إلى وجهها، وكأنه يراها للمرة الأولى: «لن تثقي بي أبدًا، أليس كذلك؟ تنظرين إليَّ دائمًا على أنني الفتى الوالدني المجرم الذي يفسد كل شيء».

اندفعت نحوه لتضع يدها على ذراعه، لكنه أسرع بالابتعاد.

- لا، هذا غير صحيح!

قال في تجهم: «اذهبي للنوم. سنكمل المسير في غضون ساعات قليلة».

- بيلامي، انتظِر...

واختفى وراء الظلال.

الفصل الثاني عشر

جلاس

وقفت في صف طويل مع الفتيات السبع، اللاتي اختُطِفن من المخيم. يشبهن في فساتينهن البيضاء الجديدة، عوارض السياج الذي بناه لوك حول الكابينة الخاصة بهما.

أُقتِدن من العرين وعبرن خلال أروقة متعرجة متداعية، حتى وصلن إلى بهو واسع فارغ. حيث تهالكت أجزاء كبيرة من السقف والجدران، حتى إن الشمس تسربت بسهولة في هذا الصباح الباكر. نمت بعض الشجيرات المزهرة، متخللة الشقوق الأسمنتية، ونشرت بالهواء عطرها الزكي. في ظروف أخرى، قد يبدو هذا المنظر خلابًا، يجذب أعين الناظرين إلى سحره العجيب، لكن كلما طالت مدة أسرها داخل حصن النواة، تعمق الرعب بداخلها. لا تعرف ماذا يحدث بالضبط هنا، إنما يزداد شعورها بأن هناك خطبًا ما.

همست لها أوكتافيا: «ماذا سيفعلون بنا؟».

تلفتت جلاس ناظرةً حولها باضطراب: «لا أعرف».

سارت امرأة شقراء في أواخر العشرينيات، ترتدي فستانًا رماديًّا، جيئةً وذهابًا بمحاذاة الصف، تتفقد الفتيات. مع كل تقطيبة على جبهة هذه المرأة، أو حاجب مرفوع، يتضاعف قلق جلاس. لا تزال تجهل ما الغرض من تفتيشهن بهذا الشكل، والأمر الأسوأ، أنها لا تعرف ما إذا فشلت أم نجحت في هذا التفتيش، وأي حالة أفضل في سبيل نجاتها.

اقتربت المرأة منها، وتفحصتها من رأسها حتى أخمص قدميها، ثم أطالت النظر بعينيها، دون أن يرف لها جفن. لم تعرف جلاس ما يجب عليها فعله، فاكتفت بمبادلة المرأة التحديق. شعرت أن عينَي المرأة تتعديان حدودها الشخصية، كأنها ترى دخيلة نفسها، فلم تقدر على الاستمرار بالتحديق، وأشاحت بنظرها سريعًا.

انتقلت إلى أوكتافيا، التي تليها في الصف، قبل أن تتمكن من تخمين نتيجة فحصها من خلال تعبيرات وجه المرأة، فيما وراء الغموض المرعب الذي يغلف نظراتها. بماذا عليها أن تشعر، بالاستياء أم بالارتياح؟ ما الفائدة من جذب انتباه هؤلاء الغرباء؟ ضربت الإجابة عقل جلاس: *من أجل النجاة.* لا يهمها أي شيء، سوى الخروج من هنا والعودة إلى مخيم، إلى لوك، مهما تطلب الأمر.

عندما بدأ صف الفتيات بالتحرك، أخرجتها أوكتافيا من شرودها، لتتبع الصف. علا صوت المرأة الشقراء، قائلة: «سنُجري جولة في حصن النواة قبل تطهيركن. لقد تلقينا تمنيَّات «سورين» لكُنَّ بإقامة جيدة في موطنكن الجديد معنا».

همست لينا الواقفة وراء جلاس: «معنا؟ يبدو الأمر وكأننا ضيوف عليهم».

أومأت برأسها، دون تعقيب، خشية أن تغضب المرأة التي تراقبهن على نحو مريب. تقدمت المرأة الصف، ثم قالت، وهي تقودهن خلال إحدى الردهات: «هذه غرفة التنظيف».

خلت الغرفة من النوافذ، وقد غطت جدرانها طبقة داكنة من آثار القصف. رأت جلاس عددًا قليلًا من النساء يرتدين الفساتين البيضاء، بينما تنظف بعضهن أواني فخارية، والبعض الآخر يغسلن الملابس في قدور هائلة تتصاعد منها الأبخرة. يا لها من أعمال مشوقة.

توقفت المرأة، وأشارت باتجاه الغرفة: «بدايةً من الغد، ستتناوبن العمل على هذه المهمات. وستُرقى من استطاعت العمل بكفاءة».

همست لها أوكتافيا ساخرة: «بالطبع، علينا العمل بكفاءة. لنثبت موهبتنا الفطرية في غسل الملابس الوسخة، أو في تنظيف الأطباق».

عبست المرأة في وجه أوكتافيا، فالتزمت الصمت على الفور.

استمرت الجولة لبعض الوقت، وسرعان ما خرجن إلى ساحة أمامية. من بعيد، لاحظت جلاس عددًا من الحُماة حليقي الرأس، يهرولون بجانب أشخاص آخرين، يبدو عليهم الإنهاك. فهمت من طريقة صياحهم في هؤلاء الأشخاص، أنهم أسرى مثلهن. هل من بينهم أحد من أصدقائها؟ حدَّقت إليهم تحت ضوء الشمس الساطع، وصار عقلها محمومًا بالتفكير.

استعادت انتباها بالكامل عن ذي قبل، وأخذت تدقق النظر لتجمع أكبر قدر ممكن من التفاصيل عن النواة. ما ظنته بناءً منفردًا شاهقًا، اتضح أنه عبارة عن عدة مبانٍ متجاورة، مكونةً ما يشبه خلية النحل، في تصميم لا يختلف كثيرًا عن المستوطنة. تحيط بعض الكتل الأخرى، والهياكل العظمية، والعوارض الفولاذية التي مررن عليها، أكوامًا من الأنقاض، وبعض الجوانب الصامدة.

انتشر الحراس بكل الأرجاء، على الرغم من أنهم بالكاد يعملون. فمنذ أن جاءت إلى مخيم المستوطنين، وهي ترى العمل يجري على قدم وساق كل يوم: إزالة الأعشاب الضارة من البستان، جمع الحطب، ومطاردة الأطفال، أو بناء كبائن جديدة. أما هؤلاء الناس، ماذا يفعلون طوال اليوم؟

بحثت عن علامات جدية للعمل. لمحت قليلًا من النشاط، في هذا الجانب من الساحة -حيث قادتهن هذه المرأة- والذي تُطلق عليه «قلب النواة»، إنه حيز من الشجر التي أثمرت بعضها. استنشقت رائحة الكمثرى والتفاح الطازج. لم تهتم بالاستماع لما تقوله هذه المرأة عن الطقوس والقرابين التي تُهدَى للأرض. استُكمِل المسير، ولم يتسنَّ لها أن تستمد بعض الهدوء من هذا البستان الأخضر.

تابعت المرأة الشقراء بنبرة تبجيل، وهي تعود بهن إلى البهو: «سأصطحبكن جميعًا للقاء زعيمنا، ولتشهدن العطايا التي مُنحنا إياها. لقد عاد سورين من رحلة روحية طويلة، وهو متشوق لرؤيتكن».

تبادلت لينا نظرات متوترة مع جلاس. إن إبداء الرغبة في مقابلتهن له وقْع غريب، ولا يتناسب مع ما فعلوه من تخديرهن وخطفهن. أليس هذا هو الشخص المسؤول عن ذلك؟ أليس هو من أمر هؤلاء الحُماة باستخدام العنف؟

دُهشت من الضوء الباهر في الساحة المترامية الأطراف، التي وصلن إليها. حيث امتد حقل مستطيل شاسع، انتشر به عدد من المزارعين، وفيما وراءهم، تتلألأ صفحة نهر تحت شمس الظهيرة. طرفت بعينيها حتى اعتادت شدة الضوء، وأخذت تمعن النظر فيما حولها: الأنقاض التي تمتد حتى الأفق، ومزروعات الحقل أمامها. حيث وقفت امرأة وحيدة في زيٍّ أبيض، لها شعر أسود متهدل على إحدى كتفيها، تتفحص المحاصيل بعناية شديدة.

لفت انتباهها أمرٌ ما، فاقتربت لتحصل على رؤية أفضل. رأت عجلات بجوار أحد المزارعين، تتكدس فوق إحداها أكوام من البطاطس، والأخرى خضراوات جذرية. بدأت المرأة الشقراء حديثها عن عطايا الأرض، بينما انغمست جلاس في استغرابها: إن البطاطس تُزرع تحت الأرض، ولا تنمو في أكوام متكدسة، كما أن بجوار كل مزارع عجلات. *لا يُعقل أنهم مزارعون، وما بجوارهم مجرد عربات يد. هذه ليست مزرعة، بل ساحة لفرز الطعام، الذي سرقوه.*

تنحى خوفها جانبًا، واحتل مكانه غضب شديد. لقد عمل الجميع بجِد للاستعداد لعيد الحصاد. قضوا أسابيع في العمل بالحقول، وساعات بالصيد، وأيامًا متواصلة في جمع الثمار وتجفيفها.

اندفعت الكلمات من فمها، وفشلت في كتمها: «أنتم مجموعة لصوص».

هزت لينا رأسها لتوقفها، بعد فوات الأوان. سكتت المرأة عن الكلام، وتطاير الشرر من عينيها، وحدق الجميع إلى جلاس، التي تراجعت للوراء مع اقتراب المرأة منها، وقد رفعت يدها: «كيف تجرئين على مخاطبة الحُماة بهذه الطريقة».

عندها اعتدلت المرأة ذات الشعر الأسود، ومسحت يديها القذرتين في فستانها الأبيض ذي السترة. مما جعل المرأة الشقراء تتوقف. قالت المرأة ذات الشعر الأسود: «اهدئي يا أختي. دعيها تكمل كلامها».

ظهرت بعض التجاعيد عند أطراف عينيها، اللتين تبرقان في فضول. وشعرت جلاس بدفء لم تتوقعه في ابتسامتها.

قالت لها: «وضِّحي لي من فضلك. لماذا ترييننا لصوصًا؟».

توجست جلاس من خطر الموقف الذي أوقعت نفسها به، وفكرت أن عليها توخي الحذر من هذه المرأة، رغم استقبالها اللطيف. تذكرت نظرة الألم على وجه لوك، عندما رآها تُجَر بعيدًا. تذكرت الصرخات المرتعبة والمذعورة، التي ضربت المخيم، بعد وقوع الانفجارات.

- هذه العطايا ليست منحة من الأرض. إنه طعام مسروق من المجتمعات التي عملت بجِد لإطعام أهلهم وأطفالهم. أرى أن لديكم حقلًا هنا، لمَ لا تزرعون شيئًا لإطعام أنفسكم؟ أم أنكم تجهلون الزراعة؟

أومأت المرأة برأسها في جدية: «إننا نقدر على الزراعة، لكن الأرض لم تأذن لنا بعد. لا يمكننا العبث بالتربة من أجل احتياجاتنا الخاصة، حتى نجد المكان الذي سنزرع فيه جذور حضارتنا. يجب أن ننتظر إشارة الأرض أولًا، حينها فقط سنتحول من حُصَّاد، إلى زُرَّاع».

سألت جلاس، رغم إدراكها أنها تسير نحو منحدر خطر: «ما هي الإشارة التي تنتظرونها؟ لديكم بالفعل حصن رهيب، وأرض مثالية للزراعة. لديكم أشجار تنبت الثمار على أرضكم.. في *قلب* الحصن، أليس هكذا تشيرون إليه؟ يمكنكم بسهولة أن تجعلوا هذا المكان بستانًا من الجنة. سيغنيكم ذلك عن مهاجمة الأبرياء وسرقة طعامهم».

اقتربت منها المرأة، لتمسك يديها، فسمحت لها جلاس في حيرة من أمرها. ثم حملت يديها بين راحتين خشنتين، وأحكمت قبضتها. قالت ناظرة بعينَي جلاس: «أُقدِّر اهتمامكِ».

ثم أطلقت يديها، وتراجعت بضع خطوات، بعد أن أومأت للمرأة ذات الزي الرمادي، مشيرةً نحو جلاس، التي تقلصت معدتها مع هذه الإيماءة. استدارت المرأة في مواجهة جميع الفتيات: «تحياتي لكُنَّ، يا رفيقاتي الجدد. إنه لمن دواعي سروري أن ألتقيكن جميعًا. أُدعى سورين».

مرت سحابة أمام الشمس، جعلت جلاس تتيقظ إلى طبيعة الموقف، الذي تغيرت معطياته بعقلها. إن زعيم هؤلاء الحُماة امرأة.

استطردت سورين، وهي ترفع شعرها الأسود، الذي تتخلله خصلات رمادية في كعكة مرتفعة: «تُطلَق عليَّ عدة ألقاب. يدعوني البعض بالقائدة

الأعلى، ويفضل آخرون دعوتي بأم الأرض، أو الأم فقط. أما معظم الناس هنا، فينادونني باسمي الحقيقي، سورين، ولا أمانع ذلك!».

ضحكت بصوت طبيعي، لم تسمع جلاس مثله خلال كل هذه الطقوس الغريبة والترانيم.

- لا أعبأ بالألقاب. ما يعنيني أن تعرفن الهدف من وجودي، وهو ينقسم إلى شقين: مساعدتكن على الاستقرار في موطنكن الجديد، وتكريس نفسي في خدمة الأرض بكل جوارحي.

أغمضت سورين عينيها لبرهة طويلة، وعندما فتحتهما، بدت عيناها أكثر إشراقًا واطمئنانًا من ذي قبل. قالت باسمة في وجه فتاة تلو الأخرى بالصف: «ستتوفر لدينا فرص للتعرف على بعضنا بعضًا في أثناء العمل. أما اليوم، أود أن أتحدث معكن عن الأمهات. أعدُّ نفسي أمًّا لكل واحدة منكن».

توقفت عند لينا، ومسدت شعرها اللامع: «وهذا يشملكِ بالطبع».

لدهشة جلاس، توردت وجنتا لينا، ونظرت إلى الأرض. فيما تابعت سورين، وقد شابكت أصابعها: «الأمهات حكيمات، يراعين الآخرين، مما يعود عليهن بمنحة في المقابل؛ يرتبطن بالتربة والهواء، ويدركن أن حدسهن له قدرة مؤثرة واستثنائية. إن الأمهات قويات. لا يرضين أهواء أبنائهن، بل يرشدنهم. ويعملن على إظهارهم في أفضل صورة ممكنة».

التقت عيناها عينَي جلاس، وهذه المرة، لم تشِح نظرها بعيدًا. لا يمكنها التغاضي عن الاختلاف الواضح بين حديث سورين الدافئ والتصرف العنيف للحُماة. لقد رأتهم يهاجمون مخيمها، وكادوا يردون لوك قتيلًا. أما الوقوف هنا والاستماع إلى هذه كلمات الوديعة، يجعل غضبها يتبدد.

ابتسمت سورين: «ما أريدكن أن تتعلمنه، بينما تتعمق معرفتكن بإقليمنا المنعزل، والأمور التي نسعى لتحقيقها، هو أننا كوننا نساءً يجب أن نصبح أمهات لشعبنا، ولا سيما الرجال، فهم يتصرفون كالأطفال، بالفعل! وكذلك كل البشر. يستغلون براءتهم ويعرضونها للخطر. لذا نحتاج أن نريهم الطريق. ما حدث للأرض -الأم الكبرى- مأسوي. حتى قبل زمن الحروب، حكم العالم أطفال مدللون، وأفسدوه بألعابهم، مما أدى إلى تسمُّم الهواء والماء، والبنيان،

والحصاد، والطعام، ليتماشى مع رغباتهم الخاصة. استحدثوا آلهة وديانات، لكن تظل جريمتهم الكبرى على الإطلاق هي الأنانية».

عبس وجهها، وأخذت نفسًا عميقًا، ثم تابعت: «لقد مُنحنا فرصة أخرى، لنفعل ما هو أفضل، ونصبح أفضل. أحتاج إلى مساعدتكن ووجودكن بيننا لتحقيق ذلك، أيتها السيدات».

ضمت المرأة يديها إلى صدرها، فيما شعرت جلاس بشيء يعتمل بقلبها، لقد حاولت جاهدةً إثبات أنها ذات فائدة للآخرين خلال عدة أسابيع، لكنها لم تجد هناك حاجة لوجودها بالمخيم. لم تعرف كيف تعالج المرضى أو تصمم المنشآت. لا يمكنها حمل كومة من الحطب. لا توجد في جعبتها ألعاب مبتكرة لتسلية الأطفال. ربما سورين على حق. ربما هناك دور يمكنها فعله من أجل الأرض، وستبذل أقصى جهدها. لن تسمح لأحد أن يقلل من قيمتها.

وجَّهت لهن سورين ابتسامة واسعة: «نحن جميعًا نخدم الأرض، وإذا أحسنتن خدمتها، يمكنكن يومًا ما أن تتقلدن رتبتي، كقائدة أعلى للحُماة.. إذا أرادت الأرض. هذا عُرْفنا هنا، إذا قال أحدنا هذه الكلمات، نرددها كلنا من بعده، كنوعٍ من تشجيع أنفسنا. هلا جربنا معًا: *إذا أرادت الأرض*».

ترددن في البداية، ثم كررنها معًا: «إذا أرادت الأرض».

صفَّقت سورين: «بداية جيدة. مرحبًا بكُنَّ في عائلتنا».

الفصل الثالث عشر

ويلز

اتخذ ويلز خطوة أخرى داخل النهر، والماء البارد يقرص بشرته العارية. صرَّ على أسنانه، وغرس أطراف قدميه في الطين الزلق، واستمر دافعًا نفسه للأمام.

ارتجف إريك إلى جانبه، واصطكت أسنانه ببعضها بعضًا. وعلى الطرف الآخر، سكن كيت، الأرضي الذي أُسِر معهم، في وسط المياه دون أن تتبدل تعبيرات وجهه الهادئة. ربما اعتاد السير في مياه متجمدة، تفوق أي درجة برودة تحكَّم بها المستوطنون على متن السفينة، على الإطلاق. ووراءه، يضغط جراهام على فكه، بعد أن قفز بالماء وغاص جذعه بالكامل.

صاح صوت ذو نبرة عذبة عند ضفة النهر: «يمكنكم التوقف عند هذا الحد»، فالتفت جميع الأسرى.

اصطف حراس مسلحون في أرديتهم البيضاء عند حافة النهر، لضمان مشاركتهم في هذا الطقس *التطوعي*. تقف خلفهم سورين، القائدة الأعلى للحُماة، على كومة من الأنقاض، ترقب المشهد كأنها ربَّة للخير والازدهار.

زارتهم سورين في ثكناتهم هذا الصباح. تفاجأ ويلز برؤية امرأة تقود هؤلاء الوحوش، وقد طوَّعت قوتهم لتنفيذ أوامرها. عندما وجَّهت الحديث إلى *الرعايا الجدد* -ذلك الاسم الذي أطلقته عليهم- أخبرتهم عن المشاركة بطقس التطهر من خطايا الماضي. إن لكلامها وقْعًا منطقيًّا للغاية، كما أن

الطريقة التي وصفت بها الطقس بدت لطيفة، بالمقارنة بالممارسة الفعلية له. ارتجفوا في قلب المياه قارسة البرودة، يكافحون للبقاء في أماكنهم ضد تيار النهر المندفع.

على عكس ما توقع، لم تُلقِ عليهم أي تعليمات أخرى، بل استدارت مشيرةً بيدها في استهجان نحو مجموعة أخرى من الأسرى، إيذانًا بنزولهم إلى النهر.

تقطعت أنفاس ويلز، وهو يتحقق وجوه المجموعة التالية في قلق محموم، عندما وجد أنهن من النساء. تذكر قول الحراس في العربة عن الحفاظ على حياة خيرة *نسائكم*، ولم يرِ إحداهن منذ وصوله، كما لم يجرؤ على تصور أن أيًّا مِن نساء المخيم قد أُسِرن.

ارتجفن في قمصان بيضاء خفيفة بلا أكمام. إنهن ثماني فتيات من المخيم. انقبض قلبه عندما وقعت عيناه على لينا وأوكتافيا، واعتصر صدره وخز مؤلم عند رؤية جلاس. عاشت صديقة طفولته حياة مُرَّة فيما مضى، وها هي تواجه، ما يمكن اعتباره، أشد المخاطر، التي تعرضت لها بحياتها. لا بد أن لوك قد فقد عقله من القلق عليها، وكذلك بيلامي. من الجيد أن الفتيات لم يصبن بأي أذى. إنما وجودهن بين هؤلاء الوحوش، يبعث على الغضب.

أخذ نفسًا عميقًا، وحاول التحكم بأعصابه الثائرة. يجب عليه أن يُخرِج أصدقاءه ويعيدهم سالمين. إذا أساء الحُماة إلى أيٍّ منهم، لن يرحمهم. لكن لم يأت الوقت المناسب بعد.

لفتت جلاس انتباه ويلز، وحدَّقت إليه في ذهول. يمكنه قراءة تعبير وجهها. تشعر بالذعر، أنه أُسِر، وبالارتياح في الوقت نفسه لوجوده معها. تخاف أن تسير بهم الأمور نحو الهاوية.

نزلت الفتيات إلى النهر، يتنفسن بحدة. حاول جذب نظر أوكتافيا، فلم تلتفت، محدِّقة أمامها في تحدٍّ واضح. كما مدت ذراعيها تشقان أمواج النهر المتدفق.

قالت سورين، وقد فتحت ذراعيها على اتساعهما: «يمكنكن التوقف عند هذا الحد».

توقفت الفتيات على بُعد أمتار قليلة من ويلز، واستدرن باتجاهها.

- مرحبًا بكم، أيها الأصدقاء الجدد. يسعدنا انضمامكم جميعًا إلينا.

رغم حديثها الدافئ وتعبيرات وجهها الودود، لم يسمح لنفسه بالتلهي عن حقيقة أن هناك خطبًا ما بهؤلاء الناس.

- أدت الأرض عملها العظيم، وجعلتنا نحظى بكم. لقد نشأتم في مجتمعات مختلفة عنا، لها عادات وتقاليد مختلفة.

نظرت إلى السماء في انبهار، وتابعت: «أتى إلينا بعضكم، كما علمت، من السماء، وشرف لنا وجودكم بيننا. لكن حان الوقت لنسيان الماضي والبدء من جديد، كلحظة ولادتكم. بمجرد أن أخفض ذراعي، أريدكم أن تغمروا رؤوسكم في الماء، وتنهضوا بروح جديدة».

خفضت ذراعيها. فاستجاب ويلز لأمرها، وغطس في قلب الماء المثلج. فتح عينيه، وفاجأته سمكة مضيئة تسبح على مرأى منه، ثم اعتدل دافعًا نفسه لأعلى، بينما ينحسر الماء عن جسده.

قالت سورين، وهي تدقق النظر بكل منهم: «بعد أن طهرت جسدك، طهر عقلك أيضًا. حافظ على تعليمك ومهاراتك فقط، فهي عطايا من الأرض. نقِّ عقلك من افتراضات الحقيقة. تخلص من كل تعلقاتك. عِش بيننا بعقل متفتح. كن وعاءً تصب الأرض فيه من حكمتها، لتحسن أداء دورك كحُماتها الحقيقيين، وداعمًا لهذا المجتمع العظيم- الإمبراطورية الأخيرة والوحيدة، إذا أرادت الأرض».

ردد ويلز مع الآخرين: «إذا أرادت الأرض».

كلما بدا مصدقًا لهذا الهراء، سيسهل عليه كسب ثقتهم.. ومن ثم استخدامها ضدهم.

تابعت في ابتهاج: «والآن، وقت الاحتفال!».

أشارت لهم باسمة ليخرجوا من النهر تباعًا، الفتيات، ثم الفتيان.

فرك عينيه ليزيح قطرات الماء، واستطلع موقع التجمع على بُعدٍ منه. اصطفت موائد ممتلئة بالطعام في الحقل المستطيل. ما إن خرج من النهر، قدمت له امرأة قصيرة القامة، ترتدي فستانًا أبيض، قطعة قماش لتجفيف نفسه.

- أشكرك.

طرفت المرأة بعينيها في صمت، ثم هرولت مبتعدة. جال ببصره في الأرجاء، وجذب انتباهه سلال مكدسة بالطعام، فتساءل أيها سُرقت من المخيم: كومة التفاح المعطوبة هذه؟ أم كومة البطاطا الحلوة؟ أهذه الفطائر مصنوعة من حبوب مزرعة أناس آخرين؟ أخذ واحدة من كل صنف، وتجول بين الطاولات بحثًا عن إريك وجراهام.

ثم وجَّه نظرته نحو ضفة النهر، حيث تلكأت فتاتان في الخروج من الماء، وانهمكتا في الحديث متقاربتَي الرأس. تلفتت الفتاة الشقراء بعصبية، فعرف أنهما جلاس وأوكتافيا. يبدو أنهما تتناقشان في أمرٍ ما بسرية، في حين تراقبهما النساء مرتديات الفساتين الرمادية عن بعد.

تنبهت جلاس أنه ينظر باتجاههما، فحاولت أن تحرك شفتيها بكلمات غير مسموعة. هز رأسه، واكتفى بالابتسام بهدوء، كما يفعل الحُماة، ثم أشار لهما لتنضما إليه.

وجد مكانًا شاغرًا على البساط بالقرب من حاجز الثكنات، وجلس يتناول طعامه. بعد قليل، شقت الفتاتان طريقهما إليه، وجلستا إلى جواره. حاول تجنب النظر إلى الحراس، الذين يراقبون كل تحركاتهم بانتباه شديد.

انحنت جلاس لتعانقه سريعًا، وسألته: «هل أنت بخير؟».

- نعم، بخير. استمري بالابتسام.

فعلت كما طلب منها، وابتسمت أوكتافيا كذلك، إلا أن ابتسامتها ليست مقنعة تمامًا. قالت أوكتافيا من بين أسنانها: «سنغادر هذا المكان. رأيت بعض القوارب عند ضفة النهر. عندما تسنح فرصة مناسبة، سنفر من هنا».

شعر بقلبه يكاد يقفز، لكنه حافظ على ابتسامته.

- متى ذلك؟

اختفت ابتسامة أوكتافيا المزيفة، وزمَّت شفتيها: «في أقرب وقت ممكن. ربما الليلة».

همس: «مهلًا»، قبل أن يومئ باحترام تجاه المرأة الشقراء في زيها الرمادي، التي تمر بجوارهم على مهل. بمجرد ابتعادها عن مجال السمع، أخذ قضمة من تفاحته، ومد ساقيه للأمام في استرخاء.

- لا تفعلا ما تفكران فيه. لم يحِن الوقت بعد.

ضاقت عينا أوكتافيا: «لماذا؟».

أجابت جلاس بالنيابة عنه: «لأنه ليس الوقت المناسب».

قال، وهو يعرض على جلاس قطعة من التفاح: «بالضبط».

هزت رأسها بأدب ونظرت بعيدًا، بعد أن مررت قطعة التفاح إلى أوكتافيا، التي قالت: «لا، أرى أن هذا هو الوقت المثالي. فهناك قوارب جاهزة للانطلاق بها. نستطيع...».

قاطعها هامسًا: «نستطيع ماذا؟ الفرار والبنادق بين أيديهم؟».

توافد المزيد من الحضور، وبات من الصعب استمرار هذه المحادثة الخاصة بينهم.

تجهمت أوكتافيا، وأدرك أنها تفكر في كلامه. قال برفق: «إنها تصلح لبداية خطة، إنما ليس دون سلاح، أو مساعدة، وخاصة، أنهم لا يثقون بنا بعد، ليتخلوا عن حذرهم. لو فرضنا أننا استطعنا الفرار، يمكنهم تتبعنا طوال الطريق حتى المخيم، وقد يعيدون فعلتهم هناك، وبصورة أبشع».

سألته جلاس بهدوء، وهي تقطع طرف الخبز البائت، وتحركه بين أصابعها: «في ماذا تفكر؟».

- سنصبح حُماة مثلهم. اتفقتُ مع جراهام وإريك، وكيت، والآخرين من مخيمنا على هذه الخطة. يمكنكما إخبار بقية الفتيات اللواتي أُسِرن معكما. سنفعل ما ينبغي لنا فعله، حتى يثقوا بنا، وبتصديقنا لمعتقداتهم. وبمجرد أن ننال ثقتهم ويتخلوا عن حذرهم، وقبل أن نفر من هنا، نسترد أسلحتنا، لنقاتلهم، إذا تتبعونا.

صمتت أوكتافيا لبضع لحظات، فاعتراه القلق أن تجادله بانفعال، وهم محاطون بالأعداء. أومأت ببطء أخيرًا، ومالت إليه: «خطة طويلة مُحكمة.. حسنًا، أوافق يا جاها».

ابتسم، ثم نظر إلى جلاس، متوقعًا أن تومئ برأسها أيضًا. لكنها ظلت شاردة نحو الأفق، وعلى وجهها تعبير غريب، ليس له عهد به طوال سنوات صداقتهما. تساءل إذا ما كان يشغل لوك تفكيرها بهذه اللحظة... لا، لا بد أن هناك سببًا آخر وراء هذا الأسى الغامض.

سألها: «هل توافقين على الخطة يا جلاس؟».

اتسعت عيناها، واستدارت، عند سماع اسمها.

- ماذا؟ نعم، بالطبع.

لمح وميض فكرةٍ ما تشغل بالها. تكفي سنون صداقتهما، والأسرار التي بينهما، ليجزم أنها تكذب عليه.

الفصل الرابع عشر

بيلامي

لم يسبق له أن رأى الشمس تغرب فوق بنيان شاهق، كذلك المبنى الضخم الذي تغطيه أغصان يابسة متشابكة. لا بد أن هذا هو المكان. ها قد حانت اللحظة التي ينتظرها. لقد استغرقوا وقتًا طويلًا في الطريق حتى وصلوا إلى هنا. خلال اليوم السابق، صارت الدروب وعرة وخطرة، حيث أحاطت بهم التلال والمنحدرات الحادة في كل اتجاه. كما مروا بأنقاض متناثرة لمدينة قديمة مدمرة. ومع ذلك، حرصوا على ألا يتأخروا قدر المستطاع، فلا يمكنهم المجازفة بسلامة أوكتافيا، وويلز، وبقية أصدقائهم.

منذ بضع دقائق، خرج بعض الرجال في زيٍّ أبيض، تتبعهم عربات نقل. لدى رؤيتهم، تصاعد الغضب، يجري في عروقه مجرى الدم. استنفد طاقته، محاولًا ضبط نفسه، وألا يندفع إليهم دون وعيٍ منه. لم يلحظ أي حركة أخرى منذ ذلك الحين.

همس بيلامي للفريق: «هيا لنذهب».

قالت كلارك بتردد، متحاشيةً النظر إليه، كما لو تخشى إثارة حنقه: «إن الشمس تغرب. ربما علينا التخييم في بقعة قريبة، والتجهيز لخطة دفاعية في محيط المبنى».

أومأ بول مؤيدًا بقوة. «تفكير جيد، يا جريفين. من الأفضل لنا أن نتحرك تحت جنح الظلام».

أراد أن يقول له حقًّا: *وماذا تعرف أنت عن ذلك؟ فقد ظللت ضابطًا على متن سفينة فضائية لمدة طويلة، حيث لا يوجد ليل ولا أعداء حقيقيون.*

تفاجأ عندما أومأ معظمهم. لا يمكنه اقتحام حصن كهذا وحده. يحتاج لدعم الفريق، وإذا أرادوا التمهل، فليكن، في الوقت الحالي، على الأقل.

نهض، وتمدد، ليعيد الحيوية لجسده وظهره، مُصدِرًا أنَّات خافتة. استدار بول ونادى عليه: «بيلامي، يجب على أحدنا أن يبقى هنا للمراقبة».

يرى بعينيه أنه يرغب في تحديه.

قال فيليكس، ليكسر حاجز التوتر بينهما: «سأفعل ذلك. أرسِلوا فقط أحدًا، ليخبرني بموقع تخييمكم، حتى يمكنني الوصول إليكم، إذا حدث شيء».

ظهر الإحباط على وجه بول، إلا أنه أومأ برأسه، وقال هامسًا، قبل أن ينضم إلى باقي الفريق: «ابق ساكنًا، والتزم الهدوء».

ساروا صامتين في صف متعرج عبر الغابة، متتبعين نفس المسار الذي سلكوه سابقًا. تلكأت كلارك لترافق بيلامي في مؤخرة الصف.

- هل توافق على هذه الخطة؟ أعتقد أنها ستوفر لنا فرصة أفضل.

قال دون أن ينظر بعينيها: «نعم، لا بأس».

بالكاد تحدثا معًا منذ الليلة الماضية. يشعر أن قلبه ممزق. يريد أن يجذبها بين ذراعيه، ويتوسل لها أن تغفر له حماقته. غير أنه في الوقت نفسه، لا يقدر على مسامحتها. ماذا عليه أن يفعل لتثق به؟

ناداها بول: «كلارك، تعالي وانظري إلى هذه الحشرة الغريبة.. لا، مهلًا.. مستحيل! أعتقد أنه ضفدع مجنح. هذا أغرب ما رأيت».

دون إبداء أي كلمة أخرى له، هرولت إلى حيث يقف بول عند حافة بركة صغيرة. مما جعل بيلامي يحدق تجاه بول في استهجان.

واصل الفريق السير، وتبعهم بيلامي يغطي آثار أقدامهم، عند منعطف رافد صغير. أشارت كلارك نحو بناء متداعٍ قديم. ما زالت أجزاء من أعمدته الفولاذية قائمة، وقد تغطت بطبقة سميكة من النباتات الطحلبية. من العجيب، أنها شكلت جدارًا سميكًا من جانبين، يمكن أن يخفيهم عن الأنظار.

مد بول يده ليربت على كتفها، قائلًا: «هذا ما نحتاج إليه. إنها ملاحظة جيدة، يا جريفين».

قالت، بينما يرفع بول يده عنها: «إن أشعلنا النار في العراء، سنكشف موقعنا. سيفيدنا هذا البناء».

تحدَّث لنفسه قابضًا كفيه: *حاوِل لمسها مجددًا، وسوف أجعل وجهك غير واضح الملامح، كوجه ذلك الضفدع.*

زفر بقوة، ثم شرع في تركيب معدات إنذار مؤقتة حول مخيمهم. عندما عاد، وجد كلارك تجلس القرفصاء، فيما ترسم مخططًا لحصن الغُزاة على الأرض بعصا صغيرة، وينحني بول إلى جوارها، مسندًا يده إلى كتفها -*مجددًا*- كأنما يحافظ على توازنها، بينما لم تحاول أن تبعده عنها، أو تعترض. لم يحتمل المشاهدة، فاستدار مبتعدًا. سمعها تناديه: «بيلامي، إلى أين تذهب؟».

أجابها، ملقيًا نظرة خاطفة من وراء ظهره، دون أن يلتفت: «سأذهب لأخبر فيليكس بمكاننا».

عبست ونظرت إلى الأرض، فيما قال بول في ابتهاج، مشيرًا إليه: «يا لك من رجل طيب!».

لم يكلف نفسه عناء الرد عليه. وفي طريقه، حاول السيطرة على غيرته التي تنهش قلبه. لم تزده محاولاته تلك إلا اضطرابًا، وتوقًا ليفعل شيئًا، حتى شعر بثقل جعبة سهامه على ظهره.

عند سماع صوت خطواته، التفت فيليكس بسرعة. وما إن أدرك أنه بيلامي، استرخى ورفع يده لتحيته.

- لقد عدت. رائع. إذن، أين يخيم الفريق؟

أجابه سريعًا، مشيرًا له أن يتبعه: «لا تشغل بالك. سنذهب من هذا الطريق».

تطلع فيليكس إلى ما وراء بيلامي: «ماذا عن باقي الفريق؟ إلى أين سنذهب؟».

- في مهمة استطلاع. أسترافقني؟

تردد لبرهة، ثم أومأ برأسه: «بالتأكيد».

تفقَّد بيلامي الحصن المغطى باللبلاب، الذي تتمايل أوراقه فوق رأسيهما، كوحوش في الظلام. لا يوجد أحد داخلًا أو خارجًا. تقدم للأمام خطوة خطوة، وتبعه فيليكس على بُعد أمتار منه.

تمكن من جمع معلومات عن الحصن بقدر استطاعته. عند مدخل الفناء الصخري، رأى آثار عجلات في منتصف درب ضيق، يسمح بمرور عربة يد. في نهايته، مدخل باب منخفض، مشقوق في الجدار الصلب، على الأرجح، توجد حراسة مشددة من الداخل. تنتشر عدة أبراج دفاعية على مسافات متباعدة، أعلى الجدران المرتفعة للحصن، في كل اتجاه. لكن يبدو أنها خالية من الحراس.

لا يُفعِّل هؤلاء الناس حالة التأهب القصوى لتأمين أنفسهم. لماذا قد يحتاجون لذلك؟ إنهم يقضون على قوى أي مكان منافس لهم، بل ويحرقونه ويمحونه من على وجه الأرض، ولا يتركون خلفهم أسلحة لمقاتلتهم.

مرر يده على قوسه، وواصل التقدم، باتجاه جانب آخر من هذا المبنى، إذا جاز تسميته كذلك. فهو بناء شاهق مترامي الأطراف، على نحو غير معقول. يكاد يضاهي حجمه ثلاث سفن مجتمعة من المستوطنة. تقلصت معدته مع فكرة أن حصنًا هائلًا كهذا، ربما يكتظ بساكنيه. كيف يمكنه إجبار مجتمع مثل هذا على إطلاق سراح الأسرى؟

عندها توقف، وجثا على ركبتيه، خلف عشب طويل، ينصت السمع، كما اعتاد أن يفعل في جولاته بالغابة. يمكنه سماع ذبذبات منخفضة من داخل الحصن. لذا أنبأه حدسه أن هذا البناء غير مأهول عن آخره. ارتجف من إدراكه لأمر آخر: *يُحتمل أنهم اختطفوا أناسًا من شعبنا لهذا السبب، وأنهم هجموا علينا لتعزيز مكانتهم.*

هذه استراتيجية رديئة للغاية. يقتلون أصدقاء وأهل الأسرى، فلا يبقى أمامهم سوى الانضمام إلى صفوفهم، والإقبال على مساعدتهم على اختطاف المزيد من الضحايا؟

ظهر القمر من وراء ستار من السحب. يستطيع تحت هذا الضوء المتوهج أن يكشف المزيد عن هذا البناء. ما بدا أنه جدار صلب منيع، تبين أنه مغطى

بنباتات متسلقة، تتخللها فتحات نوافذ صغيرة، تهشم زجاجها منذ زمن طويل. مما تعد خطرًا داهمًا أمام أي شخص يقترب من الجدار، حيث يمكنهم إطلاق النيران من خلالها. مع ذلك، يمكن استغلالها.

تسلَّقَ الجدار نحو إحدى النوافذ القريبة، وتطلَّع من خلالها. هناك ما يشبه طريقًا أو دربًا داخليًّا. ربما كان رواقًا بالماضي، أما الآن، فضوء القمر ينيرها، بعدما انهار جزء كبير من السقف. مما يعني أن هذا الجدار يحمي الحصن من الخارج، لكنه منفصل عن البناء الداخلي. لو تسنى لهم عبور الجدران، يمكنهم تحرير أصدقائهم.

هرول فيليكس باتجاهه، مشيرًا إلى وميضٍ من الضوء على الجانب الأيمن. تتبع بيلامي اتجاه إشارته، فوقع بصره على نهر واسع يمتد بمحاذاة الحصن. ويتفرع منه رافد لا يفصله عن الجدران، غير حقل أخضر مستطيل منبسط، يبدو أقل إهمالًا، بالمقارنة بالمنشآت المترامية على حافة الضفة، أو *الشاطئ*. في غالب الظن، أنه استُخدِمت هذه الحافة الصخرية كطريق ممهد في السابق.

رغم أنه يريد الاستمرار بالتقصي للحصول على مزيدٍ من التفاصيل، فإن الطريق بهذه الناحية شديد التعرج لكثرة الأنقاض المتناثرة. فإذا وقعوا في مشكلة هناك، سيصعب عليهم الهرب. اندفع فيليكس راكضًا بالفعل، قبل أن يتمكن من تحذيره؛ لا شك أن القلق يساوره حيال احتجازه بالقرب من هذه الزاوية. مما اضطر بيلامي أن يتبعه متفاديًا الأنقاض.

توقف مكانه فجأةً، عندما انتبه إلى حركةٍ ما بالحقل. رأى خمسة أشخاص خرجوا من الحصن لتوِّهم، وليس من بينهم أحد من الحراس حليقي الرأس. كلهن نساء، يرتدين ثيابًا من نسيج رمادي مُموَّج، فيما عدا المرأة التي تتقدمهن، فتبدو أكبر سنًّا، لها شعر داكن طويل، وترتدي فستانًا أبيض. رفعت هذه المرأة يديها نحو الهالة المتوهجة حول القمر.

ارتعشت أوصاله لمرآهن. هناك وتيرة منتظمة في طريقة سيرهن، مثل الطريقة التي اتبعها الغزاة في أثناء الهجوم، في الحفاظ على مسافات محسوبة متزامنة مع كل خطوة. تمتمن بصوت منخفض بعض كلمات غير

مفهومة، كأزيز نحل خرج من خليته. لا يعرف ما الذي يحدث هنا، لكنه يتوجس خطرًا كبيرًا.

جثت المرأة على قدميها لتلمس العشب، وحذت الأخريات حذوها، بعدما قبَّلن أصابعهن، ثم نهضن ناظرات إلى السماء.

نادت المرأة: «أيتها الأرض العظيمة، لقد لبينا رغباتك، وسنستمر في تلبيتها بقية حياتنا. نتوسل إليكِ الإشارة. هل هذا موطن لنا حقًّا؟ هل علينا البقاء هنا؟ هل يمكننا اتخاذ هذا الحصن سكنًا ومقرًا لنا؟».

يمكنه سماع الريح تتخلل الغابة من خلفه، كهمسات لا يُدرَك لها مصدر. أمالت المرأة الأكبر رأسها للجانب، كما لو تنصت باهتمام. يبدو أنها سمعت الهمسات هي الأخرى.

- أيتها الأرض العظيمة، إذا أردتِ بقاءنا هنا، أرسلي الريح تخبرنا.

قبل أن ترف له عين، ضربت الريح ظهره، وبعثرت شعره، كما حفت تنورات النساء، اللاتي ظهرت عليهن الدهشة والبهجة، فيما عدا المرأة ذات الشعر الداكن بالطبع.

فكر بيلامي: يا لها من مُدعية محتالة! لو لم تدرك أن هناك ريحًا، لاكتفت بسكون الهواء كإشارة.

قالت بنبرة متزنة خافتة: «لقد حصلنا على الإجابة، يا أصدقائي».

رفعت ذراعيها ليعُدن إلى داخل الحصن، قبل أن تستدير فجأة. كتم أنفاسه، بينما تتفحص بعينيها الوادي المحفوف بالأنقاض. ثم قالت بعذوبة، وهي ترخي كتفيها: «نحتاج للراحة». ثم اختفت مع الأخريات وراء الجدار.

لبرهة، مكث مكانه يراقب بحذر، حتى عبر فيليكس الأنقاض ووصل إلى جواره. همس فيليكس: «ما هذا بحق الجحيم؟».

- على الأقل، عرفنا ما نبحث عنه. أعتقد أننا حصلنا على ما يكفي ليوم واحد.

سبقه فيليكس ببضع خطوات قائلًا: «نعم، أتفق معك. هيا لنعود إلى...».

تصدعت الأرض، وانهارت الصخور تحت قدميه، وابتلعته داخلها. فغر بيلامي فمه مصدومًا، وجثا على يديه وركبتيه، يحدق إلى الحفرة الذي اختفى

صديقه بقلبها. ثم زفر بارتياح، وتلاشى خوفه. رآه متكومًا حول نفسه مذعورًا، لكنه لم يُصَب بأذى. أما قاع هذه الحفرة الصلب، فيشبه مدخلًا لقبو.

حدق فيليكس إلى وجهه على استحياء: «يبدو أنني وجدت طريقة للدخول؟».

دون تردد، قفز بيلامي بداخل الحفرة، وتطلع حوله. لمح ضوءًا خافتًا من بعيد. إن هذا نفق قديم، على ما يبدو.

سحب من جيبه الخنجر الصغير، الذي نحته من الصخر في وقت سابق. احتفظ به، في حال تعرضوا للخطر في أثناء التقصي. ثم أومأ باتجاه الضوء: «هيا لندخل».

لحقه فيليكس منحنيًا. تردد صدى خفيف لخطواتهما، كلما تقدما، رغم رغبتهما في التسلل بهدوء. إن اندفاعهما بهذه الطريقة لا يخلو من الطيش والحمق.. ومع ذلك، فهذه فرصة لا تُعوَّض.

تباطأت خطوات بيلامي. هناك شيء ما يسد الطريق إلى الأمام. من المحتمل أنها عربة نقل مؤن، عليها أشياء لم يستطع تمييزها. ولمًّا لم يسمع صوت أحد من الغزاة، أشار لفيليكس أن يتقدم بإيماءة من رأسه. وعند اقترابهما، دفعا حافتها بما يسمح بالوقوف جانبها. ثم مد يده للداخل وأخرج أحد الأشياء المكدسة. إنها قطعة مستديرة، لها جانب عريض، تنتهي بطرف معدني رفيع. انحبست أنفاسه، وأعادها بحذر. تحسس البقية بأطراف أصابعه. ثم تراجع خطوةً متعجبًا.

أطلق صيحة خافتة: «يا للهول. هذه العربة ممتلئة عن آخرها بالأسلحة. هناك بنادق وقنابل.. وكل ما نحتاجه».

هز فيليكس رأسه غير مصدق، وفضَّل التحقق بنفسه.

- لا بد أنك تمزح.

ابتسم بيلامي: «إذا اعتُبِرت هذه مزحة، فقد انطلت عليهم. إنهم، على الأرجح، يحرسون الباب الداخلي لهذا النفق، على اعتبار أنه نهاية الطريق. ستأتي نهايتهم قريبًا».

سأله صديقه متحمسًا: «ما هي خطتك؟».

رفع بيلامي إحدى القنابل اليدوية ليراها في الضوء الخافت.

- سنلقي واحدة منها في كل نافذة يمكننا الوصول إليها. سنفجر هذه الجدران الملعونة، ونقتحم قلب هذا الحصن، ونعيد كل من اختُطِف وكل ما سُرِق منا.

اتسعت ابتسامة فيليكس: «تقصد أن نهاجمهم».

- نعم، كما هاجمونا. حان وقت الرد عليهم بالمثل.

وضع بحرص القنبلة اليدوية بجيبه، ثم استدار عائدًا، وقد اتقدت بداخله نار جديدة، تزداد اشتعالًا مع كل خطوة بطريق العودة.

الفصل الخامس عشر

جلاس

استيقظت لاهثة. ظل شخص ما يهز كتفها بقسوة. تبينت أن المرأة الشقراء تنظر إليها، وقد ربطت شعرها في كعكة مشدودة لأعلى. ما إن تكيفت عيناها الظلام، حاولت تذكُّر اسم المرأة صاحبة أفضل وجه متجهم، رأته بحياتها على الإطلاق. *إنها مارجو، إحدى مساعدات سورين.*

انقبض قلبها، واستعادت تلك اللحظة بالحقل، عندما أشارت سورين لمارجو باتجاهها. لا بد أنها أمرتها بفعل شيء بخصوصها. بالتأكيد، لم ترضَ القائدة الأعلى عن كلامها المندفع، وهي الآن بطريقها لتتحمل عاقبة تهورها.

جرَّتها المرأة من ذراعها، فارتعبت جلاس، وحاولت أن تتخلص نفسها من قبضتها الباردة.

- لا، لا، مهما يكن ما فعلته، أقسم إنني لن أكرره! سأحسن التصرف، سأُبقي فمي مغلقًا...

أسكتتها هامسة: «ستوقظين الأخريات. كُفِّي عن هذه الأنانية، فهن بحاجة للراحة من أجل العمل غدًا».

سكتت على الرغم منها، فقد أصابتها هذه الكلمات بالحيرة، وتراجع خوفها قليلًا.

استطردت مارجو: «لا أعرف ما الذي تراه بك. عليكِ إثبات جدارتكِ عندما يحين الوقت».

قادتها بصمتٍ إلى خارج المهجع، تتحاشى الفتيات النائمات، حيث تتدلى أقدام بعضهن من الفراش في عناد، حتى يمكنهن لمس الأرض بأصابعهن. أصبحت تعرف هؤلاء المُصدقات بعقيدة الحُماة، مما يجعلها تتجنبهن بقدر استطاعتها.

عندما مرت بجوار فراش آنا، فكرت أن تتعمد الاصطدام بها لتوقظها. بدت فكرة جيدة أن تجعل إحداهن تشهد على جرها للخارج في ظلمة الليل، لكنها لن تخاطر بلفت انتباه هذه المرأة.

بعد خروجهما، استدارت مارجو لتغلق الباب، فتجرأت على سؤالها هامسة: «إلى أين سنذهب؟».

أجابتها: «إلى سكن سورين الخاص. لا تتبع الأم نظامًا ثابتًا للوقت، رغم ذلك من الأفضل أن تلتزمي بالاستيقاظ في الموعد مثل الأخريات».

أسرعت الخطى لتلحق بمارجو، بينما عقلها ظل متحيرًا. لا تزال تستغرب اختيار الحُماة مخاطبة سورين بلقب *الأم*. هل لديها أبناء من بينهم؟

انعطفتا يسارًا، وعبرتا خلال رواق أمامي طويل، بلا سقف. أمعنت النظر في النجوم التي تلمع قبيل الفجر. تساءلت أين لوك في هذه اللحظة، هل هو مستيقظ، قلق لغيابها، أيتطلع لهذه النجوم نفسها في إنهاك، بعدما وضع خطة لإنقاذها؟ تتمنى أن ترسل له رسالة بطريقةٍ ما، ليطمئن عليها.

توقفت المرأة، ثم أشارت إليها، لتصعد درجًا خشبيًّا، تفوح منه رائحة غبار الخشب. في أثناء صعودها، وضعت يدها على كتف جلاس، فجفلت متوقعةً أن تشدد من قبضتها بقسوة. ولدهشتها، حافظت على لمسها بلطف.

قابلهما عند أعلى الدرج حارسان في زيهما الأبيض المعتاد، وعلى وجهيهما التعابير الجامدة المخيفة نفسها. عند رؤية جلاس، أومآ لها في تبجيل غريب، وأفسحا الطريق لتمر. نظرت إليهما مجبرةً نفسها على الابتسام، وتابعت التقدم بصحبة مارجو، حتى دخلتا حجرة واسعة. تغطت الأرضية الأسمنتية المتفحمة بسجاد منسوج، ووُضع بالمنتصف سرير ذو أربعة أعمدة. في زاوية من الحجرة، يطقطق الحطب بمدفأة متنقلة، تعلوها مدخنة معدنية قديمة، تتدلى من السقف، وترسل الدخان للخارج مباشرة.

ذهلت من الترتيب الأنيق، والمقتنيات القليلة، قبل أن تتذكر أنها مسروقة على الأرجح. مَن مِن الحُماة قد يقضي ساعات في نسج هذا اللحاف الصوفي الأحمر على سرير سورين؟ لم تشهد أي قماش يُنسج أو صوف يُغزل منذ وصولها.

قطعت مارجو عليها انشغالها بتأمل التفاصيل، وقادتها إلى حجرة جانبية ملحقة. وجدت بداخلها فراشًا صغيرًا، مثل الذي بمهجع الفتيات تمامًا، بالإضافة إلى حوض لغسل الوجه، سجادة دافئة على الأرضية، ومرآة صغيرة متصدعة على الحائط. حدَّقت إلى انعكاسها، فصدمها ما رأت. مضت مدة طويلة منذ آخر مرة تطلعت بمرآة. بدت نحيفة، ومتعبة.. وحزينة للغاية. مدت يدها لتلمس الشروخ، لا ترغب برؤية وجهها.

تأملت المرأة قميص جلاس الأبيض الباهت، المخصص للنوم.

- إن حجمكِ أصغر من دارا. علينا أن نعدل فستانها ليناسبك. حتى يتم ذلك، يمكنكِ ارتداء زيك القديم.

ثم ألقت فستان جلاس الأبيض على الفراش، فجفلت مدهوشة. لم تلحظ مارجو، وهي تجمع أغراضها.

ضمت ذراعيها إلى صدرها، وسألتها: «من هي دارا؟».

أجابتها، ناظرةً بحدة في عينيها مباشرة: «إنها وصيفة سورين السابقة، التي ستحلين محلها. إنكِ تشبهينها كثيرًا، في عنادك، واندفاعك».

لم تستطع فهم مغزى ابتسامتها المتكلفة، لكن الشك يعتمل بصدرها.

- ماذا.. حدث لها؟

قبضت أصابعها على جانبَي ثوبها، في استعداد للإجابة التي تخشى سماعها. جاءتها الإجابة من خلفها: «لقد ترقَّت».

التفتت لترى سورين واقفةً عند الباب، بقامتها الممشوقة، ووجهها الشاحب، وابتسامتها الوقور الهادئة.

سألتها بحذر: «ترقَّت؟».

ألا تُطلق هذه الكلمة أحيانًا على.. من توفي؟

تراجعت سورين، وأومأت لفتاة أخرى، تقف عند مدخل الحجرة؛ فتاة سمراء عريضة الكتفين، في أوائل العشرينيات من عمرها، ترتدي فستانًا رماديًّا مثل مساعدات قائدة الحُماة. حيَّتها مارجو بحرارة، وأسرعت تصافحها: «مرحبًا، أيتها الأخت دارا».

ردت دارا بابتسامة، ثم أومأت باتجاه جلاس باحترام، قائلة: «دومًا ما تختار الأم بعناية. لا بد أنكِ أثرتِ إعجابها».

ضحكت سورين، فيما تمسك يد جلاس: «بالفعل، وستستمر بإثارة إعجابي، بلا شك».

شعرت برأسها يدور.

- ما المطلوب مني فعله بالضبط؟

قالت عائدة لحجرتها: «مسؤوليتك الأولى هي أن ترافقيني. أود أن أتجول بأرجاء النواة في ضوء الفجر».

التقت عيناها عينَي دارا، التي غمغمت: «حذاء، وشال».

بينما أشارت لها مارجو باتجاه خزانة ملابس على بُعد بضع خطوات. أسرعت نحوها، وأخرجت زوجين من الأحذية الجلد، وشالًا صوفيًّا ثقيلًا. أومأت لها دارا، فقدمتهم لسورين.

ابتسمت سورين في امتنان، ثم أمعنت النظر بثياب جلاس: «اختاري رداءً ثقيلًا لنفسكِ، يا بنيتي، حتى لا تصابي بالبرد».

عرضت عليها دارا عباءة بيضاء ناعمة. همست على استحياء، لشعورها بالإطراء، والحيرة بسبب تلقيها كل هذا الاهتمام، دون أن تفعل أي شيء: «أشكرك».

لحظة بزوغ الفجر، ازدان الحصن الهادئ، بوهج أصفر وردي. سارتا في صمت، بينما تعبران خلال عدة دهاليز وطرق مختصرة، تعرفها سورين، مما جعل جلاس تشعر بالغثيان. اشتمت رائحة رطبة عطرة، فأدركت إلى أين تتوجهان بالضبط.. إلى قلب النواة.

قالت سورين، متوجهةً نحو الفناء الواسع، ومنه إلى الحيز الشجري: «هذا هو ركني المفضل. أحب المجيء إلى هنا للتفكر، والحديث».

وجهت لجلاس ابتسامة مشجعة، كأنها تحثها على بدء هذه المحادثة. لذا أسرعت تسألها عما يشغل بالها: «لماذا اخترتِني وصيفةً لك؟».

ابتهجت سورين: «لأنكِ تسألين أسئلة من هذا القبيل. لديكِ قلب صادق، ولسان صريح. وخلاف ذلك...».

أدارت رأسها، محدِّقة إلى مصباح معلق بين الأغصان. ثم استطردت: «تعجبني طريقة تفكيرك».

قاومت رغبتها في الضحك غير مصدقة. لم يمدح عقلها أي أحد بحياتها، فيما عدا لوك.

اختفت ابتسامة سورين، وشردت في أفكارها: «بعض الناس لا ينظرون إلى العالم، بل إلى ما يريدون اقتناصه منه. ما يمكن أن يجنوه، أو ينتفعوا به، أو ينهبوه. ولهذا فوائد بالتأكيد. وهي خصلة جيدة نقدرها في الغزاة. أما القادة، فلا يكتفون بذلك. يريدون التأمل فيما حولهم، ويبحثون عما يمكنهم فعله لمساعدة الآخرين».

لمعت عيناها في سرور وهي تدور حول نفسها، مضيفةً: «مثل حقل للزراعة، أو بستان، على سبيل المثال».

توردت وجنتا جلاس: «لا أعرف لماذا قلت ذلك سابقًا».

ابتسمت لها: «لأنه صحيح. لديكِ اقتراحات حكيمة، يا جلاس. ولذلك اتضح أنكِ على حق».

صارت ابتسامتها أكثر اتساعًا، وأشرق وجهها بشعاعٍ من ضوء الفجر الوردي، الذي تسلل لتوه للداخل.

- لقد تحدثت إلينا الأرض. وهي ترغب ببقائنا هنا. في الشتاء، نشعل المواقد، ونحتمي داخل الحصن، وفي الربيع.. نزرع.

ضغطت على كتف جلاس، ثم تركتها. فيما حدَّقت إليها، غير واثقة مما عليها قوله. تريد أن يختفي هؤلاء الناس، ويرحلوا بعيدًا، بحيث لا يمكنهم إيذاء أحد من المستوطنين، أو الأرضيين مجددًا. تتمنى أن تعود إلى جوار لوك. وفي الوقت ذاته، لا تعتقد أنها مستعدة للتخلي عن سورين، وعما تشعر به، عندما تبتسم بوجهها: أن لها قيمة، وأن هناك حاجة لوجودها.

همست سورين: «أتعلمين أننا أمسكنا عن الزراعة من قبل. عندما كنتُ فتاة صغيرة، انضممت إلى الحُماة، وعشنا في أقصى الغرب. من حينها، توقفنا مرتين في كل جيل. وقد حان الآن وقت الزراعة من جديد».

اتخم عقلها بأسئلة لم تطرحها بعد: *ما علاقة الزراعة بالأجيال؟ أين عشتم بالغرب تحديدًا؟ لماذا انضممتِ إليهم؟*

اندفعت سائلة: «لماذا وقع اختياركم علينا من بين الجميع بالمخيم، يا سورين؟».

توقفت سورين، ومدت يدها ببطء نحو فرع شجرة يتدلى منه الخوخ، ولمسته برفق بأطراف أصابعها.

- ستتعلمين يا جلاس، أن للأرض تناغمًا فريدًا. وليس من الحماقة فقط أن نتجاهل ذلك، بل هي خطيئة كبرى. على الأرض، هناك المستغلون، وهناك الحُماة. يجب علينا التصدي للمستغلين، الذين يفسدون الأرض، بينما نشجع الحُماة المحتملين، على النهوض. أترين هذه الثمرة، إنها جميلة نضرة، وملأى بالحياة، مثل جميع الأعضاء الجدد بمجتمعنا.

انقطعت أنفاسها، وهي تنصت إلى روعة كلماتها، وتألق الضوء المتراقص على وجهها. تهدل شعر القائدة الأعلى، وتطايرت منه الخصلات الرمادية الرقيقة. هناك أمر يجعلها بهذا الجمال والارتياح، كأنها شجرة في الغابة، تتمايل بأغصانها، باتجاه ضوء الفجر المتوهج.

قطع حديثهما صوت صبي، يشق طريقه بهدوء عبر البستان: «أيتها الأم! لقد عاد الرجال من الجنوب ظافرين».

قبَّلت سورين جبهة الصبي المسرور: «خيرًا للأرض!».

قال ناظرًا إليها: «بركاتكِ يا أمي».

ردت: «بُوركت يا كالوم. سأذهب للقائهم بعد قليل».

بغض النظر عما إذا سورين هي أمه الحقيقية، أم لا، فقد أحسنت دور الأم بلا شك.

انطلق من فوره ليبلغ رسالتها، فيما استدارت نحوها لتقول ضاغطةً على رسغها: «سأتوجه مباشرة نحو الثكنات. اذهبي واستمتعي بوقتك قليلًا. تجولي بالجوار، واكتشفي المزيد من اقتراحاتكِ المدهشة».

راقبت سورين ذات الهيئة المهيبة، وهي تبتعد. مرت أمام عينيها صورة أخرى، لامرأة شقراء تنظر بمرآة مضيئة، في فينيكس. ترتدي ثوبًا قصيرًا، وشعرها مجدول بعناية، ولها ابتسامة رقيقة. لن تنسى عينيها حتى نهاية حياتها.

تساءلت: *ماذا قد تظن والدتي بهؤلاء الناس؟ ماذا قد تظن بسورين؟*

ثم عدلت عن ذلك: قد ترى سورين والدتي، من الفاسدين. ربما لديها حق.

لقد تعلقت بها والدتها، حتى إنها تمادت في بذل كل ما في وسعها، من أجلها. قضت حياتها تخدع الناس لتُحصِّل المزيد، المزيد من النقاط بقسم المعاملات، ثم التوسل لمزيد من الحصص. اعترتها قشعريرة عند تذكر نظرة الاستكانة الكاذبة على وجهها، أمام نائب المستشار رودس، الذي رأت في عينيه، اتهامًا لوالدتها بالجشع والتملق.

مدت يدها لأعلى، لتلمس ثمرة الخوخ المتدلية بطرف إصبعها. لقد جعلتها كلمات سورين، لا ترى ما يدعو للتشاؤم، من هؤلاء *الحُماة*.



الفصل السادس عشر

ويلز

مرت ثلاثة أيام على مكوثهم هنا، ولم ينقطع تدريبهم، كأنه بلا نهاية. رغم أنه هذا الصباح، بدلًا من الركض في المسار المجاور لجدران الحصن الخارجية، ذهبوا إلى الغابة، من أجل تدريب يطلق عليه الحُماة «التدريب التنشيطي». في هذه اللحظة، تعلق ويلز بشجرة عالية، وسط ظلام دامس، وقد كان ثمة حارس مفتول العضلات يحمل بندقية ويتحرك حول الشجرة.

هبت ريح قوية، هزت الشجرة. فتشبث ويلز بأحد الفروع، وزفر ببطء ساكنًا في محله، وانتظر. تعقب الحارس الآثار التي تعمد ويلز تركها خلفه، لجذب الرجل لفخ خفي. استمر الرجل، بالتقدم غافلًا، حتى صار أسفل الشجرة تمامًا، وبعد ثلاثة.. اثنين.. قفز ويلز، وهبط على ظهر الحارس. مد ذراعه وانتزع السلاح من بين أصابع الرجل المذهول، وطوق رقبته بذراعه الأخرى، أخذ يشد قبضته أكثر فأكثر. لكزه الرجل، بينما أحكم ويلز قبضته، كازًّا على أسنانه، وعرقه ينهمر.

جعلته خطوات ركض سريعة على العشب، يرفع رأسه، وينظر خلفه. اقترب اثنان من الحراس. أدار جذع الحارس الذي يقبض عليه، وخفف من قبضته بما يسمح بإفلاته، موجهًا البندقية نحو الآخرين.

صرخ فيهما ويلز: «إذا تقدمتما خطوة أخرى، سأطلق النار».

كُسر غصن خلفه. ثم سمع صوتًا مألوفًا: «لو أن هذه البندقية محشوة بالرصاص، لارتعدتُ رعبًا».

سحب زر الأمان، واستدار، فرفع الحارس ذراعيه معتذرًا في استسلام. استعاد الرجل سيطرته على نفسه، سعل بحدة، وربت على كتف ويلز، محركًا شفتيه: *«أحسنت»*.

نادى أوك: «تعالوا، جميعكم. لقد انتهت هذه الجولة من التدريب».

خرج باقي الحُماة المبتدئين من مخابئهم بالغابة، واقتربوا منه. انتظر حتى تجمعوا حوله، ثم أشار إلى ويلز مبتسمًا بفخر: «لا تحتاج إلى توجيه أي حديث إليهما. فلديك سلاح بين يديك، وله الصوت الأعلى. كما أن الرجل الصامت أكثر إخافة. أما إذا تحدثت، سيعتقدون أن بإمكانهم التحدث كذلك، وإقناعك بالعدول عما تنتوي فعله. بدلًا من التحذير.. أطلِق النار على الفور».

انحنى في حركة خاطفة، والتقط البندقية، والتفت مصوبًا الفوهة بصدر ويلز. ثم ضغط الزناد. سُمعت طقطقة خافتة. زفر ويلز بارتياح؛ لا توجد بها ذخيرة حية.

تابع أوك في ضجر: «بخلاف ذلك، فلا بأس بأدائك. ليس سيئًا على الإطلاق، بالمقارنة بما يمكنني قوله عن بقيتكم!».

جال ببصره بينهم متأففًا، وتوقف لبرهة عند كيت، الفتي الأرضي. أومأ برأسه باتجاه ويلز: «أتقن كلاكما التخفي. لقد بدأتما في الاستماع إلى الأرض، ولذلك تتحدث إليكما. استمرا بالعمل الجاد، وستنضمان إلينا، إذا أرادت الأرض».

ردد الجميع: «إذا أرادت الأرض».

- والآن، اصطفوا، واستعدوا للركض!

انطلق ويلز يعدو سريعًا، يعرف أن أوك سيلحقه في غضون ثوانٍ.

نظر كيت إليه من وراء ظهره، مهرولًا، ثم غمز بعينيه مرتين. إنها إشارتهم المتفق عليها، للاطمئنان على أن الخطة تجري على ما يرام. تحدث كيت وإريك إلى الأسرى الآخرين، من مخيمهم، للاتفاق على الخطة. يمكنهم الاستمرار بخداع الحُماة أنهم من المصدقين بعقيدتهم، حتى يتركوا لهم فرصة التصرف

دون حراسة. حينها سيتمكنون من معرفة الوقت المناسب للهروب. لم يتأكد تمامًا مما يعتقده بقية المجندين: هل هم مصدقون، أم يخادعون الحراس مثلهم؟ يجب أن يولي اهتمامًا بأصدقائه، ريثما يتبين نيتهم.

غمز له ويلز كذلك، ثم التفت كيت، بمجرد وصول أوك إلى جانبه. صاح أوك متجهمًا: «أنت تجري على الأرض!».

عليهم أداء هذا الطقس في كل مرة يتدربون فيها:

أتوسل من الأرض الغفران.

أنت تأكل طعام الأرض!

أشكر الأرض على عطاياها.

تعهد أن تظل بخدمة الأرض!

تشنجت معدته. ها قد جاء الجزء الذي يتلقى فيه اللكمة بوجهه. إذ لا يرون المجندين على الاستعداد المطلوب لتكريس أنفسهم في خدمة الأرض. لم تسمح لهم الأرض بعد. ولا سبيل لمقاومة ذلك، فهي جزء من خطة خداعهم. لم يحن الوقت بعد.

قال ويلز متأهبًا: «أتعهد بخدمة الأرض».

الصمت الذي أعقب ذلك، أصابه بالحيرة، كأنه سقط أرضًا من فوق تل مرتفع. لقد أنهى جملته كاملة، ولم يحدث شيء. أدار رأسه مختلسًا النظر باتجاه حارسه في ارتباك. ما زال يهرول إلى جواره، مسيطرًا بحزم على سير التدريب البدني.

ألقى نظرة عليه. لم ينتبه الحارس الأكبر سنًّا إليه، واكتفى بالتحديق إلى طريقهم عبر الغابة، في اتجاه الثكنات. ما زال وجهه مكفهرًا، غير أنه لمح وميضًا خافتًا لابتسامة في عينيه. يبدو أن ويلز قد حقق تقدمًا.

عند وصولهم للفناء الخارجي، توقف بغتةً، كما تدرب أن يفعل، واضعًا يديه خلف ظهره، في انتظار الأمر التالي.

صاح أوك: «إنها استراحة الغداء. عليك العودة إلى هنا بعد ساعة».

- عُلِم يا سيدي.

كفَّ أوك عن متابعته، مما أذهل ويلز. لأول مرة منذ مجيئهم، يُسمح له بالانفراد بعض الوقت. اعتاد التحرك وتناول وجبته تحت مراقبة الحارس القائم على تدريبه. أما بهذه اللحظة، فلا يوجد أحد لحراسته على الإطلاق. هل يُكافأ على عمله الجيد اليوم؟ أم لأنه تعهد نفسه لخدمة الأرض؟

جال ببصره. ولم ير أحدًا يراقبه، هذه أفضل فرصة ليترك العنان للمتمرد الذي يتأجج بداخله. لن يأبه به أحد إذا استغل هذا الوقت في التجول قليلًا، مستطلعًا هذا البناء المحصن.

ازدحم الفناء اليوم بعربات اليد. لا بد أن فرقة الغزاة قد عادوا من مداهمتهم لمكانٍ ما بالجنوب. فقد رأى أكوامًا مكدسة: من أوانٍ خزفية، سجاد منسوج، خضراوات شتوية، لحوم مقددة، وحقائب بها ما يشبه قوالب من الملح. رغم أنه احتفظ بتعبير محايد على وجهه، فإن الغضب كان يضطرم بداخله. هل يوجد شعب لم ينهب الحُماة موارده بعد؟ ألم يكتفوا بتدمير مخيمهم؟

استمر بالتقدم داخل الحصن، مستكشفًا أكبر قدر ممكن من التفاصيل في حدود الوقت المسموح له. رأى خيطًا من الدخان منبعثًا من غرفة داخلية. أمال رأسه ناظرًا، فوجدها وحدة للغسيل، حيث وُضعت الملابس في وعاء عملاق على النار، وتعمل على تقليبها فتيات، لهن وجوه متوهجة، يتصبب سيل من العرق على جباههن، تاركًا بقعًا ملطخة على فساتينهن البيضاء. أمعن النظر، لكن لم يرَ من بينهن وجهًا مألوفًا.

لفتت انتباهه تمتمات خافتة آتية من بعيد. لقد سُدت نهاية الرواق بحائط قماشي أبيض، معلقٍ بحبل طويل ممتدٍّ بين هيكلين. رأى خيال شخصين متقاربَي الرأس خلف إحدى الشراشف، تحت شمس ما بعد الظهيرة.

تراجع الاثنان، ورأى جانبًا من رأس أحدهما. ثم لمح وميض شعر أسود لامع، مربوطًا بشريط أحمر. التفتت الفتاة وألقت نظرة خاطفة من ورائه، ثم اندفعت نحوه. ناداها، ساحبًا إحدى الشراشف، لتحميه من الشمس، التي أعمت عينيه لثانية: «أوكتافيا».

سمع لهاثًا، ثم شعر بشيء مسنن يوخز رقبته.

- يا إلهي.. ويلز.. آسفة. اعتقدتُ أنك أحدهم.

رُفع الجسم المسنن عن رقبته، وحدق إلى أسفل نحو أوكتافيا المذهولة، التي جفلت معتذرة. أعادت الجسم الحاد إلى جيبها.

همس ويلز: «وماذا لو أنني أحدهم، يا أوكتافيا؟ من الممكن أن يُقبض عليكِ بهذه الطريقة».

رفعت ذقنها في عناد، وقد شابهت بيلامي كثيرًا: «لا أهتم».

كاد يضحك، قبل أن يرى الغضب متأججًا بعينيها.

- دعهم يقبضون عليَّ إذن. لقد سئمت مهماتهم السخيفة. إنهم يتصرفون كالمتنورين، في حين أنهم فاسدون حتى النخاع.

ثم، أخذت يد الفتاة التي تقف بجانبها، والتي يبدو وجهها وشعرها المجعد الداكن مألوفَين له على نحو غريب. قالت لها أوكتافيا: «لن أسمح أن يؤذيكِ أي أحد».

سألها، ناقلًا بصره بين الفتاتين: «ما الأمر؟ ماذا حدث؟».

- لقد هاجمها أحد الذين يطلقون على أنفسهم الحُماة. أمسك بها، وأوقعها أرضًا، وأسمعها كلامًا فارغًا عن رغبة الأرض أن يقترنا معًا. لحسن الحظ، ركلته آنا بقوة، وهربت منه، فهي محاربة شجاعة.

رقَّت تعبيرات أوكتافيا، وهي تنظر إليها، وعيناها تعكسان اهتمامًا كبيرًا بها.

قال ويلز برفق، محدقًا إلى الفتاة: «أحسنتِ يا آنا. يبدو وجهك مألوفًا للغاية...».

ابتسمت أوكتافيا: «إنها من والدن».

توقف قلبه لثوانٍ من الدهشة: «والدن؟ هل أنتِ من المستوطنة؟».

أومأت برأسها، واستمع لدقائق معدودة إلى قصتها المؤثرة عن رحلة هبوطها على الأرض، وما حدث بعد تحطم سفينتها.

سألها مذهولًا: «ماذا حدث للآخرين، الذين تركهم الحُماة؟».

- أعتقد أنهم لا يزالون أحياء في منطقة ما. يبحثون عن الناجين منكم.. أتمنى أن يتمكنوا من الوصول إلى مخيمكم.

أمسكت أوكتافيا بيدها مرة أخرى مبتسمة: «إن لم يفعلوا، سنذهب للعثور عليهم، وبعد ذلك سنبدأ مجتمعًا جديدًا كلنا معًا. سيعجبك مخيمنا. هناك جدول قريب، يمكننا الذهاب للسباحة متى شئنا، ويزورنا أرنب لطيف كل صباح. وبالمساء، نتحلق بالقرب من حفرة النار، نتحدث ونضحك، حتى يحين موعد النوم».

- وأين سأنام؟

أضاء وميض بعينيها، لم يره من قبل.

- بالتأكيد سنجد لكِ مكانًا معنا.

قالت آنا في أسى: «لا أطيق الانتظار أكثر لرؤية المخيم»، ثم التفتت إليه: «قالت أوكتافيا إنه ربما لديكَ خطة لمساعدتنا».

قال، متلفتًا حوله، ليطمئن لعدم وجود أحد يسمعهم: «لدي بداية خطة».

عبس وجه أوكتافيا: «الخطوة الأولى فيها هي الانتظار، يتبعها المزيد من الانتظار».

سمع ويلز حركة خلفهم. فتنحنح، ثم قال بصوت أعلى: «لقد سُمح لي أن أتعهد بخدمة الأرض».

قالت آنا، تشاركه التظاهر، وهي ترمق أوكتافيا بطرف عينيها: «هذا رائع. آمل أن يُسمح لنا كذلك».

مرت بجانبهم امرأة في زيٍّ رماديٍّ، تحدق إلى ويلز بارتياب.

قالت أوكتافيا على الرغم منها: «إذا أرادت الأرض».

رددوا جميعًا، بما فيهم هذه المرأة، التي تابعت طريقها.

سألته آنا: «هل رُقيت مثل جلاس؟».

فقال بانفعال: «جلاس؟ ماذا تقصدين؟».

رفعت أوكتافيا حاجبيها وأجابته: «لقد بدأت العمل كونها وصيفة للقائدة الأعلى. ثم نُقلت من مهجع الفتيات، إلى حجرة ملحقة بجناح سورين».

تسارعت نبضات قلبه.

- كيف الوصول إلى هذا الجناح؟

قالت أوكتافيا، تاركةً سلة الغسيل: «سأريك الطريق».

مرًّا من أمام غرفة التنظيف، ثم أشارت لدهليز ضيق على اليسار: «اتبِع مرتديات الزي الرمادي، وستصل للجناح. لن أقدر على الذهاب معك، فهناك أعين تراقب هذه المنطقة».

قال: «أشكرك».

ثم أضاف، ناظرًا إلى أوكتافيا بجانب عينيه، ممازحًا: «إذن.. هل هناك أمر بينك وبين هذه الفتاة الوالدنية؟».

حاولت أن تزم شفتيها، لتخفي ابتسامتها الواسعة. ضحك قائلًا: «يا إلهي.. سيحزن الكثيرون في المخيم».

- كفى، يا جاها.

تنهد: «من الأفضل أن أذهب في الحال. حافظي على حذركِ، يا أوكتافيا. اعتنيا ببعضكما بعضًا، حتى نجد طريقة للخروج من هنا».

ألقت نظرة خاطفة على آنا، التي أكملت تعليق الغسيل، وقالت في مزيج من الإصرار والرقة: «سنفعل».

فكر، مهرولًا في الطريق، الذي أشارت إليه: *أبذل جهدي لأيام من أجل ترقيةٍ قد حصلت عليها جلاس بكل سهولة، وباتت تتمتع بثقة قائدتهم. على الأقل، تسير الخطة على ما يرام. أحتاج فقط إلى أن...*

ها هي هناك، في فستان أبيض جديد، ترافق سورين السير خلال الردهة الخارجية. شعرها الأشقر نظيف، ومنسدل على كتفيها، بينما تميل برأسها نحو سورين، لتنصت إليها بتركيز. إنها تبتسم، وتبدو هادئة للغاية.

شعر وكأن الأرض تهتز تحت قدميه، والجدران تتهاوى فوق رأسه، وخطوات الأقدام على الأرض الحجرية، تطن بأذنيه. قال في نفسه: *بالتأكيد تتظاهر. بالتأكيد تسير على الخطة.*

نظرت جلاس إلى أعلى، واكتشفت تحديقه إليها، فغمز لها مرتين بعينيه. ثم ابتعد، متسائلًا عن سبب التحول المفاجئ لحماسته المفعمة بالأمل، إلى رعب شديد.

الفصل السابع عشر

كلارك

عندما استيقظَت في الصباح الباكر، على رؤية بيلامي يسير جيئةً وذهابًا، في تململ واضح. بدا مضطربًا ومرهقًا. يؤلمها أن تراه بهذه الحالة. تريد أن تطوقه بذراعيها، وتخبره أن كل شيء سيتم على خير، لكنه ليس بيلامي الذي تعرفه. لقد تعلمت منذ فترة طويلة، أنه لا يجب عليها فعل ذلك، عندما تومض عيناه بشراسة، وتنتفض عضلاته بطاقة مسعورة.

لقد اكتشف وفيليكس أمرًا ما في أثناء مهمة الاستطلاع. انتظر حتى يستيقظ الجميع لإخبارهم بما وجدا، وانتظر وقتًا إضافيًّا، حتى استيقظت فال، وانضمت إليهم مترنحة، تدعك عينيها الناعستين، حينها انطلق يخبرهم بلا مقدمات: «لقد اكتشفنا مدخلًا خفيًّا، لمخزن أسلحتهم».

لمعت عيناه بحدة جنونية جعلتها ترتجف.

وقف فيليكس خلفه، على بُعد خطوات منه، عاقدًا ذراعيه، وأضاف: «ليس لديهم أي فكرة عن وجود هذا المدخل. مع ذلك، ليس أمامنا وقت طويل حتى يكتشفوا الحفرة».

فكرَت بيأس: *لا، هذه ليست الطريقة التي يجب اتباعها. إن عددهم يفوقنا أضعافًا. ولن تساعدنا الأسلحة في شيء. عليهم اتباع منهج أكثر دبلوماسية، أو نظام للمقايضة. بالتأكيد، هناك شيء يريدونه، وإلا لما هاجموا مخيمنا.*

نظرت إلى بول، فلمحت على وجهه، تعبيرًا جادًّا غير معتاد. لقد تناقشت في هذا مع الآخرين ليلة أمس، بدعمٍ من بول، عندما آثر بيلامي وفيليكس الذهاب بمفردهما.

استطرد بيلامي، فيما لاحظت ارتعاشة يديه: «قد تظهر الجدران من مسافة بعيدة، محصنة، وغير قابلة للاقتحام. إن بها نوافذ، وأساسها متداعٍ، وهناك عدة مداخل لزرع هذه المتفجرات. يمكن أن نضرب حصنهم قبل أن ينتبهوا».

سأله بول بابتسامة جانبية: «كيف عرفت هذا؟ هل أصبحت مهندسًا محنكًا خلال يومين، إلى جانب مهاراتك الأخرى؟».

شدت كلارك قامتها لتدافع عن بيلامي غريزيًّا، قبل أن تومض عيناه، ويرد على بول بهدوء، مبتسمًا في تهكم: «لا، لستُ مهندسًا، لكنه كذلك».

أومأ برأسه باتجاه لوك، الذي يجلس على جذع شجرة، وجبهته تزداد عبوسًا في أثناء استماعه. سأله بيلامي: «ما رأيك يا لوك؟ أليس هذا ممكنًا؟».

فقال، وهو يحك رأسه المجعد: «يجب أن أتفقد المنطقة بنفسي، قبل أن نحدد الأماكن الأنسب لوضع المتفجرات».

أومأ بيلامي برأسه: «هذا اقتراحي التالي بالفعل. يمكننا المخاطرة بزيارة استكشافية أخرى الليلة.. ثم نأخذ الأسلحة و...».

نهضَت وأكملَت جملته: «وننسف جزءًا منه، *وأصدقاؤنا* في الداخل!».

أطبق بيلامي فمه، واستدار ناظرًا إليها. حاولت تجاهل نظرة الألم والإحباط على وجهه.

- هذا تصرف خاطئ ومتهور.

وقف بول بجانبها غاضبًا: «أشكرك. لقد استمعت لهذا الهراء بما يكفي، وأتساءل إذا كنتُ وحدي الذي يرى...».

قاطعته كلارك، وعيناها لا تفارقان وجه بيلامي: «علينا أن نتبع طريقة دبلوماسية أولًا، يا بيل. فليست لدينا أي فكرة عن مكان أصدقائنا داخل هذا.. البناء، أو الحصن، أو أي ما تطلقه عليه. كل ما نعرفه، أنه يُحتمل وجودهم بالأماكن التي تخطط لتفجيرها».

أجابها بنفاد صبر، ضاغطًا على أسنانه: «فكرت في ذلك. إن هذه الجدران مجرد دفاع خارجي. إذا هُدمت، يمكننا الوصول إلى قلب هذا البناء، دون تعريض أصدقائنا لأي خطر».

أخذت نفسًا عميقًا. تعلم أن بيلامي لن يعجبه ذلك، لكن عليها التحدث. التفتت لتواجه بقية الفريق، متسائلة: «لماذا علينا الهجوم على أي حال؟ أليس علينا التفكير في الخيارات المتاحة أمامنا أولًا؟».

أطلق بيلامي ضحكة قصيرة مُرَّة: «هل تعتقدين أن التحدث إلى هؤلاء القتلة هو أحد هذه الخيارات؟».

طرفت بعينيها، تحاول بصعوبة تفادي نظرة الازدراء على وجهه.

- لقد تحدثت وبول عن هذا الأمر الليلة الماضية. نعتقد أن لدينا استراتيجية مسالمة، ستمكننا من إنقاذ أصدقائنا، ونعيدهم للوطن بأمان. سنستمع أولًا إلى مطالب هؤلاء.. الغزاة.

قاطعها بيلامي: «تقصدين هؤلاء *القتلة*».

تابعت، مبتعدةً عن مرمى نظره، حتى لا تتأثر بتعبيراته: «سنقترح في المقابل، أن تظل العلاقات مفتوحة بيننا بقدر المستطاع، أملًا بحل سلمي طويل الأمد. في هذه الأثناء، يمكننا التفكير في خطة احتياطية أقل تهورًا، مع التأكد من إمكانية تطبيقها استراتيجيًّا».

دون أن تنظر، تستطيع الشعور بالغضب الذي يضطرم بداخله. سأل، مقتربًا منها: «وإذا قُتل أصدقاؤنا في هذه الأثناء؟ وأخي، وأختي الصغرى؟ هل أنتِ على استعداد للمجازفة بحياتهما؟».

قبضت كفيها في حنق. لن تسمح له أن يتحدث إليها كشخص مستهتر وغير مبالٍ، لمجرد أنها تريد أن تتوخى الحذر. صاحت به: «أأنت من يقول هذا؟ لأن هذا ما عرضته علينا منذ قليل، يا بيل! مجرد مخاطرة جسيمة مجنونة».

كرر من بعدها: «مجنونة؟ أهكذا ترين خطتي؟».

قاطعهما بول: «أتعلم ما هو الجنون حقًّا؟ أن نخاطر بحياتنا من أجل أشخاص، من المحتمل أنهم قد ماتوا بالفعل».

كأن هذه الكلمات قطعت الهواء في هذه البقعة من الغابة. جفل كوبر، وبجانبه شحب وجه جيسا.

رفع بول يديه: «لقد قلت فقط ما يخشاه كلٌّ منا! يجب أن نضع هذا الاحتمال في اعتبارنا. لا يُعقل أن نعرض حياتنا للخطر، قبل أن نتيقن أنه لا يزال هناك أفراد من شعبنا لإنقاذهم».

قال بيلامي بنبرة خافتة مقلقة: «لم يمت أحدهم بعد. لن أستطيع المكوث هنا، بينما تبتكرون أعذارًا كالجبناء، لتتخلوا عنهم».

تنحنحت فال: «أعتقد أن لديه وجهة نظر. فالمعلومات التي بين أيدينا محدودة. نحتاج لجمع المزيد قبل أن...».

- يمكنكم جمع المزيد، أما أنا، فلا.

أضاف بيلامي، قبل أن يستدير مبتعدًا، وملوحًا لفيليكس، كي يتبعه: «إننا نعلم أين يوجد مستودع ذخيرتهم. يمكننا أن نأخذ منها ما نريد».

صاحت كلارك، تلحقه مهرولة: «لا! لا يمكنك. إنك تخاطر بكل شيء... وتعرض حياتنا للخطر أيضًا. عليك أن تدرك ذلك!».

عندما التفت إليها، وجدت عينيه جامدتين.

- الأمر الوحيد الذي أُدركه أنكم مجموعة من الجبناء، تخافون من فعل ما أقسمتم على فعله.

ألقى نظرة خاطفة على الآخرين، ثم حدجها بنظرة استنكار: «أم أن كلمة *أنانيين* هي الأدق؟».

حاولت قول شيء فلم تستطع. ضاقت أنفاسها، واندفعت الدماء تغلي بعروقها.

ابتعد بضع خطوات أخرى، وأومأ برأسه إلى لوك: «ألن تأتي؟».

نهض لوك على مضض، ونظر إلى كلارك، التي أشارت له، محركةً شفتيها: «*من فضلك*». فجلس ثانيةً.

قال بيلامي بلا مبالاة: «لا بأس. سأتولى الأمر بنفسي».

قال بول: «لا، لن تفعل. قف مكانك يا بيلامي».

صاح: «لستُ أحد جنودك. ولا أظنك نسيت أنني بيلامي بليك، عضو المجلس، أيها الضابط».

تفاقم شعور كلارك بخيبة الأمل.

- أهذا سبب حِدتك حقًا، يا بيلامي؟ أنك لا تحصل على الاحترام الذي تستحقه؟ أتريد أن تعرض حياة أصدقائنا للخطر، لإثبات ذلك فقط؟

امتقع وجهه، وحاول الرد عليها: «لا أريد إلا إنقاذهم. ليس لدينا أدنى فكرة عما يحدث لهم داخل هذا...»، أشار نحو الحصن، مضيفًا: «أشعر أنهم يُعذِّبون ويلز، أنهم يؤلِمون أوكتافيا. وأراكم تكتفون جميعًا بالجلوس والتفكير، دون فعل شيء».

نهضت جيسا سريعًا، وتقدمت للأمام قائلةً: «لست الوحيد الذي يساوره القلق على أحبائه. نحاول جميعنا إنجاح هذه المهمة، بكل طاقتنا. لا نملك غير هذه الفرصة، وعلينا أن نحسن استغلالها بقدر الإمكان».

قال بيلامي بإصرار: «أستطيع أن أحسن استغلالها. إذا طال انتظارنا، فسنتحرك بعد فوات الأوان. لذلك إليكم ما سيحدث. إذا كان أحدكم مستعدًّا لإنقاذ أصدقائنا، فليأتِ معي».

قال بول: «لا، آسف، يا بيلامي. أعرف فيما تفكر، ولذلك أقول لك إنه تصرف خاطئ. لن تذهب إلى أي مكان».

- وكيف ستوقفني بحق الجحيم؟

أخرج بول من جيبه زوجًا من الأصفاد. إنها نفسها التي ألفتها كلارك على السفينة، واستخدمها رودس لتقيدهم أمام فرقة الإعدام.

سألته، وقلبها يخفق بشدة: «لماذا تحملها معك؟».

نظر إليها: «تحسبًا لأي طارئ».

مدت ذراعها: «لا تكن سخيفًا. أعطِها لي».

هز بول رأسه عابسًا: «لدي معرفة جيدة بصديقكِ هذا، يا كلارك. دومًا ما تحدث الفوضى، أينما ذهب. رأيته يطلق النار على المستشار. إنه خطر يمشي على الأرض. لن أسمح له بالتسبب في مقتل أحد آخر».

تقدمت للأمام، لتقف بينه وبين بيلامي.

- ولن أتركك تقيده كذلك.

ومضت عينا بيلامي: «هذه ليست معضلة. سأذهب على أي حال. هيا بنا يا فيليكس».

صاح بول، ناظرًا برجاء إلى جيسا وكوبر وفال: «هذا خطأ جسيم. لقد رأيتم ما حدث آخر مرة استمعتم فيها إلى بيلامي. لقد صدَّقه شعبكم، وماتوا من أجل لا شيء. أستسمحون له بالرحيل، واستخدام تلك الذخيرة قبل اللجوء إلى خياراتنا المسالمة أولًا؟».

قال كوبر بصوت أجش: «إن بول على حق. يجب أن ننتظر».

تجاهله بيلامي وتابع السير. أومأ بول برأسه إلى كوبر، وفي لمح البصر، قبضا عليه، وطوقا ذراعيه خلف ظهره.

ركل بيلامي بكل قوته، صائحًا: «ابتعدا عني!».

اندفعت كلارك نحوهما، صارخة: «اتركاه! أنتما تؤذيانه!».

تعلقت بذراع بول، فدفعها بعيدًا عنه.

صاح لوك: «هذا جنون».

ثم أسرع يخلصه من قبضتيهما، قبل أن تقبض عليه فال، وتجذبه للخلف. لم يستطع مقاومتها. لا يزال ضعيفًا منذ إصابته، كما أنهكه المشي لمسافات طويلة.

قفز فيليكس فزعًا، إثر صراخها: «*افلتاه حالًا*».

وُضعت القيود حول يديه، وتمكن كوبر من السيطرة عليه، مما سمح لبول أن يتركه ليهتم بها.

- لا بأس يا كلارك. هذا حل مؤقت، ريثما يهدأ، ويتعقل. ثم سنتركه.

نظرت إليه، تريد إخباره أنها لا ترضى عما فعلوه به. لكنها لا تعرف هذا الشخص الذي ينظر إليها باحتقان شديد، ويرسل بموجة من الخوف، تجري بأوصالها. لا يجب أن يفلتوه، وهو على هذه الحالة. قد يقتل نفسه، ويُهلك الجميع معه، بما فيهم، ويلز وأوكتافيا. يجب أن يدرك هذا الأمر، حتى لو لم يغفر لها.

- إنني آسفة.

قالتها، وابتعدت، وحلقها يحترق بتلك الكلمات، وقلبها قد انكسر تحت وطأة الخجل من نفسها.

بدا بيلامي مصدومًا، ولم ينطق بكلمة، عندما جروه بالقرب منها. انتظرت أن تلتقي أعينهما، أن يولي لها نظرة لائمة. لكن لم يفعل. كما لو أنه لا يطيق رؤيتها.

الفصل الثامن عشر

بيلامي

مرت عدة ساعات ببطء مؤلم حتى غربت الشمس، وبيلامي يجلس في صمت مطبق. في غياب الضوء والنار الموقدة، احتاجت عيناه لبعض الوقت لتعتاد الظلمة. رأى طيور الليل، تنتفض بحثًا عن فريسة لها، والحشرات تحفر جحورًا لها في الأرض. ومن مسافة قريبة، شهد المسار الذي اتخذه الغزاة عبر الغابة بعرباتهم، يجرُّون معهم عائلته وأصدقاءه. لم يسبق أن حاصرته وِحدة شديدة كهذه طوال حياته.

لقد أُسنِد ظهره إلى إحدى العوارض المعدنية، التي تحتك ببشرته وتؤلمه. هدأت أنفاسه، بعدما انتهت موجته الأولى من الذعر المحض. توقفت يده عن الارتجاف، وجفَّ عرقه، لم يعد يشعر بقلبه على وشك الانفجار بين ضلوعه. رغم هذا، لا يظن أنه بخير، ولن يصير بخير بعد ما حدث.

أمال جذعه جانبًا، والأصفاد تكاد تقطع معصميه. إنها تؤلمه، إنما ليس أكثر من رؤيته لكلارك عاجزة عن فعل شيء، وبول، صديقها الجديد، يجذبه بعيدًا عنها.

كُسر غصن فتشنج ظهره. أحس بها تقترب قبل أن يراها. قالت بلطف: «بيلامي، هل أنت بخير؟ أحضرت لك بعض الطعام».

خطت إلى جواره بتردد، كأنها تقترب من حيوان جريح، ثم جلست القرفصاء، تميل إلى الأمام لتضع يدها على ذراعه. تراجع، ولوى ذراعه بقدر ما يستطيع، ليبعدها عنه.

- لا تلمسيني.

قالت، وقد تهدج صوتها، بينما ترفع يدها عنه، وتحدق إليه للحظات: «أردتُ فقط أن أزيل القيود، حتى تتمكن من تناول الطعام. إنني آسفة أن الأمور.. خرجت عن السيطرة اليوم».

كرر وراءها، والغضب عاد يضرب صدره: «خرجت عن السيطرة؟ لقد كنتِ هناك عندما قاد بول انقلابًا ضدي. لكن لا بأس. لقد فهمت. ترينه أكثر دعمًا لكِ وأكثر تحكمًا بنفسه، بالمقارنة بي».

عبس وجهها: «ما الذي تتحدث عنه؟».

قال متظاهرًا أنه يمعن التفكير، وتجعدت جبينه على نحو مبالغ فيه: «دعيني أفكر. في البداية، واعدتِ نجل المستشار، ولا ألومك على اختياره؛ من الجيد أن تتطلعي لأهداف عالية، بقدر استطاعتك. ولما جئنا إلى الأرض، لم يعد ويلز يثير اهتمام أحد، أليس كذلك؟ لم أكن مثيرًا للاهتمام كذلك، حتى شهدتِ مهاراتي في الصيد، لذا أعتقد أنكِ حصلتِ على صفقة رابحة، تجنبك الجوع للأبد. لا يمكنكِ قضاء بقية حياتك مع ولداني حقير مثلي. عندها، يظهر أمامكِ بول، الضابط المدرب، عذب اللسان، ذو المظهر الجذاب، لتدركي أنه حان وقت التطلع لمن هو أفضل».

فغرت فمها على اتساعه، محدِّقة في ذهول واشمئزاز. وبعد برهة طويلة، ضاقت عيناها وقالت: «أرأيت، لهذا السبب لا نريدك أن ترافقنا في المفاوضات، التي سنُجريها في الغد. لقد تركتَ غضبك يسيطر عليك، ثم جعلك تصدق قصصًا واهية. هذه مرحلة خطرة».

قال ساخرًا: «حقًّا؟ إذن أخبريني. ما هي خطتكِ من أجل الغد؟».

رفعت ذقنها باعتداد: «سأقترب من المدخل، وبيدي علم أبيض. لا نعرف إذا ما كانوا يألفون معنى هذه الإشارة. يستحق الأمر المحاولة على أي حال. ثم سأطلب التحدث إلى زعيمهم للتفاوض على شروط الإفراج عن الأسرى».

قيدت كلماتها الغضب بصدره.

- ماذا؟ لا، يا كلارك. لا يمكنك فعل ذلك. سيطلقون عليكِ النار قبل أن تتفوهي بكلمة واحدة.

عقدت ذراعيها: «إنه الخيار الوحيد أمامنا. ليس لدينا أسلحة كافية لشن هجوم استراتيجي في حال...».

قال بنبرة واهنة: «لقد أخبرتكِ! يمكننا استخدام أسلحتهم».

ذهب الألم والغضب، وحلت محلهما رهبة مميتة. لا يمكنه تركها تفعل ذلك.

- وأخبرتكَ كذلك، أننا لن نفجر أي جزء من هذا الهيكل، ما دمنا لا نعلم بمكان احتجازهم.

تهدج صوته: «أرجوكِ يا كلارك.. لا تفعلي ذلك. رغم أي شيء.. لا أريد أن أخسركِ أنت أيضًا...».

قالت برفق وعيناها تتوهجان: «متى ستفهم؟ لأنك تحب شخصًا ما، لا يمنحك هذا الحق بفعل أي شيء يخطر ببالك. كلنا خائفون، كلنا نتألم مثلك. إنما يجب علينا التصرف بحكمة».

أشعل هدوؤها المبالغ فيه الغضب بصدره من جديد. إنها تعامله كأحد مرضاها في قسم العلاج النفسي على متن السفينة. كما لو أنه يتوهم، ولا يستطيع رؤية الأمور على حقيقتها. مهما يفعل، دومًا ما تراه أحمق متهورًا يورط نفسه في المخاطر، ويزيد الأمور سوءًا. لن يسمح لها أن تجعله يشعر بالاشمئزاز والخجل من نفسه.

لوى شفتيه ساخرًا: «لقد مات الكثيرون، بينما تحاولين التصرف بحكمة. تمامًا، كما حدث مع ليلي».

يعرف أنه تجاوز حدوده بهذه الكلمات القليلة.

تراجعت لاهثة، كأن كلماته قد سحبت الهواء من صدرها. بح صوتها: «هل أنت جاد؟».

منذ عدة سنوات بالماضي، أُجبِر والداها، ليجريا تجارب إشعاعية على عدد من الصغار، كونها مبادرة من المجلس، لمعرفة إذا ما يمكن للحياة البشرية

أن تنجو على سطح الأرض. واختيرت ليلي، صديقة بيلامي السابقة، من بينهم. ورغم أنها استنفدت كل ما بوسعها فعله لإنقاذها، لم يكن ذلك كافيًا.

- أحاول التوضيح فقط، أنكِ لستِ أفضل من يحدد الطريقة المُثلى، عندما يتعلق الأمر بحياة أشخاص على المحك.

حدق إليها غير مصدق، أن هذه هي الفتاة نفسها، التي تركت وراءها المخيم الآمن، لتبحث معه عن أوكتافيا، عندما فُقدت. الفتاة التي وثقت به.. التي احتاجته بجوارها.. التي أحبته.

- إذن.. اذهبي. اذهبي وافعلي ما ترينه مناسبًا، وسأفعل ما أراه مناسبًا كذلك.

- حسنًا.

استدارت بغتةً، وذهبت دون كلمة أخرى.

ساد المخيم صمت تام. ارتجف جفناه قبل أن يغمض عينيه. يكاد يقسم إنه أحس بيد أوكتافيا الرقيقة تتشبث به، بينما يختبئان معًا داخل الكابينة في المستوطنة، وبذراعَي ويلز تلتفان حوله، ساعة معرفة أخويتهما للمرة الأولى، وبدفء كلارك على صدره، وهما يتأملان النجوم معًا. في الغد، كل هذا على وشك أن يُسلب منه، ما إن يشرعوا في تنفيذ خطتها الانتحارية.

الفصل التاسع عشر

جلاس

يُعد يوم الأمس أحد الأيام الطويلة، المتخمة بالأحداث، التي تجعلك تسهد طوال الليل، لتطوف فيما وراء الأحلام، وتُبقي جسدك في توق للمزيد من الحركة. في ظلمة حجرتها، ظل عقلها يتأرجح بين الذكريات، وأبى أن يهدأ لتنام بعمق.

بدأ اليوم، بإيقاظها بفظاظة، وجرها خارج مهجع الفتيات، لتصبح وصيفة سورين الجديدة. أما نهايته، فسار على وتيرة مختلفة تمامًا، حيث تناولت عشاءً لذيذًا مطهوًّا بالتوابل، بصحبة سورين ومساعداتها، واستمتعت بالثرثرة الدافئة والضحكات اللطيفة، التي امتلأت بها قاعة الطعام.

على مدار اليوم، زارت كل ركن بالحصن تقريبًا. شاركت سورين خططها الجديدة، لبدء الزراعة في عدة مساحات في محيط الجدران الخارجية. زارت النساء في غرفة فرز وتصنيف المؤن، أيها سيُحتفَظ به، وأيها سيُصهَر أو سيُتخلص منه. كما تمشت مع سورين لبعض الوقت بمحاذاة النهر، حيث علَّم بعض الحُماة الأصغر سنًّا بينهم صيد السمك. ثم زارا الثكنات، حتى تبارك القائدة الأعلى بعض المجندين على حسن تدربهم وتتمنى لهم التوفيق.

شعرت ببعض الراحة لعدم رؤيتها لأحد من أصدقائها هناك، فيما عدا ويلز، الذي لمحته في أثناء تجولهما بأحد الأروقة الخارجية. مما أصابها بذعر، لا تفهم سـببه حقًّا.

إنها تستمتع بوقتها. كما أن هناك حاجة لوجودها هنا، بطريقة لم تختبرها طوال المدة التي قضتها على الأرض، بل طوال حياتها. لقد رافقت سورين ليوم كامل، تناولها الماء عندما تعطش، تضع دثارًا على كتفيها حين تشعر بالبرد، تدون الملاحظات على قصاصات من الجلد، بعدما علِمَت سورين أنها يمكنها الكتابة. قضت جلاس أغلب الوقت، تستمع و.. تتعلم. لقد اندهشت من قدرة القائدة أن تظل قوية ومحبوبة، ولاحظت الفرق بينها وبين القادة الذين عرفتهم في المستوطنة. لم تستطع أن تمنع نفسها من تخيُّل أنه قد يقدسها أحد على هذا النحو، في يوم من الأيام.

إذا عادت إلى المخيم، هل ستتلقى نفس القدر من الاهتمام؟ ما المستقبل الذي ينتظرها هناك؟ كلما أدركت أفكارها تنجرف بهذا الاتجاه، يتراءى لها وجه لوك، وابتسامته الهادئة الدافئة، التي تستقبلها كل صباح. تذْكُر تجعيدة عينيه البُنيتين عندما يضحك، ونظرة الفزع والألم بهما، عندما صرخ بها لتركض.

ترقد في فراشها متعبة، ونصف مستيقظة، داخل حجرتها المرفقة بجناح سورين. عليها أن تبقى مستعدة لقائمة جديدة من الأوامر. فقد أخبرتها مارجو أن القائدة لا تتبع نظامًا ثابتًا للوقت، مما يعني أنها قد تطلب حضورها في أي لحظة. لذا عليها أن...

انتبهت لسماع صوت بالحجرة الكبرى. هل تُستدعَى؟ نظرت من نافذتها الصغيرة، فرأت السماء لا تزال داكنة. عندها سمعت أصواتًا خافتة أخرى. فنهضت بهدوء، وارتدت زيها الأبيض. لو استيقظت سورين أو إحدى عضوات مجلسها، فلا بد سيحتجن إليها.

بالكاد انتهت من تضفير شعرها، عندما سمعت اسمها على لسان إحدى المساعدات. أسرعت نحو الباب الذي يفصل الحجرتين، لكنها ترددت في فتحه. لديها حدس أنه يجب أن تتريث قليلًا، وتستمع.

قال صوت يشبه مارجو: «إذا لم تتحدث في ذلك اليوم...».

صمتت كل الأصوات، وسمعت سورين تقول: «نعم، اخترتُها من بين جميع المجندات. أعتقد أنها ستقدم معروفًا كبيرًا لنا، إذا انضمت إلى صفوفنا. لديها قابلية قوية، رغم أنها قد لا تصلح لاقتران متكافئ».

سألت مارجو: «لا تصلح؟».

كتمت جلاس أنفاسها، وانكمشت بركن الحجرة، حتى لا تُحدِث صوتًا، ثم مدت أذنها نحو الشق الرفيع بإطار الباب. *تزاوج متكافئ؟ ما الذي يعنيه ذلك؟*

قالت سورين بارتياح: «أشعر أن لديها ارتباطًا قويًّا بأحدٍ ما. إنها تحبه، ولا تزال متعلقة به. لذلك فهي لن تهتم بأحد الرجال هنا، إنما يمكنها أن تفتح قلبها للأرض، من أجلنا. يجب علينا أن نراعي هذا الأمر فيما يتعلق بتزويجها».

وضعت جلاس يدها على صدرها. كيف عرفت *سورين؟*

هناك جلبة بالطرف الآخر، كأن الأخريات ينهضن عن مقاعدهن.

قالت سورين: «على أي حال، بصرف النظر عن أمر صديقتنا الجديدة، ستظل باقي الرتب على ما هي عليه. سننتهي يوم غد من طقوس الاقتران، لنأمل أن تثمر الطقوس في أقرب وقت ممكن، إذا أرادت الأرض».

رددن: «إذا أرادت الأرض».

تعتقد جلاس أنها سمعت أربع أو خمس نساء، بالإضافة للقائدة نفسها، ولم تطلب إحداهن حضورها حتى الآن. ربما من المفترض ألا تستمع لهذا الكلام. قبل أن تسرح بأفكارها، أسرعت تغير بثوبها، رداء النوم. ما إن عادت بهدوء تحت الغطاء، وأغمضت عينيها، سمعت صرير الباب يُفتح، ونادتها دارا: «جلاس؟ نحتاج إليكِ».

نهضت ببطء متظاهرةً بالترنح.

- آسفة. هل أطلتُ النوم؟

ابتسمت دارا متعاطفة معها: «ستعتادين ذلك. خذي وقتك، سنكون بانتظاركِ، عندما تجهزين».

هذه المرة، تمهلت في ارتداء ملابسها. وخرجت من حجرتها، وهي تمد ذراعيها، وتشد قامتها، على أمل أن يفسرن توهج وجنتيها على أنه أثر النوم، لا الفزع.

قالت: «آسفة لأنني لم أستيقظ على الفور. إنني على أتم الاستعداد الآن».

رأت ست نساء في زيٍّ رماديٍّ، يتجمعن حول سورين، التي تجلس بجوار المدفأة على بساط سميك من الصوف. التفتت سورين إليها مبتسمة في لطف، وربتت على بقعة شاغرة إلى جوارها: «تعالي واجلسي».

أطاعتها جلاس، وجلست بالمساحة التي خصصتها لها.

سألت القائدة الأعلى بسرور: «هل حصلتِ على قسط جيد من الراحة؟».

أجبرت نفسها على الابتسام.

- نعم، أشكرك.

- يسعدني سماع ذلك. هناك بعض الأمور المثيرة التي أتمنى أن تشاركي بها. نحن نجهز لحفل الاقتران القادم، أحد طقوسنا المقدسة.

ليس عليها التظاهر، بالتساؤل في اهتمام.

- ماذا يعني هذا الطقس؟

- حسنًا. قبل أي شيء، دعيني أحدثك قليلًا عن تاريخ شعبنا. هل أحكي لكِ قصة؟

أومأت لها.

- لقد اتخذ الحُماة الأوائل ملجأً لهم في أقصى الغرب، حيث الجبال الشاهقة والطبيعة البرية القاسية التي تفوق ما نشهده هنا.

بدأت تحكي بنبرة شديدة التناغم، كما لو أنها سردت هذه القصة لمئات المرات من قبل. فانتاب جلاس شعور بالنعاس والاسترخاء، تزايد مع كل كلمة.

في نغمة أكثر غموضًا، وبشفتين مقوستين من الأسى، تابعت: «لقد عاشوا تحت الأرض لبعض الوقت، ريثما تداوي الأرض نفسها. بينما ليس لديهم ما يكفيهم من الموارد للعيش مدة طويلة. فاضطروا إلى الخروج مبكرًا. وجدوا الهواء مسممًا، والماء معكرًا. مكثوا لبضعة أيام على السطح، حتى أدركوا مدى سوء الأوضاع. إنهم بحاجة ماسَّة للاحتماء بالأرض. لكن أين يذهبون وماذا يفعلون؟ ما إن دبَّ بقلوبهم اليأس، أرسلت لهم الأرض إشارة.. شعاعًا من الضوء يقود نحو الشرق. لم يمر عليهم زمن طويل حتى عثروا عليها».

تلهفت جلاس سائلة: «عثروا على ماذا؟».

قالت سورين مبتسمة: «على عطية الأرض، على باب لملجأ جديد. استطاعوا فتحه بسهولة، بعدما تآكل قفله بفعل الهواء نفسه الذي أصابهم بالمرض. عثروا هناك على طعام وماء، يسد احتياجاتهم لخمسين عامًا».

لم تستطع مقاومة رغبتها في التساؤل بتحدٍّ: «هل عاش أحد بهذا المخبأ قبل وصولهم؟».

أومأت سورين بجدية: «نعم. انبهر بعضهم لدى معرفة قصة نجاة الحُماة. لذلك ضُمَّ هؤلاء الأصدقاء الجدد تحت لوائهم، كونهم خدمًا مخلصين. أما البعض الآخر ممن رفضوا وجود شعب غريب بالملجأ، وأرادوا عودتهم للعراء مجددًا، حيث الموت المحقق، حينها وجب ترويضهم».

لقد حدثت هذه القصة منذ أجيال بالماضي، ورغم ذلك، استشعرت بعض الندم في صوت سورين، كما لو أنها من اتخذت هذا القرار. لا بد أن سرد هذه التفاصيل، يثقل إحساسها بالدور المُلقى على كاهلها، إنه الرداء الثقيل للقائدة الأعلى، الذي يُتَوارَث لعدة أجيال.

استطردت بنبرة تحمل بعض الابتهاج: «بمجرد أن انضم إليهم الأتباع الجدد، عاشوا في الملجأ حياة مسالمة ومتزنة، بلا انقسامات، ولا نزاعات. منذ وقتها، استمر الحال على هذا المنوال الهادئ.. بالنسبة إلى المصدقين. عندما انهار مجتمع العالم القديم، تجزأ إلى جماعات متطرفة ومتعسفة، تتنازع فيما بينها: نحن وأنتم، لون بشرتي مقابل لون بشرتك، عائلتي وعائلتك».

لوحت بيدها في الهواء، وقد ومضت عيناها. ثم أضافت: «لقد قضينا على كل ذلك. لم تعد هناك عائلات، بل عائلتنا فقط. بصفتنا الحاميات، فنحن أمهات لجميع أفراد شعبنا. لذلك في كل مرة ترسل لنا الأرض إشارة لنعرف موطننا الجديد، نؤدي طقس الاقتران، ونرحب رسميًّا بأعضائنا الجدد في عائلة الحُماة».

على الرغم من شعورها أن سورين تتعمد إخفاء شيء عنها، قالت: «أعتقد.. أنني فهمت ذلك».

لقد أخبرَتها عن تاريخهم، إلا أن هذه القصة لا تكفي، لتستوعب قصدها بطقس الاقتران تحديدًا.

التفتت القائدة نحو النساء الأخريات، اللاتي قد ارتفعت حواجبهن في انبهار شديد.

- أترين، هذا ما قصدته بالقابلية؟

نظرت إليها مرة أخرى، وضغطت على يديها: «أعتقد أنه سيصير لكِ شأن بالغ الأهمية في مجتمعنا. كم يسعدني الترحيب بكِ رسميًّا في حفل الاقتران. سيعجبكِ الأمر، صحيح؟».

أومأت جلاس في تهذيب، رغم أن رأسها يدور. مهما كان الأمر الذي تخفيه سورين عنها، لديها شعور سيئ حياله. عليها أن تُحذِّر أوكتافيا وآنا والأخريات، وتصل إلى ويلز بطريقةٍ ما، وتخبره، أن الوقت قد حان. يجب أن تجد طريقة للهروب من هنا، بأي ثمن.

الفصل العشرون

ويلز

في الصباح الباكر، اصطف مع المجندين، وقد شدَّ كلٌّ منهم قامته، ورفع ذقنه في اعتداد، وحافظ على ابتسامة جامدة، بينما يمر عليهم الحراس ذهابًا وإيابًا.

لا يزال إريك وجراهام وكيت ملتزمين بالخطة، وكذلك، المجندون السبعة الآخرون من مخيمهم. بينما صار باقي المجندين من المصدقين، على حد علم ويلز. إنهم أرضيون، لكن ليسوا من قرية ماكس، ولا حتى من الفصيل الأرضي المنشق. مما جعل رأسه يدور، مفكرًا في عدد المجتمعات الخفية التي.. استطاع شعبها النجاة رغم دمار الأرض. بعد أن يخرج من هنا، سيبحث في أمر هذه المجتمعات الصامدة.

تقدم أوك للأمام ليلقي كلمة عليهم. هناك، على ما يبدو، تغيير جديد في رتب الحُماة. لديه حدس أنهم ينوون اختيار أحدهم لينال ترقية اليوم، خاصة وأوك يقف على مقربة منه.

قال أوك صائحًا: «اليوم، لدينا أمر مختلف لنفعله. سيغادر بعضكم حصن النواة ليلبي نداء الأرض».

استدار أوك، وابتعد قليلًا، ليتناول شيئًا من أحد الحراس. قبل أن يطرف له جفن، وقف أمام ويلز، حاملًا بندقية. لمح في عينيه حدة غريبة. عرف، حتى قبل أن يأخذها منه، أنها محشوة بالرصاص.

مع أول لمسة للمعدن البارد، تسارعت دقات قلبه، حتى يكاد يقسم إن كل من حوله يستطيع سماع نبضاته. أومأ بحزم، واعتدل حاملًا البندقية على صدره، كما تدرب، بينما تابع أوك التقدم إلى عددٍ من المجندين لتسليحهم أيضًا.

توقف أوك عند جراهام، على بُعد ثلاثة مجندين من ويلز، ثم تمهل لبرهة، وقد ضاقت عيناه وهو يسلمه السلاح. أومأ جراهام، وتراجع أوك، مشيرًا لباقي المجندين، الذين لم يُسلَّحوا، بمن فيهم إريك وكيت.

- سيستكمل بقيتكم، تحت قيادتي، بعض التدريبات المستهدفة. أما الآن، تمنوا التوفيق لإخوانكم في مهمتهم اليوم.

رددوا معًا: «ليكن الحظ حليفكم، إذا أرادت الأرض».

أدرك ويلز ما الذي يجري بتركيز وببطء. إنه ذاهب في مهمة. سيغادر هذا الحصن. يحمل بين يديه بندقية محشوة. التفت نحو جراهام، الذي أدرك الأمر نفسه. لمح قطرة من العرق تتدحرج على جبينه، رغم برودة الهواء.

ارتجفت إصبعه على الزناد، وعيناه تتوسلان ويلز، الذي هز رأسه. لم يحن الوقت المناسب بعد، كما أن أصدقاءهم لن يخرجوا معهم. قبل أن يحرك ويلز شفتيه *ليس اليوم*، تقدم حارس آخر من الحُماة، عيناه ضاربتان إلى زرقة مخيفة، وبدأ في إعطاء الأوامر.

قال عاقدًا ذراعيه: «سأقود حملة اليوم. الخطة في غاية البساطة. ندخل ونخرج. لا نتوقع أي مقاومة اليوم. سنتجه إلى موقع مزرعة، اكتشفناها بالقرب من هنا، لتخزين المزيد من الطعام قبل فصل الشتاء. لا نحتاج أكثر من ساعة للوصول، وساعة لجمع ما نريد، وساعة للعودة. أي أسئلة؟».

موقع مزرعة؟ لا يستطيع استيعاب حقيقة أن هناك أناسًا آخرين على الأرض -شعوب أخرى لديها مزارع- بالقرب من مخيمهم.

رغم أنه يعرف ضرورة أن يغلق فمه تمامًا، يرى الفرصة سانحة أمامه. يمكنه أن يسأل، سؤالًا واحدًا كبيرًا. رفع يده بسرعة، فأومأ له الحارس ذو العينين الزرقاوين: «نعم؟».

- كيف يمكنك التأكد من عدم مواجهتنا لأي مقاومة؟

طرف الحارس بعينيه: «لا يمكننا التأكد من أي شيء. حتى هذه اللحظة، المزرعة غير مأهولة. لذلك لا نتوقع وجود أي شخص هناك لمواجهتنا».

تساءل في نفسه: *كيف عرفوا ذلك؟*

أومأ برأسه للحارس، واحتفظ بهذا السؤال لنفسه، بينما يحملون البنادق على أكتافهم، ويتقدمون نحو ممر انتظار العربات. صعدوا بإحداها، وجلسوا على مقاعد الحراس، غير مقيدين، كتلك المرة.

أدرك الأمر: *لا بد أنهم تجسسوا على هذه المزرعة، كما فعلوا بمخيمنا قبل نهب مؤننا واختطافنا.*

إذا اقتصر الأمر على المؤن، لماذا لم يدخل الحُماة المخيم ويكتفوا بأخذ ما يحتاجونه من الطعام، وينصرفوا؟ لا بد أن هناك نية كامنة أخرى.

تأرجحت العربة على طول الطريق الترابي، المحفوف بالأنقاض. تطلع ويلز للخارج من خلال النافذة العالية، في محاولة لمعرفة الاتجاهات. تأتيه شمس الصباح من خلفه، فلا بد أنهم يتجهون شمالًا.

ألقى نظرة خاطفة على جراهام بقلق. لو أنهم توجهوا إلى الغرب، بدلًا من هذه المنطقة المجهولة، ربما يفقد جراهام أعصابه، ويهاجمهم. ربما قد أفقد أعصابي أيضًا.

إذا سعوا وراء انتقامهم، ستعد هذه مخاطرة كبيرة، كما لا يمكنهم ترك إريك وكيت، وجلاس وأوكتافيا، والآخرين. لن يحل العنف الأمر.

لم تكد تمر ساعة منذ انطلاقهم، حتى انعطفوا إلى وادٍ منخفض، وتوقفوا هناك. عندما ترجلوا، داعب أنفه نسيم الخريف البارد، الممزوج برائحة حطب يحترق.. أو شيء أسوأ.

ما إن استدار حول العربة ليلقي نظره على ساحة المزرعة أمامه، جف حلقه. إذن، لهذا السبب يطلقون عليها *موقع المزرعة*، بدلًا من *المزرعة*. هذا ليس أحد مصطلحات الحُماة الغريبة، بل إنه وصف دقيق. ففي هذه المنطقة، عثروا على مزرعة، قد باتت، على يديهم، مجرد أرض محروقة، يتوسطها كومة من حطام منزل كبير.

دقق النظر في الجانب الآخر من الموقع، وشعر باشمئزاز شديد، تشنجت له معدته. تبعثرت التربة على بعضها بعضًا، وشكلت تلًّا واسعًا غير منتظم. لم يحتج لسؤال أحدهم عما تستره هذه الكومة. فالإجابة تكمن في لطخات الدم على بقايا العشب من حوله. إنها مقبرة جماعية.

يعرفون أنه لن يواجههم أحد هنا، لأنهم تأكدوا من ذلك بأنفسهم.

قفز فزعًا، عند سماع الحارس من خلفه، يقول بنبرة مخيفة خافتة: «اضطررنا أن ننتظر حتى تخمد النار، ثم نتابع البحث».

أشار نحو كومة حطام لبناءٍ ما، خلف ويلز، واستطرد: «يوجد قبو هناك، لا بد أنه محميٌّ جيدًا. اجمع كل ما لم تطُله النار، وحمِّله على العربة».

واجهته صعوبة في قول: *عُلِم يا سيدي*، رغم أنها لم تُطلَب منه، وابتعد الحارس ليلقي أوامره على الآخرين، حتى يشرعوا بالبحث بين أنقاض المزرعة.

كلما اقترب من الحطام، تزداد رعشة يده. يتساءل عما إذا كان هذا اختبار لهم. هل تعمَّد الحُماة إحضار المجندين إلى هنا لتذكيرهم بما فعلوه بديارهم؟ هل هذا يشبه حال المخيم، هل دُمِّر بالكامل، ودُفِنَ شعبه تحت كومة من الرماد؟

تقدم جراهام إلى جواره، وفكه متشنج بشدة. نظر بتجهم إلى ويلز، الذي لم يستطع أن يومئ له أو يهز شعرة بجسده. سارا متجاورَين نحو منتصف المزرعة، مشددَين قبضتهما على السلاح، يتفاديان الأنقاض والعوارض المتفحمة. ومن خلفهما، حيث العربة، يقف حارسان يراقبان من كثب.

هرول أحد المجندين الآخرين متعجلًا نحو الحطام، ثم صرخ حين اخترقت ساقه الأرضية الهشة. أسرع ويلز وجذب الفتى لأعلى. لم يقل له شيئًا، وآثر النظر بعينيه مباشرة، مربتًا على كتفه. إنه أحد المجندين الذين رآهم عند وصوله. ليست لديه فكرة عن اسمه، ومن أين جاء، أو كيف يشعر حيال كل ما يحدث، إلا إنه يبدو في هذه اللحظة خائفًا ومرتعبًا للغاية.

همس له الفتى، قابضًا على بندقيته بيدين متعرقتين: «أشكرك».

أومأ له وابتعد لينضم إلى جراهام، الذي يشير ببندقيته للأسفل، قائلًا: «إنه هنا».

وجد غطاءً معدنيًّا صدئًا تحت أرضية المنزل المنكوب. بعد فتحه، ظهر درج أسمنتي، لا يزال صامدًا. همس ويلز، بينما ينزل الدرج، ويتبعه جراهام: «دعنا ننتهي من هذا الأمر».

خلال الضوء المغبر المتسرب من أعلى، رأى أرففًا مكدسة بعلب، لا تُظهِر محتواها، وحبالًا متشابكة معلقة بالسقف، تحمل أكوامًا من البطاطس واللفت وخضراوات جذرية أخرى. من الزاوية البعيدة، شم رائحة مالحة، على الأرجح، توجد لحوم وأسماك محفوظة من أجل الشتاء القادم.

عندما اقترب من الأرفف، لينتهي من تحميل المؤن، ويتركوا هذا المكان بأسرع وقت ممكن، لمست قدمه شيئًا ناعمًا. مد يده، وانحنى ليرى، لكن سبقه جراهام، وسحب هذا الشيء. سكنت حركتهما، وحدَّقا إليه بصمت. إنه دب دمية، مصنوع من قطع قماشية، وفمه المخيط به غرزة عميقة.

لقد عاش طفلٌ هنا.

نظرا إلى بعضهما بعضًا، واتقدت عينا جراهام بالغضب. أسقط الدمية على الأرض. ثم استدار صاعدًا الدرج، منتزعًا بندقيته، وأدارها أفقيًّا في وضع الإطلاق.

توقف عن التفكير، إلا بأمر واحد، يجب عليه حماية جراهام. أخذ نفسًا حادًّا، وأسرع يتبعه. صرخ به: «جراهام، لا!».

فات الأوان. ركض جراهام للخارج، صائحًا بلا كلمات بصوت أجش. ترددت صدى صيحاته في أرجاء الوادي. سُمع دوي طلق حي، وارتد جراهام للوراء. حدق ويلز إلى اتجاه الحارسَين، اللذين وضعا أيديهما فوق رأسيهما، فأمسك ببندقيته، يتساءل مرتعبًا عن الهدف الذي عليه ضربه. إذا أصاب جراهام أحدهما بالفعل، فلن يترك الآخر...

أطلق جراهام النار مجددًا، لتضرب جانب العربة، حيث لمح ويلز ثقب الرصاصة الأولى. لقد أخطأ الهدف لمرتين. ركض الحُماة باتجاهه، وآثر أحدهم أن يتخذ طريقًا متعرجًا، ليجذب انتباه جراهام، بينما دار الآخرون

حوله، وقبضوا عليه من الخلف، وأسقطوه أرضًا. جردوه من سلاحه، وغرسوا شيئًا ما بظهره. إنه العقار المهدئ نفسه الذي غرسوه بعروقنا لحظة اختطافنا. بهذه اللحظة، أدرك ويلز أن البندقية التي بين يديه عديمة الفائدة.

صاح الحارس ذو العينين الزرقاوين، بنبرة جافة، خالية من المشاعر: «ضعوه بالعربة»، ثم وجَّه فوهة بندقيته نحو ويلز والآخرين، «ألقوا أسلحتكم، جميعًا».

ترك بندقيته تسقط من يده، لتضرب سطح الأرض المحروقة، ثم شاهدها تُرفَع بين يدَي أحد غيره، وتتساقط عنها ذرات التراب. التفت بجانب عينه، ورأى الأسيرَين الآخرَين، وقد حذوَا حذوه.

قال الحارس، مشيرًا لما وراءهم: «حسنًا، انتهوا سريعًا لنذهب».

استدار ويلز مصدومًا، وطرفت عيناه بحدة، بينما يهرول عائدًا للقبو، كما أمرهم. إن هؤلاء الحُماة، يتصرفون بلا مبالاة، كأنهم اعتادوا هذا الموقف. ربما ليست هذه هي المرة الأولى، وتوقعوا أن أحدًا من المجندين سينهار بالفعل.

كزَّ على أسنانه بشدة حتى تألم فكه، وهو يدفع بالطعام إلى العربة. عندما حُمِّل كل شيء، جلس والأسيران الآخران في أماكنهم على المقعد بجانب الحراس. تمدد جراهام على الأرض فاقد الوعي، بينما توسَّد أحد الحراس كتفه المتخدرة ليريح قدميه طوال طريق العودة إلى حصن النواة.

عندما ترجلوا بالفناء الأمامي، رفع الحارس ذو العينين الزرقاوين يده ليوقف ويلز: «جُرْ صديقك إلى جحور الحجز».

أجاب: «بكل سرور. لكنه ليس صديقي».

أجبر نفسه على الرد بكلمات، شعر أن مذاقها كالسم في فمه، أما الحارس فابتسم في رضا. أخذ نفسًا، وحمل جراهام بين ذراعيه.

سأله الحارس ببرود ساخرًا: «هل قلتُ لكَ أن تحمله؟ لقد طلبت منك أن تجره».

تبعه الحارس ببطء، رافعًا بندقيته، وضغط بفوهتها بين كتفَي ويلز. شعر بالغضب ينبض بعروقه، وكأن بداخله بركانًا على وشك الانفجار في أي لحظة، ومع ذلك، يطغى خوفه على أي شعور آخر. مجرد ضغطة واحدة على

هذا الزناد، تعني أنه لن يقدر على مساعدة جراهام أو أوكتافيا أو جلاس، أو أي أحد للأبد.

- عُلِم يا سيدي.

وضع جراهام على الأرض برفق، ثم بدأ بجرِّه، بينما لم تتزحزح فوهة البندقية عن ظهره، وأخذ الحارس يدفعه للأمام خطوة خطوة، نحو ساحة الحصن.

ليس هناك وقت مثالي يستحق الانتظار، ولا فرصة مثالية لهزيمتهم. يجب عليهم الخروج من هنا بأي طريقة. في أقرب فرصة ممكنة. *إذا صارت لديهم فرصة.*

رفع رأسه وألقى نظرة اشتياق نحو السماء الرحبة، وهو يجرُّ جراهام خلفه، حتى ابتلعتهما الجدران الضخمة مرة أخرى.

الفصل الحادي والعشرون

كلارك

ليس هناك ما يمكنها فعله من أجل الاستعداد. لا تحتاج لسلاح بالطبع، وليس بحوزتها أي شيء تقايض به، أو هدية لتقدمها لهم كونها مبادرة حسنة. ومضت بعقلها وجوه الرجال مرتدو الأبيض، وتعبيراتهم الجامدة، فيما يتجولون بالمخيم على نحوٍ مدروس، متجاهلين صياح وصراخ مصابي الانفجارات. لا، لا يبدو أن هؤلاء الأشخاص من النوع الذي يمكن أن تستميلهم الهدايا، لكن يمكنهم الاستجابة لطلب قوي وشجاع.

تحركت ذهابًا وإيابًا في توتر شديد، تتلمس الجذوع الخشنة للأشجار، فيما تحاول تصوُّر نفسها، تقترب مرفوعة الرأس من المدخل الخرساني لهذا الهيكل. عليها أن تبدو أمامهم متحدثة باسم قوى مساوية لهم، وليست إحدى ضحاياهم. تتخيل أن ويلز يراقبها من الداخل، ولذا عليها أن تجعله فخورًا بها.

ربما يستمعون إليها ويطلقون سراح أصدقائها على الفور. يمكنها تخيُّل وجه بيلامي، عندما يرى أوكتافيا، فيسقط تعبيره الجامد، ويحل محله البهجة والاطمئنان. وبعدما يعانق أخته، ينظر إليها بامتنان على ما فعلته من أجله.

كُسِر فرع خلفها، فاستدارت لتجد بول يتجه نحوها. قالت، وهي تشد كتفيها: «إنني مستعدة. أعتقد أنني يجب أن أخرج الآن».

قال بمرح، كأنهم يخططون للسباحة في البحيرة، وليست مهمة إنقاذ شديدة الخطورة: «إن هناك تغييرًا بسيطًا في الخطة. سيذهب كوبر بدلًا منكِ، وستراقبه فال للتأكد من أن الأمور تسير وفقًا لما خططنا له، ولن تعود قبل أن يدخل الحصن بأمان. من المنطقي أن يتفاوض أحد الأرضيين، فلديهم على الأرجح أمور مشتركة. وهكذا نتجنب القلق من احتمال العداء تجاه الشعب الذي هبط من السماء».

- ماذا؟ تغيير بالخطة؟ متى نُوقِش هذا؟

مدت رأسها، بحثًا عن علامات لأي اجتماع فُضَّ للتو.

قال بول واضعًا يده على كتفها، وناظرًا بعينيها: «إنه قراري. لا أريدكِ أن تظني أنني لست واثقًا بكِ، لأنه غير صحيح. أتمنى أن تعرفي كم نقدركِ جميعًا».

تحول توترها إلى غضب، فاتخذت خطوة جانبية، دافعةً يده بعيدًا: «قرارك؟ لم يخترك أحد لتتولى زمام الأمور، يا بول».

ضحك متهكمًا وهز رأسه: «القيادة لا تُكلَّفين بها، بل تُكتسب، يا كلارك. إنها هدية يجب أن تُقبَل ممن يتبعونكِ عن تراضٍ. أعتقد أنه أصبح واضحًا للجميع مَن يستحق الثقة به. إن كوبر وفال وفيليكس وجيسا، يعتمدون عليَّ لإنجاح هذه الخطة، لذلك أجريتُ بعض التغييرات. كما أننا بحاجة إليكِ هنا، في حالة أُصيب أيٌّ منا».

حدَّقت إليه لبرهة، تحاول استيعاب مغزى كلامه، فيما وراء ابتسامته المتألقة بشكل مبالغ فيه. قالت ببطء، لتحافظ على هدوئها ريثما تتبين الوضع: «إذن، سأنتظر معكم. عليَّ فقط أن أتمنى التوفيق لكوبر وفال قبل أن يغادرا».

- لقد غادرا بالفعل! كل ما علينا فعله هو أن نأمل أن تجري الأمور على نحوٍ أفضل مما نتمنى.

***

توترت أعصابهم خلال الساعتين التاليتين، فيما يتناوبون حراسة معسكرهم المؤقت. عندما حان دور فيليكس، أحضرت إليه بعضًا من التوت الذي وجدته بالغابة.

قال بابتسامة واهنة: «أشكركِ، لا يمكنني تناول أي طعام الآن».

- إنه أمر غريب، أليس كذلك؟ أن نعرف مدى قربنا منهم في هذه اللحظة؟ أتساءل إذا ما يتوقعون مجيئنا.

أشاح بوجهه بعيدًا، وهو يعض على طرف شفته: «أتمنى ذلك. لا أتحمل فكرة أنه خائف، أو يتألم، أو...».

لم يكمل كلامه، فيما قالت له بحزم: «لم يسبق أن رأيتُ إريك خائفًا. أراهن أنه يواجه الموقف بقوة وشجاعة، تمامًا كما يفعل دائمًا».

عندما التفت باتجاهها، رأت الدموع تتلألأ بعينيه، قبل أن يجففها بظهر يده.

- إنني واثق من ذلك. آمل فقط أن يعلم أننا لن نستسلم حتى نحررهم.

نظرت من وراء ظهرها نحو المعسكر، حيث لا يزال بيلامي مقيدًا بالعارض المعدني. ثم قالت: «بالتأكيد يعرف ذلك، فهذا ليس من شيمنا».

دارت حول المعسكر، حتى لا يشعر بها أحد. فهي لا تحتاج غير إلقاء نظرة خاطفة على بيلامي.. أو أطول قليلًا حتى تطمئن أنه بخير، أو ربما أقصر ما يمكن، لتتجنب الإحساس الذي يمزق قلبها، ويكاد يطعنه بسكين حاد، كلما فكرت فيه.

توقعت أن تجده نائمًا أو يحدق في شرود تام إلى قمم الأشجار، بينما تحرسه جيسا من مسافة قريبة، كما رأته منذ نحو ساعة، في آخر مرة تسللت لتطمئن عليه. إنما هذه المرة، جلست الفتاة على مسافة قليلة منه، متقاربَي الرأس، كما لو يتهامسان.

ما إن بدأت بالابتعاد، تعثرت في شيءٍ ما. ليس هناك داعٍ للقلق. مع ذلك، يظل هذا المشهد الحميمي غريبًا، حتى إن معدتها تقلصت، نتيجة شعورها أنها جُرحت وخِينت. وكأن لها حقًّا في شعورها هذا، بعدما تسببت بإيذائه.

لمحتها جيسا، فأسرعت تداري قلقها، متظاهرةً بتعبير محايد على وجهها. لولا أنها تفعل ذلك لمصلحته، لما اهتمت بعدم فضح شعورها. التفت بيلامي بالاتجاه الآخر، دون أن يلقي عليها نظرة واحدة. نهضت الفتاة، فيما تقدمت كلارك بضع خطوات.

سألتها جيسا بجفاء: «هل عادت فال؟».

ابتلعت ريقها لتتغلب على شعورها، قبل أن تجيب: «ليس بعد. نأمل أن تعود قريبًا».

قالت جيسا بصوتٍ عالٍ، جعله يلتفت إليهما: «وإذا لم ترجع، إذا لم يرجع أيٌّ منهما، ماذا سنفعل؟ هل سنتبع خطة بيلامي؟».

تمايلت كلارك من جانبٍ إلى آخر، وقد اجتاحتها حرارة شديدة.

- لستُ.. لستُ متأكدة...

قاطعتها جيسا، مشيرةً نحو الشرق: «لأنني تعبتُ من المكوث هنا، وعدم فعل شيء، بينما أخي محتجز بالداخل. لا أعرف إذا ما يزال على قيد الحياة، أم لا. كل ما أعرفه أنه كلما طال انتظارنا، أتخيل الاحتمال الأسوأ».

أردفت بهدوء: «أتفهَّم ذلك».

التقت عيناها عينَي جيسا الداكنتين.

- حقًّا؟ إذن، ما هي خطتنا البديلة؟ ماذا سنفعل الليلة، إذا فشلت المفاوضات؟

التفت بيلامي محدقًا في جمود، كما لو أنه فقد اهتمامه بها.

تردد صدى صوت بول عاليًا، مما جعل الطيور القريبة، تترك أغصانها: «لقد عادت!».

خفق قلبها بالأمل، ووضعت انزعاجها منه جانبًا، ما دام يحمل صوته بعض السرور. ركضت نحو مركز المعسكر، فيما تأهبت جيسا لتتبعها. لم تبتعدا أكثر من بضع خطوات، لدى مرأى بول، يجري لاهثًا باتجاههما، وفي إثره فال.

قال بول فرحًا: «أخبريها!».

قالت فال بين أنفاسها المتقطعة، وعلى وجهها شبح ابتسامة: «لقد فعل.. كوبر.. مثلما خططنا.. تقدم من المدخل.. وخرجوا مسلحين...».

انتظرتها حتى تلتقط أنفاسها، بنفاد صبر.

- عندما رأوا أنه أعزل.. خفضوا أسلحتهم.

زفرت كلارك بارتياح.

نظرت فال إلى بول، وأضافت: «لم أقترب بما يكفي لسماع ما قالوا، لكنهم استمعوا له، وفتحوا له الباب، واصطحبوه للداخل بلا أصفاد، ولا عنف. إن الأمور تسير على خير ما يرام حتى الآن. أعتقد أنه علينا أن ننتظر حتى يأتينا ردهم».

شعرت براحة كبيرة تسري بجسدها. وقبل أن تتمكن من التقاط أنفاسها، وإيجاد الكلمات المناسبة لتشكر فال، اندفع بول وعانقها، مطوقًا ذراعيه حولها، حتى إنه رفعها عن الأرض.

همس بأذنها: «إن خطتنا تعمل جيدًا. سنعيدهم جميعًا».

ثم طبع قبلة على وجنتها، ثم استدار ليربت على ظهر فال، ويقودها نحو مركز المعسكر.

مسحت كلارك خدها، وقاومت القشعريرة التي تعتقد أنها بسبب توترها، أو ربما لسبب لا تعلمه. قالت لنفسها: *إنه رجل متحمس جدًّا، ولا بد أنه فعل ذلك تأثرًا بنجاح خطتهم.*

شعرت بعينين تراقبانها، فاستدارت لتجد بيلامي محدقًا إليها، وعلى وجهه تعبير غامض. عاد قلبها يتمزق، وشعرت بوخز مؤلم بين ضلوعها، قد يجعلها تنهار، إذا سمحت لنفسها.. ولن تسمح. طرفت بعينيها ردًّا عليه، ورفعت ذقنها، ثم ابتعدت.

الفصل الثاني والعشرون

بيلامي

يتألم جسده كما لو ضربته شظايا زجاجية. تؤلمه ذراعاه، ومعصماه، وظهره الملتصق بالعارضة المعدنية. مع ذلك، لا يمكن مقارنة هذا الألم، بالشعور الذي يعتصره، منذ أن رأى كلارك تولِّي له ظهرها، وتنصرف.

ظل بيلامي منتبهًا إلى بول طوال هذا الوقت. إنه يتظاهر بدور العضو المبتهج بالفريق، إلا إنه ثعبان لعوب، يلتهم كلارك بعينيه.

قال في نفسه: يجب *عليَّ أن أحذرها منه. ثم تذكر أنه لم يعد مسؤولًا عن حمايتها. لقد أوضحت له هذا الأمر جيدًا من قبل.*

ودَّ أن يتأملها وهي تبتعد عنه، لكنه أجبر عينيه أن تلتفتا تجاه الغابة، وفتحهما على اتساعهما، مما جعل ألمه أكثر عمقًا وحِدَّةً. انسحبت عواطفه، وصار للواقع الصادم الكلمة العليا.

التفت عند انتباهه لحركةٍ ما بين الأشجار. توتر، ثم زفر بارتياح. ظهر لوك من وراء شجرة رافعًا يده لتحيته. أومأ له بيلامي، ثم نظر إلى جيسا. من المفترض أنها تعمل على حراسته، إلا أنها تساعده في اكتشاف طريقة لتنفيذ خطته. جالت جيسا ببصرها، تراقب الأجواء حولهما. لم تسمع صوت أحد، مثل بول أو كلارك أو فال، بالجوار، ومن ثم، أشارت له ليقترب. تقدم بضع خطوات، وجثا على ركبتيه بجانب بيلامي.

همس لوك: «كيف تسير الأمور معك هنا؟».

حاول بيلامي أن يهز كتفيه على قدر ما سمحت له قيوده.

- أوه، على نحو رائع. هكذا أقضي أيام الإجازة.

ابتسم لوك لبرهة، ثم عادت الجدية على وجه.

ابتلع بيلامي ريقه: «هل وجدته؟».

أجاب صديقه، وقد لمعت عيناه: «نعم».

شدَّ بيلامي قامته قليلًا، فجفل من الألم الذي يوخز ظهره. مد لوك يده ليساعده، لكنه هز رأسه، وآثر أن يتعامل مع الأمر بنفسه.

تابع لوك هامسًا: «تتبعتُ كوبر وفال بعد ذهابهما مباشرة. غطى فيليكس على غيابي، وأخبر بول أنني عدت للمعسكر لأستريح. لم يدرك أيٌّ منهما أنني خلفهما. انتظرتُ حتى جذب كوبر انتباه الغرباء، ثم تابعت طريقي إلى حيث أخبرتني. لقد وصلتُ إلى مخزن ذخيرتهم سريعًا.. ربما أسرع مما قد تتصور يا بيلامي. يظل علينا الحذر، فقد يلاحظون أن للمستودع مخرجًا آخر قريبًا».

قال بيلامي متجهمًا: «أعلم ذلك. هل دخلت؟».

قال لوك مبتسمًا في دهاء: «تمنيت أن تأتي معي. لم أرغب أن يفوتك الكثير من المرح».

قال بيلامي، وقد عاد ذهنه يعمل بنشاط مجددًا: «حسنًا. من سيتولى حراستي الليلة؟».

- إذا لم يكن دور جيسا، سنحرص على أن تتولى حراستك الليلة.

عند ذكر اسمها، تطلعت بالجوار من وراء ظهرها، ثم طرفت بعينيها نحو بيلامي إشارةً لعدم وجود أحد، فابتسم لها بحزم.

تنهد لوك: «لو الأمر بين أيدينا لأطلقنا سراحك في الحال، يا صاحبي، إلا أن ذلك قد يضر بخطتنا».

قال بيلامي على عجل: «أعرف، ولا أريدك أن تفعل ذلك. إن نطاقًا أكبر لتحريك ذراعي براحةٍ، لهو أكثر من كافٍ بالنسبة إليَّ».

قال صديقه: «عندما نفك قيودك الليلة، وتنهض من مكانك، ستجد أكثر من ذراع إلى جانبك».

- من سيذهب معنا؟

- أنا وأنت وفيليكس، وستبقى جيسا هنا لتمنعهم من ملاحقتنا.

سأل متهكمًا: «وما شأنهم؟ لن نذهب لاعتراض المفاوضات. ما نفكر فيه مجرد.. خطة بديلة».

سمع أصواتًا خافتة أخرى آتية من مركز المعسكر. يقدم بول طعامًا لكلارك، مُطلِقًا دعابات وضحكات عالية حول مهاراته في البحث عن طعام بالغابة، بينما ظلت كلارك تحاول تغيير الموضوع، للتركيز على خطوتهم التالية.

الخطوة التالية للحيلة الدبلوماسية.

ابتلع بيلامي المرارة التي علقت بحلقه.

إنهم لا يفعلون شيئًا حقًا. لن تفيدهم الخطة الأولى إلا في وضع قدم للأمام، حيث تتطلع كلارك إلى حل سلمي. هل فكرتها صائبة؟ وهل حقًا أنه لم يتصرف إلا بتهور طوال هذا الوقت؟

يبدو أن لوك شعر بتردده، فانحنى للأمام، هامسًا: «إن أمامنا فرصة جيدة علينا اقتناصها. ويمكننا فعل ذلك في وقت قصير جدًا».

هز بيلامي رأسه مفكرًا: «لكن كوبر دخل الحصن دون أن يصاب بأذى، كما قالت فال».

أخذ لوك نفسًا عميقًا: «لا ينفي هذا أن هؤلاء الأوغاد احتجزوا أحدًا آخر منا داخل حصنهم».

أومأ متفقًا معه، ثم قال: «لكن ماذا لو أن هناك مغزى آخر؟ ماذا لو.. أن خطتهم تسير على ما يرام بالفعل؟».

لم يستطع النطق باسم كلارك.

أجابه لوك: «إذن، سنحتفظ بذخيرتهم معنا خلال وقت التفاوض. مما يعني أن لدينا ورقة رابحة نساومهم بها.. وتتعادل قوتنا معهم، أليس كذلك؟».

تجهم بيلامي: «لديك حق».

إنه يتعجب من أمر نفسه. طوال الطريق إلى هنا، تخيل وجهَي أوكتافيا وويلز، كأنما يراهما بعينيه، يقفان أمامه، ويتوسلانه لينقذهما. أما في هذه اللحظة، وبعد توصله إلى خطة الإنقاذ، لا يرى أمامه إلا كلارك، والألم بعينيها أمس، وتعبير وجهها، عندما أعرض عن سماعها وأبعدها عنه. لقد تخيل أمرًا أسوأ من ذلك: نظرتها هذه الليلة، عندما تدرك أنه رحل، وتفكر أنه خانها لأنه ذهب دون كلمة وداع.

أغمض عينيه، والحزن يوخز صدره. لقد أخطأ باتهامها بعدم الاهتمام بأحد. بل إن أكبر خطأ وقع فيه، هو عندما ظن أنها جبانة. إنها الأشجع بين كل من عرفهم بحياته. وها هي الآن، تقف بثبات للدافع عما تراه الأفضل للجميع.

قال، وهو ينهض على قدميه متنهدًا: «اسمع يا صاحبي. إذا كنتَ مترددًا.. إذا أردت التأكد أن ما نخطط له صحيح...».

قبل أن يفتح فمه ليجيبه، زفر لوك في خيبة أمل، قابضًا على راحتيه. ثم هز رأسه، وقد اشتعلت وجنتاه، واحمرت عيناه.

- لا، تبًّا. آسف يا بيل، آسف حقًّا. أرى أن خطتك هي أفضل فرصة أمامنا. لا تزال جلاس بالداخل.. يجب أن أُخرجها من هذا المكان.

لبرهة، حدق إليه بيلامي، واستقرت أفكاره بعد هياجها، على أمر بعينه، على إجابة أخيرة.

- لستُ مترددًا، يا لوك.

نظر لوك بعينيه مباشرة، فأومأ بيلامي برأسه، تأكيدًا على كلامه.

- سننفذ خطتنا الليلة.

الفصل الثالث والعشرون

جلاس

شددت قبضتها على جانبَي تنورة فستانها الأبيض، محاولةً الحفاظ على ابتسامة هادئة، وهي تعبر مع سورين إحدى الردهات التي تتخلل جدرانها المتصدعة أشجار مزهرة ونبات اللبلاب. في أول مرة رأت فيها هذه الزهور، منذ أيام قليلة، تعجبت من مدى التناقض الباهر بين رقتها وصلابة الجدار الخرساني. كيف ينتصر الجمال على القبح، كأن الطبيعة تمحو آثار خطايا البشر، الذين ظنوا أنها ملك لهم. أما في هذه اللحظة، فهي ترى هذه الورود محتجزة بعيدًا عن الغابة والمروج، حيث موطنها الحقيقي.

تابعت القائدة حديثها إليها، وشمس الظهيرة المتسربة من ثقوب الجدار، تعكس على وجهها وميضًا متموجًا: «إنه طقس مميز. في الهواء الطلق، مع شروق شمس الغد، سيغتسل الرجال والنساء في النهر، ويتباركون بالأرض، وبعدها يبدأ الاقتران الفعلي».

قالت جلاس: «معذرة، أعتقد أنني ما زلت في حيرة من أمري. ما الذي يجري بالضبط في طقس الاقتران؟».

أطلقت سورين ضحكة مشرقة غريبة: «أوه، يا إلهي، نعم. يا لكِ من فضولية. عندما تصبح المجندات الجديدات مثلك، ممن وهبتنا إياهن الأرض، عضوات حقيقيات في مجتمعنا، نقرن كل فتاة مجندة بأحد الفتيان المجندين. وعند اكتمال الاتحاد، يُعتبَران من الحُماة. وإذا ارتضت الأرض اقترانهما، تهبنا طفلًا مباركًا».

تعثرت في خطواتها، فاستندت على الجدار، تحاول السيطرة على الدوار الذي اعتراها، هامسة: «اكتمال الاتحاد؟».

بالتأكيد لا تعني سورين ما فهمته جلاس ضمنيًّا من حديثها. هل طقس الاقتران هذا، ليس أكثر من مراسم للزواج؟ هل لهذا السبب اختُطِفت والفتيات الأخريات؟ عادت بذاكرتها إلى اللحظة التي حاول فيها كارتر، زميل لوك في السكن، أن يضع يده على خصرها، وهو يحاصرها أمام الجدار. شعرت بأنفاسه على بشرتها، فأغمضت عينيها، واستمرت في مقاومته في اشمئزاز شديد.

قالت سورين: «نعم. كما قلتُ لكِ، يعود تاريخ طقس الاقتران إلى زمن الحُماة الأوائل والغرباء الذين رحبوا بهم. لقد شُفِيَ معظمهم من الإشعاع الذي تعرضوا له على سطح الأرض، ظاهريًّا فقط، إذا جاز التعبير. فعندما حان وقت إحضار جيل جديد للعالم، اكتشفوا أنهم غير قادرين على الإنجاب...».

لم تكمل كلامها، ونظرت إلى جلاس، كما لو تنتظر حتى تكمل بقية القصة بنفسها.

سرت قشعريرة على طول ظهرها، وجاهدت لتربط النقاط ببعضها بعضًا. ثم قالت ببطء، فيما ترتب الصور المشتتة التي تكدست بعقلها: «لقد جعلوا الأشخاص الجدد ينجبون من أجلهم».

أومأت سورين برأسها: «بالضبط. لم تُعانِ الأجيال التالية مشكلة في الإنجاب، لكن من حينها، صار هذا الطقس الأكثر تقديسًا في مجتمعنا. دومًا ما تتوتر المجندات بلا شك، فلم تعد فكرة الاقتران ترتبط بالتقليد الذي ساد بالعالم القديم، بل بات يشارك فيه الكل معًا؛ إنه يضيف مستوى أسمى من الوحدة والارتباط يصعب وصفه».

فغرت فمها، وأصابها الغثيان. مستحيل أنها تعني... هناك، على مرأى من الجميع. هل هكذا يثبتون قيمتهم في هذا المجتمع؟ لا. لن تدع هذا يحدث. خفق قلبها بجنون داخل صدرها، كأنه طائر محاصر، يحاول الهروب. لوك، لا بد أنه في طريقه إليها. يجب أن يعثر عليها سريعًا، يجب ألا يدع هذا يحدث لها. يجب أن يجد طريقة...

قالت سورين: «عادةً ما أختار الأزواج بنفسي، غير أنكِ مميزة جدًّا بالنسبة إليَّ، ومن المهم أن أجعلكِ تشعرين بالراحة. لذلك أتساءل، هل تريدين الاقتران بصديقك؟ أقصدُ الفتى الوسيم ذا الشعر الداكن».

سألت، وقد جف حلقها، بغتةً: «أتقصدين ويلز؟».

- نعم، إنه شاب واعد، كما أخبرني رجالي من الحُماة.

يا إلهي. يا إلهي.

رأت جدران الممر تهتز حولها، ورأسها يجري به سيل من التصورات المفزعة: وجه ويلز يحترق خجلًا، وهو يدير ظهره لصديقة طفولته، محافظًا على كرامتها، بينما تتجرد من ملابسها أمامه، العذاب الذي يطل من عينيه، لإجباره على ذلك... يهمس لها: «إنني في غاية الأسف، يا جلاس»، بينما يقترب... هذا أبشع ما يمكن أن تتخيله بحياتها.

لا، هناك أبشع من ذلك. لا يمكنها تصوُّر الفتيات بالعرين، يُدفَعن بين أحضان غرباء. لينا. آنا. أوكتافيا.

نظرت سورين باتجاه الفناء الواسع في منتصف النواة، الذي تقتربان منه، قائلة: «أعتقد أنه يمكننا أداء الطقس هنا، يا جلاس، بقلب النواة. وهل هناك بقعة أفضل منه؟».

بدأت تلتقط أنفاسها بصعوبة، مع كل شهيق، يعلَق الهواء بصدرها. أخيرًا تمكنت من الرد: «كل شيء يبدو رائعًا».

ضغطت سورين يديها على كتفَي جلاس، في بهجة: «يسعدني ذلك، يا جلاس. أرى كم هو أمر مهم بالنسبة إليكِ. هل ترغبين أن تخبري صديقاتكِ عن الشرف العظيم الذي ينتظرهن؟ بالتأكيد سيُقدِّرن ذلك، ما دمتِ أنكِ من أخبرتهن».

أجابت بعدما استنشقت نفسًا مؤلمًا آخر: «نعم».

عادت نبرة سورين الجادة، لمواصلة أنشطتها بصفتها قائدة، ممزوجة بنبرة أخرى غامضة: «رائع، هذا هو أفضل وقت لتفعلي ذلك. إن لدي أمرًا ما لأهتم به عند البوابات الأمامية. أخشى أنه أمر.. غير سار. لنكمل حديثنا من حيث توقفنا عندما أعود».

ابتسمت بامتنان، ثم حملت يدَي جلاس بين راحتيها، قبل أن تستدير، متجهةً نحو الممر الجنوبي، وتتركها مع كلمة غير *سار*، التي علقت بعقلها كسحابة سامة.

ارتجفت واستدارت تسرع الخطى نحو غرف التنظيف. بقدر ما تخشى هذا الأمر، من الأفضل أن يعرفن في أسرع وقت ممكن. لا بد أن هناك طريقة لتفادي هذا...

انعطفت عند الزاوية، ومرت بحبال تعليق الغسيل، التي يبدو أنها مهجورة تقريبًا. ألقت نظرة خاطفة بغرفة التنظيف، فوجدت لينا تغسل أوعيةً، وإلى جانبها عدد قليل من الفتيات الأخريات، وقد أحكمن جميعهن ربط قطع قماشية على وجوههن المشمئزة، ولم تلمح فتاة أخرى مألوفة من بينهن.

تردد صدى ضحكة في الدهليز خلفها. استدارت بسرعة، وتتبعت الصوت الذي قادها إلى كُوة دائرية بالجدار، حيث تقف فتاتان متقاربتان. أخذت أوكتافيا تحلُّ ضفائر آنا، وهما تتضاحكان.

في موقف آخر، قد يمتلئ قلبها بالفرح، لدى رؤية أوكتافيا سعيدة. أما بهذه اللحظة لا يشغل بالها إلا طقس الاقتران القادم. ستُجبَر آنا على مشاهدة أوكتافيا بين ذراعَي رجل غريب.. رجل *أرادت* له الأرض أن يفعل ما يشاء.

اجتاحها شعور بالغثيان مرة أخرى، فتجاهلته، وتنحنحت. ابتعدت الفتاتان، وترنحتا قليلًا من أثر المفاجأة، حتى إنها رأت الفزع باديًا على وجهيهما. عند إدراك أنها جلاس، زفرتا بارتياح، وبخجل مبالغ فيه في الوقت نفسه.

قالت جلاس: «يجب أن نتحدث حالًا».

شحب وجهاهما، بينما تخبرهما جلاس بخطة الحُماة المدبرة لهن، وعن طقس الاقتران، وكيف أن فعل ذلك يُعد كاعتراف بهن كونهن عضوات بهذا المجتمع. أبقت نظرها لأسفل، محدِّقة إلى الأرض الصخرية، في أثناء سرد التفاصيل، لا تزال مرتعبة منذ أن علمت بنوايا سورين، لدرجة أنها لا تقوى على النظر بأعينهما.

بعدما انتهت، ألقت نظرة خاطفة على أوكتافيا، ولدهشتها، رأت تصميمًا عنيفًا على وجهها، بالمقارنة بالخوف على وجه صديقتها.

قالت أوكتافيا: «لقد حان الوقت يا جلاس. وأعتقد أنكِ تعرفين ذلك».

- لم يرسل لنا ويلز إشارة الوقت المناسب بعد.

قبضت على ذراعها: «اقتليها إذن. أنتِ الوحيدة القريبة منها، التي يمكنها فعل ذلك».

- أنا...

شعرت بغصة في حلقها. لقد أصبحت تشمئز بشدة من هؤلاء الناس، أما أن تقتل سورين... ابتلعت ريقها، ناظرةً إلى آنا، التي تحدق إلى أسفل.

- أعتقد أن هذا سيلفت الأنظار، ويضعنا بخطر. نحتاج فقط أن نُخرِج أفراد شعبنا من هنا. هذه أولويتنا الوحيدة.

أرخت أوكتافيا قبضتها، ثم نظرت إلى الأسفل في إحباط هي الأخرى.

تقدمت جلاس خطوةً منها: «هل تعمقتِ في التفكير في خطة النهر واستخدام القوارب للهروب؟».

أومأت أوكتافيا: «إذا ألهيناهم بطريقةٍ ما، حتى نجدف لمسافة كافية، ونبتعد عن مرمى نيرانهم تمامًا. نعم، يمكنهم أن يتبعونا بعرباتهم، للحاق بنا، لكن الدرب ضيق بمحاذاة النهر. أعتقد أن هذه الخطة ستنجح».

- نحتاج للعثور على ويلز أولًا، يجب أن يعلم بما يحدث هنا. علينا الهروب الليلة، قبل بدء طقس الاقتران صباح الغد. هل تستطيعين الوصول إليه؟

أجابتها أوكتافيا بحزم: «لا تقلقي. سأجد طريقةً ما».

يكفي النظر إلى الغضب البادي بعينيها، لتصدقها جلاس. فرغم كل المخاطر التي مرَّتا بها حتى اللحظة، لم تستسلم إحداهما دون قتال.

الفصل الرابع والعشرون

ويلز

هذا الصباح، اضطر أن يجرَّ جراهام أرضًا حتى جحور الحجز بقبو الثكنات، كما أُمِر تمامًا. من الواضح أن انتفاضة جراهام، جعلتهم في حالة تأهب، لأنهم قادوه بمجرد عودتهم للنواة إلى هذه الحجرة المعزولة الضيقة تحت تهديد السلاح، وتركوه محتجزًا لعدة ساعات منذ حينها. بناءً على قرقرة بطنه، يمكنه الجزم أن الوقت تجاوز الظهيرة.

يجلس وحيدًا بالظلام لأول مرة منذ وصولهم، قبل أربعة أيام. أدرك أخيرًا: أنه ليس هنـــاك داعٍ لانتظار الوقت المناسب للهروب. فلن يأتي وقت مناسب أبدًا. لا يمكن توقُّعٌ تصرُّف هؤلاء الأشخاص، وهذا ما يجعلهم في منتهى الخطورة. يجب عليه التحدث مع المجندين الآخرين، الذين أُسِروا من أماكن مختلفة، في محاولة لإقناعهم بالوقوف صفًّا واحدًا في وجه الحُماة. هذه هي أفضل فرصة لهم، بل *فرصتهم الوحيدة*.

كل ما يحتاجه هو الخروج من هذا الجحر اللعين على الفور. تكيفت عيناه الظلام، لذلك آلمتاه بشدة، عندما فُتح الباب على حين غِرة، ودخل أوك يحمل مصباحًا.

لقد رأى البُغض على وجه أوك من قبل. صار يعرف أن هذه الطبقة الرقيقة البيضاء التي يرتديها، تُخفي تحتها بئرًا عميقة من العنف. إنما نظرته هذه التي لا تبرح الأرضية، هي الأكثر إثارة للرعب. ومع انعكاس الضوء الخافت للمصباح على وجهه الأجوف، رآه أقرب للشيطان منه إلى رجل.

قال متبرمًا بنبرة خافتة خطرة: «أردنا أن نجعلك واحدًا منا. أردنا أن نثق بك ونرحب بك بيننا».

قال ويلز، محاولًا الحفاظ على ثبات صوته: «لا علاقة لي بما فعله جراهام. عليك أن تعرف أنني...».

اندفع أوك نحوه، قاطعًا المسافة بينهما، بخطوة واحدة واسعة، وقبض على عنقه بيده الخشنة المتصلبة، كأنها حبل المشنقة. اهتز الضوء أمام عينيه، وهو يقاوم ليتنفس. رأى وميض المصباح يخفت، وصارت رؤيته ضبابية. جمع ما بقي له من قوة، وركل بساقيه، محاولًا تحرير نفسه من قبضة أوك.

فُتح الباب من خلفهما، فأفلته أوك على الفور، ليرتطم بالأرض. التف حول نفسه في فزع، ممسكًا بعنقه، يستنشق الهواء من فمه، بأنفاس ضيقة لاهثة وحلق محترق.

سمع صوت امرأة على بُعد قريب منه، تقول بهدوء: «لا بأس. لم يحدث شيء».

تطلَّع ويلز لأعلى، معتقدًا أن هذه الكلمات موجهة له، لكنه تراجع مبهوتًا مما يرى. فقد ركع أوك مغمض العينين أمام القائدة الأعلى، بينما تداعب رأسه مثل الكلب.

قالت له: «يمكنك الانصراف».

نهض أوك من فوره، وغادر الحجرة دون كلمة. لم يفكر حتى لثانية واحدة قبل إطاعة أمرها.

التقطت سورين المصباح الذي أوقعه الرجل. رغم أنه رأى أوك على ضوئه شيطانيًّا، فإن الضوء نفسه جعل من سورين ملاكًا مسالمًا. ذكَّر نفسه أن يبقى على حذره: *إنها الأسوأ من بينهم جميعًا. إنها المتحكمة بزمام هذا الكيان كله*.

قالت له، وهي تجلس متربعةً أمامه، وتُخفي ساقيها تحت تنورة ثوبها الطويل: «آسفة لما حدث، فقد ساور الجميع بعض القلق اليوم. فقد جاءنا.. زائر عند البوابات الأمامية. وكما ترى، هذا أمر غير متوقع».

تسارعت نبضات قلبه، هل جاء أصدقاؤهم لإنقاذهم؟

هزت رأسها بحزن: «وكذلك عندما عاد فريق الغزاة من مهمتهم، علمنا بما حدث هناك. أخشى أن ذلك جعلهم يفقدون أعصابهم».

قال ويلز، وقد بح صوته: «إن ما فعله جراهام لا يُغتفَر».

ابتسمت بهدوء: «أميل إلى موافقتك، والتصديق بأنه لا علاقة لك بهذا الأمر».

مدت يدها وربتت على ذراعه برفق، ثم تابعت، وعيناها تلمعان: «لدي خطط من أجلك يا ويلز».

قاوم قشعريرة مفاجئة، تدفعه لجذب ذراعه بعيدًا عنها، كما لو ينفر من ثعبان غرس نابه السام بذراعه للتو. تشير كلمة *خطط* أنها تتوقع أن يبقى هنا لفترة طويلة.

ذكَّر نفسه: *استمِر بخداعك، لفترة أطول قليلًا، لتبقى على قيد الحياة.*

شدت قبضتها على ذراعه، مضيفةً: «هذه الخطط للمصدقين، من أجل صالح الأرض، ومن أجلنا. لذا أخبِرني، هل تُعد نفسك واحدًا منا؟».

أجابها بحسم قدر استطاعته، بينما يبحث بذهنه، عما يمكنه قوله ليقنعها: «نعم. لقد صُدمت مما فعله جراهام مثل الآخرين تمامًا. تمنيت فقط لو استطعت تحذيركِ منه في أقرب وقت ممكن».

تراجعت، وتطلعت إليه بحذر: «ماذا تعني؟».

شدَّ على فكه، قائلًا: «حاولتُ الحفاظ على حذري منه لوقت طويل جدًا. فقد جاء معي على متن سفينة الإنزال التي هبطنا بها على الأرض».

أومأ باتجاه الأرضية في احترام كما يفعل الحُماة دائمًا، عند ذكر الأرض في أي حديث، وأكمل: «تعلمتُ ألا أثق به. لا أعتقد أن الأمر يتعلق حتى بعدم تقبُّله لحكمة الأرض، فهو مصدق بها، إنما أظن فقط أنه غير مستقر ويحتاج...».

انفتح الباب خلفها، فرفعت رأسها دون أن تستدير، فيما ظهرت مساعدتها الشقراء، جاذبةً معها شخصًا يعرج. *جراهام.*

قالت المساعِدة: «إنه مستيقظ».

عض على شفته، حتى لا يشهق من الفزع، بينما تجذب المرأة الشقراء جراهام إلى داخل الحجرة، وتدفعه بعنف، لتتركه يسقط على الأرضية. إنه

مستيقظ بالكاد، وقد انتفخ وجهه الدامي. شدت المرأة قامته لأعلى ليستند إلى الجدار. التفتت عيناه الخاليتان من أي تعبير باتجاه ويلز، في أثناء خروج المرأة ذات الزي الرمادي، مغلقةً الباب خلفها.

لمست سورين ركبته، قائلة، دون تغيُّر ملحوظ بابتسامتها الهادئة: «أين توقفنا؟».

ابتلع ريقه بصعوبة، مُلقيًا نظرة خاطفة نحو جراهام، الذي ظل محدقًا إلى وجهه، كما لو استنفد طاقته بالكامل، ولا يقوى على تحريك جفنيه. لم يلمح سوى حركة تنفسه، ليطمئن أنه لا يزال على قيد الحياة.

نظر ويلز إليها، متظاهرًا بالسخرية، وقال: «أعتقد أنه.. مضطرب عقليًّا. منذ أن هبطنا، بذل كل ما في وسعه ليقلل من شأني في المخيم، ليس لشيء إلا لمنافستي. منذ أول يوم لنا على الأرض، لم يتوانَ عن ارتكاب الحماقات، مُعرِّضًا حياتي وحياة أصدقائي للخطر في كل فرصة تسنح له. لذلك، لو أنكِ تتساءلين إذا ما تضامنتُ معه.. فالجواب هو لا».

انتقلت نظرة جراهام المحدِّقة ببطء نحو الأرضية، وانقبضت معدة ويلز مع حركة عينيه. يجب أن يتصرف بحذر شديد. إذا ظنوا أنه متضامن معه، سيضيع الأمل الأخير لهما في الهروب مع أصدقائهما. لن يخاطر بإقناعهم بأكثر من ذلك، ولا أن يتسبب في توريط جراهام بخطر أبعد مما هو عليه، فقد يظنون أنه غير قابل للإصلاح.

ابتلع ريقه، وهز رأسه: «إنني آسف أيتها الأم».

اتسعت عيناها وومضتا للحظة وجيزة: «من أجل ماذا، يا ويلز؟».

نظر بعينيها: «بالنظر إلى حياتنا السابقة، أعلم أنه من المفترض أننا نسيناها منذ أن اغتسلنا في النهر. فمهما حدث في الماضي، يجب أن يظل في الماضي. هذا موطني الوحيد، إذا أرادت الأرض».

رددت هامسة، وهي لا تزال ترمقه بعينيها: «إذا أرادت الأرض».

أوشك أن يفقد كل أمل في أن تصدق عرضه المبتذل لإظهار حسن نيته، فتفاجأ من انحنائها للأمام، لتُقبِّل جبينه.

- أصدقك. عند فجر الغد، سأرعى ما نطلق عليه طقس الاقتران بمشاركتك وبقية المجندين، حيث نرحب بكم في مجتمع الحُماة رسميًّا.

سحبت خنجرًا من جيب تنورة ثوبها الطويل الفضفاض. خلال الإضاءة الخافتة، رآه يلمع على نحو يُنذر بالخطر. كتم أنفاسه، وتسارعت نبضاته، فيما تُقرِّب سورين النصل باتجاه الجانب الداخلي من ذراعه، ثم قطعت الحبال التي تقيده. أطلق ويلز تنهيدة طويلة، وأخذ يدلك كاحليه ومعصميه، حتى عاد الدم يسري بهما، في وخزات حادة.

أعادت الخنجر لجيبها ونهضت مضيفةً: «يحتاج حُماتي للمزيد من رعايتي».

ضغطت سورين يدها على قلبها، مبتسمةً في حنان، كما لو أنها تتحدث عن أطفال صغار. ثم أضافت: «ليزدهر مجتمعنا، يتطلب ذلك من رجالنا أن يتصرفوا بوحشية. هذا ما يعرفونه ويحترمونه في أنفسهم. إذا أردت أن تنضم إلينا وتنال ثقة الحُماة ورضاهم عنك، ليس أمامك إلا طريقة واحدة، وهي أن تثبت لهم وحشيتك».

ظل يسمعها بتركيز وأنفاسه محتبسة بصدره. أمرته بنبرة رقيقة، بدأ يعتادها: «خذ هذا الشاب إلى الغابة واقتله. استخدِم طريقة سريعة أو طويلة كما تشاء. لكن من فضلك أحسِن فعل ذلك خارج نطاق جدراننا المقدسة. لسنا بحاجة لمزيد من الدم المراق هنا اليوم».

لا. مزقت هذه الكلمات داخله، حيث يتصارع الكره والتمرُّد من أجل الهيمنة على رد فعله. فاض الكيل، هذه هي النهاية. يجب أن يخرجوا من هنا في الحال. اعترته موجة ثانية من الغثيان محاولًا تفسير كلامها. ماذا تقصد بالمزيد من الدم؟ قفز ذهنه إلى ذكرها أمرًا عن زائر غير متوقع. يدعو بكل ذرة في كيانه ألا يكون أحد أصدقائه.

- سيرافقك أوك كونه شاهدًا على طاعتك للأوامر.

فتحت سورين الباب، وأشارت إلى أوك، ثم ذهبت دون أن تلتفت. سد أوك فتحة الباب، وقد تدلى سلاحان من ذراعيه الملتفتين بالحبال. انهمك بتقييد جراهام، الذي وقف مرتعشًا، ثم خرج به من الباب بعدما انتهى، يسحبه وراءه، كما الخراف التي تُساق إلى مرعاها.

نظر إليه جراهام، ولم يستطع قراءة أي تعبير من خلال عينيه المتورمتين وفكه المكدوم.

أوشكت الشمس على الغروب، بمجرد خروجهم من المدخل الرئيسي. تابعوا السير في صمت، متوجهين إلى قلب الغابة مباشرة. عند حافة الأشجار، كاد يقسم إنه لمح بطرف عينيه وميضًا يتحرك نحو الغرب. لم يجرؤ على تدقيق النظر، خوفًا من لفت انتباه أوك، فيضغط الزناد في لحظة.

عند كل منعطف، يعتقد أنهم سيتوقفون، فقد قطعوا مسافة كافية بعيدًا عن الحصن. مع كل خطوة، يزداد انقباضه، وتتعمق رهبته شيئًا فشيئًا.

أخيرًا زمجر أوك: «توقفا هنا».

استدار ويلز ببطء، رافعًا ذراعيه، ثم جفل عند رؤية أوك يدفع إحدى البندقيتين نحوه. حدق إليه أوك مثلما توقع، فيما يحاول التفكير في طريقة لكسب بعض الوقت. يجب أن يجد طريقة للنجاة من هذا الكابوس.

- هل يمكنني محادثته للحظة على انفراد لتوديعه؟

لانت نظرة أوك قليلًا.

- حسنًا، سأنتظر على مقربة من هنا، إذا احتجت إليَّ.

ثم استدار مبتعدًا.

كتم أنفاسه، حتى عاد قلبه ينبض بوتيرة هادئة ثابتة. ماذا سيفعل؟ إما أن يقتل جراهام، وإما أن يرفض فيُقتَل هو، وإما يقتل أوك. لا خيار آخر. رفع البندقية وصوبها على ظهر أوك. أغلق إحدى عينيه، ليحدد هدفه، وإصبعه على الزناد و... قبضت يدان موثوقتان، بشدة على الفوهة. شهق ناظرًا إلى جراهام، وهمس محررًا البندقية من قبضته: «ماذا تفعل؟».

- سنطلق النار عليه ونهرب.

ابتسم جراهام بغموض، ولم يستطع ويلز فهم ما يريد قوله من عينيه المكدومتين المنتفختين.

- أتعتقد أن الأمر بهذه البساطة؟ بالكاد يمكنني السير بعد ما فعلوه بي. وكيف سنهرب؟ سيتبعوننا، وحينها سيقتلوننا معًا. إنني هالك لا

محالة في الحالتين. أما أنت، فبإمكانك العودة وإنقاذ شعبنا، والقضاء على هؤلاء الأوغاد، بأقسى طريقة ممكنة.

مسح ويلز عرقه المتصبب.

- ما الذي تعنيه؟

- تعرف ما أعني، يا جاها، لا تتغابَ.

تقطعت أنفاسه، وقال محمومًا: «بالتأكيد هناك طريقة أخرى. سأطلق النار على الشجرة، وسأترك لك المجال لتهرب. سأقول لهم إنني أخطأتُ الهدف».

- سيقتلونك إذا أخطأتَ.

- سأصنع حفرة، وأقول إنني دفنتك.

تخلى جراهام عن الهمس، وصرخ فيه: «سيرغبون برؤية جثتي. أحسِن التفكير، يا ويلز!».

ثم عاد يهمس، وهو يهز رأسه، وقد غابت عيناه: «كل الأمور التي قلتها عني هناك...».

أبقى سلاحه موجهًا نحو جراهام، حتى لا يشك أوك. قال بحلق جاف: «لم أقصد يا جراهام أن...».

اتسعت حدقتاه، ونظر بعينَي ويلز مباشرة: «لقد قلتَ الحقيقة. إنني لست شخصًا طيبًا. لم أكن ولن أكون لبقية حياتي. أما أنت، فعلى عكس ذلك، يا ويلز. وهذا في اعتقادي هو سبب انزعاجي منك على الدوام».

نظر إلى الأرض. إنه مخطئ. لم يعد الشخص الطيب نفسه منذ فترة طويلة. كما لا يتوانى هؤلاء الناس عن دفعه ليتجاوز هذا المستوى، يريدونه أن يصبح وحشًا.

- لن أفعل هذا، لا يمكنني.

قال جراهام بارتجافة خفية بصوته، تعكس الخوف الذي يعتريه، ويأبى أن يظهره: «بالتأكيد يمكنك. إنني أسمح لك أن تفعل. افعلها بضمير مرتاح».

بيدين متعرقتين يحمل بندقيته باردة السطح، ينقل بصره بينها وبين الفتى المرتعش أمامه، الذي تبللت وجنتاه بالدموع. همس له بصوت متهدج، سائلًا: «هل أخبرتك من قبل بما فعلته على متن السفينة؟ هل أخبرتك لمَ احتُجِزتُ؟».

راقبه بصمت، وقد رفع حاجبيه، وسقط جاثيًا على ركبتيه، ثم رفع رأسه باتجاه ويلز والسماء الداكنة بالأعلى.

- لقد فعلت الكثير من الأمور السيئة التي لا تعرف عنها شيئًا يا جاها. من فضلك، اسمح لي أن أحظى بهذا الشرف النبيل على يدك. من فضلك، اسمح لي.

لا يستطيع النظر إلى جراهام، غريمه اللدود، وقد تمكن منه الألم، ويتوسله بهذا الشكل.. ليس ليتركه يعيش، بل ليرديه قتيلًا. لا يرى أثرًا لذلك المتهكم المتكبر من فينيكس. لقد ذهب جراهام الذي يعرفه، أما هذا الفتى فيستحق الحياة.

قال وقد تيبست عضلات ذراعيه: «لا، سنجد حلًّا آخر...».

قبل أن تطرف له عين، اندفع جراهام، وضغط الزناد. دوى صوت الطلقة مخترقًا الهواء، مخترقًا الغابة، مخترقًا قلبه وعقله وكيانه.

حدق إلى خيط الدخان، في البقعة حيث جثا جراهام، ثم في جسده المتهاوي على الأرض، تسيل منه الدماء على أوراق الشجر الجافة.

انفجرت أفكاره وسط سحابة الرعب التي حاصرته: لقد أمكنه الهرب. *لقد أمكنه إنقاذ نفسه. هذا ما قد يفعله أي أحد بموقفه. لكنه اختار أن يموت.. لينقذنا.*

لم يدرك كم مرَّ عليه من الوقت، دقائق، ساعات، أيام.. قبل أن تقبض يد أحدهم على كتفه. جفل، ثم استدار ليجد أوك يوجه له نظرة فخر مهيبة: «لقد تعلمتَ. أحسنتَ يا بني. لنعد إلى النواة».

الفصل الخامس والعشرون

بيلامي

غمرته الدهشة أنه عاد يتجول عبر الغابة مرة أخرى، يقفز بخفة فوق جذوع الأشجار المتساقطة، بينما يحرص على التحرك بخفاء مع ظلال الأشجار، كأنه ذاهب في رحلة صيد جديدة، حتى إن وجود لوك بجانبه مشهد يألفه. فبعدما تعافت ساقه قليلًا، بدأ يرافق بيلامي في بعض رحلاته للصيد. عادةً، لا يشعر بالراحة في وجود أشخاص معه، ولا سيما إذا تحركوا ببطء، أو تحدثوا بصوتٍ عالٍ، لشغل الفراغ بثرثرة لا طائل منها. أما لوك، فلا يمانع قضاء ساعات صامتة بالغابة، دون كلمة تواصل، والاكتفاء بإيماءة رأس، أو حركة يد، عندما يرصد أحدهما صيدًا ثمينًا. غير أن هذه المرة، لا يبحثان عن غزال لإحضاره للمخيم، بل إنهما ينويان التسلل إلى داخل الحصن الحافل بقتلةٍ في ثياب بيضاء، ليسرقا ذخيرتهم.

سأل لوك بصوت خافت، كاسرًا الصمت: «اقتربنا، أليس كذلك؟ تبدو ملامح الطريق بالنسبة إليَّ مختلفة بعض الشيء في الظلام».

أشار بيلامي، بعد قليل، إلى جانب تقل فيه كثافة الأشجار، وتكشف من ورائها عن كتلة خرسانية شاهقة، قائلًا: «نعم. إن المدخل الذي عبرتُ من خلاله مع فيليكس يقع خلف هذه الأشجار هناك».

كلما اقتربا، صارا أكثر هدوءًا، وتحركا بصمت وخفة على الأرض المغطاة بأوراق الشجر الرطبة. أومأ له بيلامي ليختبئا خلف الأشجار الأقرب للجدار. مكثا هناك لبرهة طويلة، تحسبًا لأي حركة بالجوار، لكن لم يتطرق لأذنيهما أي شيء.

سبقه بيلامي بضع خطوات على طول الدرب العشبي الضيق، الذي يحيط الجدران الخمسة للحصن. التفت من جانبٍ إلى آخر، وعندما تأكد أن الطريق آمن، أشار إليه ليقترب.

حمل الهواء غمغمات مختلطة خافتة، لم يستطع تحديد مصدرها، كما لو أن جيشًا من الرجال مرتدي الأبيض ذوي الرؤوس الحليقة، يتدفق من باب لا يراه، يتبعهم طلق ناري بعيد. ومع ذلك، تابعا التقدم بمحاذاة الجدار، لا يعكر صمتهما شيء، سوى أصوات أنفاسهما.

بعد بضع لحظات، عثر على الحفرة التي تؤدي مباشرةً إلى مستودع أسلحتهم، أو أي ما يطلق عليه هؤلاء الحمقى. بعدما اكتشفها مع فيليكس الليلة الماضية، غطاها ببعض الأنقاض -عوارض وصخور- المتناثرة في الأرجاء، حتى لا يتسرب الضوء من الفتحة. ربما لهذا السبب لم يلحظها أحد الحراس بعد. لا يمكن أن يغفل بيلامي تفصيلة كهذه، قد تضع خطتهما بخطر. هذه خصلة تُميزه، وتجري في عروقه منذ طفولته، لقد حافظت على حياته وحياة أخته طوال سنين الاختباء. لهذا لاحظ الكومة الغريبة من الأوراق الجافة، التي صرفت كلارك النظر عنها. لو أنها استمعت إليه. لو أنه وثق بنفسه كفاية لتهتم بما يقول!

دفع برفق بعض العوارض جانبًا. ثم جثا على ركبتيه ووضع أذنه على الأرض. لا يسمع صوتًا بالأسفل؛ إن مخزن الذخيرة يخلو من أي حركة. انزلق من فتحة السقف، وطرف بعينيه، ليجبرهما على تكيف الضوء الخافت.

عندما تبعه لوك إلى الداخل، بدأت الأجسام الداكنة تتضح شيئًا فشيئًا. لا تزال العربة المكدسة بالذخيرة بمكانها، كما تُركت. تمعن النظر إلى البنادق والخناجر.. والقنابل اليدوية.

سأل بيلامي: «هل أنت مستعد؟».

فأومأ له لوك بحزم.

لقد اتفقا على الخطة في وقت سابق. هناك بعض الأسلحة ذات أهمية أكبر من غيرها. إذا أسرعا، يمكنهما أخذها كلها. ملآ الحقائب التي أحضراها من المعسكر. ثم خرجا من الحفرة، وهرولا بهدوء عائدَين باتجاه الحيز الشجري.

وفي الغابة، أفرغا الحقائب، وأخفيا ما أخذاه تحت أجمة كثيفة، ثم عادا إلى الحفرة لجلب المزيد. تسللا جيئةً وذهابًا أربع مرات متتالية، حتى لم يتبق سوى قليل من الأسلحة.

في أثناء تعبئة الحقائب، في المرة الأخيرة، تهادى إلى سمعهما صوت متناغم خافت، فالتفتا معًا، كما تفعل الغزلان، عندما تستشعر وجود بيلامي، حاملًا قوسه. لا بد أن أحدهم يغني.

حرَّك لوك فمه، متراجعًا نحو الفتحة: «هيا نذهب».

إلا أن هناك شيئًا ما يجذبه بالاتجاه الآخر، إلى حيث يتسرب ضوء من فجوات الباب المعدني بنهاية النفق. تسلل بيلامي بهدوء، واختلس النظر. رأى فتاتين في زيٍّ أبيض، وشعرهما مضفر، تعبران الردهة وتدندنان، بينما تحملان معًا طبقًا فضيًّا كبير الحجم.

حين أمست الأرض يانعة عذراء،

جاءت ربَّة السحب البيضاء.

ترفع دعاءها للنجوم الحور،

تمنحها طفلًا تضمه في حبور.

أصابته تعبيرات الفتاتين الباردة، وأنشودتهما الغريبة، بالقشعريرة. *ما الذي يجري هنا بحق الجحيم؟*

لا يجد فيما يرى ويسمع، غير نذير خطر شديد. استطاع التعرف على إحداهما. إنها لينا، فتاة أرضية من قرية ماكس، وإحدى المختطفات. تمنى أن تنظر نحو الباب، حتى يمكنه التلويح لها. لو استطاع جذب انتباهها فقط، سيخرجها من هناك. لم تنتبه، واستمرت بالتحديق أمامها مباشرةً بعينين واسعتين وزائغتين.

عند اقترابهما من الزاوية التالية، اعترض طريقهما رجل متجهم، وصاح فيهما: «ما الذي أخَّركما كل هذا الوقت؟ ينتظر الحراس العشاء».

ابتسمت الفتاة الأخرى، وأجابت بصوت حالم: «إن المطبخ بعيد جدًّا عن الثكنات».

- حسنًا، حاوِلا الإسراع في المرة القادمة.

قالت: «إذا أرادت الأرض».

رددت لينا: «إذا أرادت الأرض».

ما الذي...؟

استدار بيلامي مبتعدًا، وحمل حقيبته، ثم أومأ برأسه إلى لوك، وخرجا من الحفرة. جفل عند اصطدام عينيه بضوء القمر، واكتشف أنه يرتجف بشدة.

سأله: «ماذا حدث؟ ما الذي رأيته هناك؟».

أجابه لاهثًا، في أثناء ركضهما إلى حيث البقعة الآمنة بالغابة: «رأيت لينا، الفتاة الأرضية. تعرفها، أليس كذلك؟».

اتسعت عينا لوك: «هل هي بخير؟ من رأيت معها؟ هل لمحت أي أثر لوجود جلاس؟».

- رأيت لينا فقط، بصحبة فتاة أخرى لم أتعرف عليها، لكن هناك أمر غريب حقًا يحدث هناك، يا لوك. أعتقد...

توقف برهة قبل أن يقول هذه الكلمات بصوتٍ عالٍ، فهو يخشى مما إذا ما يفكر فيه كان صحيحًا.

- أعتقد أنه بطريقةٍ ما غُسِلت أدمغتهن.

وصف ما رآه، بينما تضيق حدقتا لوك، ويتشنج فكه. رغم ذلك، قال لوك بهدوء: «من الجيد أنهم لا يزالون على قيد الحياة»، ثم قبض كفيه وبسطهما، «سنخرجهم جميعًا، مهما كلفنا الأمر. هل لديك فكرة عن المخطط الداخلي لهذا الهيكل؟».

- لقد تأكدتُ أن ثكنات الحراس تقع بجوار مستودع الذخيرة. كما سمعت إحدى الفتاتين تقول إن المطبخ بعيد عن هنا.

قال لوك، قبل أن يطلق زفير ارتياح طويلًا: «حسنًا، حسنًا، هذا جيد. نعرف المنطقة التي يمكننا الهجوم عليها، إذا اضطررنا إلى ذلك. هل نذهب ونخبر الآخرين؟».

- هيا بنا.

رفع بيلامي حقيبته المملوءة بالقنابل فوق كتفه. لقد أدرك فجأةً أن مواجهة كلارك وبول، تُعَد لعبة أطفال، بالمقارنة بما يجب عليهما فعله بعد إخبار الجميع.

الفصل السادس والعشرون

كلارك

إن الغابة هادئة على نحوٍ مريب، كما لو تكتم أنفاسها قبل هبوب ريح عاصفة. لم تكد تمر ساعة، منذ أن تسلمت كلارك من فيليكس، نوبة المراقبة التالية، لكنها شعرت أن الدقائق تتراكم فوق بعضها بعضًا، في حمل ثقيل على كتفيها. توقعت أن يعود كوبر في غضون ساعات، وليس يومًا كاملًا من المفاوضات مع الغزاة. لا ترغب في التفكير في احتمال آخر، لكن ربما، هذه الخطة، ليست الأفضل.

نهضت لتمدد جسدها قدر المستطاع، دون أن تبتعد كثيرًا عن موقعها، في محاولة للسيطرة على القلق المتسرب بعروقها. ليس بيدها الآن غير الانتظار والأمل.

كُسر غصن خلفها. فاستدارت، ولم تجد أحدًا. أخذت نفسًا عميقًا لتهدئة نبضات قلبها المتسارعة. لا يمكنها مساعدة أحد بمكوثها هنا. من المنطقي أن تذهب وتبحث عن كوبر، في حال احتاج إلى دعم، أو أي ما قد يعنيه ظهورها بجواره حينها.

تسللت عبر الغابة، حتى الحافة المحيطة بالحصن، تتساءل إذا ما عليها تجاهل القشعرة، التي توخزها عند مؤخرة رقبتها. اعتاد بيلامي مثل هذا الوخز، ولم يخُنه حدسه قط. أما هي، فلا تعتمد على ذلك. ظلت طوال حياتها تتعلم أن تثق بعقلها، لا بقلبها. هذا ما علموها إياه خلال التدريب الطبي، وهذا ما أثار إعجاب والديها عندما واجهتهما ببشاعة التجارب التي يجريانها.

تميل إلى التفكير في *الصورة الكبرى* وفي *الصالح العام*، حتى عندما تصيح غريزتها بأمرٍ آخر.

يتزايد هذا الشعور كلما اقتربت من حافة الغابة وأشجارها الطويلة التي تلقي بظلال غريبة تحت ضوء القمر. ظهر من وسط الأشجار ظل قاتم لشخصٍ ما. انقبض صدرها وتوقفت، غير واثقة مما عليها فعله، أتحتمي وراء شجرة أم تبقى ساكنة مكانها.

كتمت أنفاسها وانتظرت. لم يتحرك الظل. خفق قلبها بسرعة، وظنت أنه، مهما كان هذا الشخص، لا بد أنه اكتشف وجودها، ويمكنه سماع نبضاتها. مع ذلك لم يتحرك.

نادت وقد بح صوتها: «كوبر؟ أهذا أنت؟».

فيما عدا صدى صوتها، لم تسمع شيئًا. تقدمت ببطء، وأعادت المحاولة: «كوبر؟ هل أنت بخير؟».

مع اقترابها، أدركت أنه ليس كوبر، بل لا أحد. أمعنت النظر، متسائلة، عما إذا تخدعها عيناها. لا.. يمكنها أن ترى ذلك بوضوح: ملابس فضفاضة محشوة بالقش، ورأسها من اليقطين، ومحفور عليه ملامح بشرية. إنها فزاعة. لقد قرأت عنها ذات مرة. دومًا ما تثيرها القطع الأثرية لزمن ما قبل النكبة، وتتأملها باندهاش، لكن ليس هذه المرة. هناك أمر خاطئ. لا توجد مزرعة بالقرب من هنا، كما أن هذه الفزاعة تبدو حديثة الصنع، فمستحيل أن ينجو شيء كهذا من الدمار.

على بُعد عدة خطوات، توقفت. لا... جفلت... لا بد أن هذه خدعة من الضوء.

- لا، لا يمكن.

إنها ليست فزاعة بالضبط. رغم أن هذه الملابس الفضفاضة محشوة بالقش، إلا أن الرأس ليس من اليقطين كما ظنت. إنها رأس بشرية. إنها رأس كوبر.

صرخت: «النجدة! ليساعدني أحد!»، صرخت دون توقف. دوَّى صدى صرخاتها بين الشجر، حتى إنه جعل طائرَين يهربان فزعًا. وقبل أن تنتبه لنفسها، صرخت باسمه: «بيلامي!».

شهقت، وبدأ رأسها يدور. بعدها تراجع رعبها والنفور مما ترى قليلًا، وحلَّ محلهما ثبات انفعال الطبيب. خطت للأمام مرتجفة، ومتأهبة لما ينتظرها. لقد قُطِع رأس كوبر، وثُبِّت بمسمار، فوق جسم فزاعة، مصنوعة من ملابس كوبر.

أصبح وجهه مكدومًا ومنتفخًا، وبشرته زرقاء باهتة، غير أن بقعة الدم عند عنقه، لا تزال رطبة. لقد حدث هذا من وقت قصير. دققت النظر بالظلال حولها، تحسبًا لأي حركة. أخذت نفسًا عميقًا، ثم التفتت ببطء حول الفزاعة البشعة، لتشهق مجددًا.

وجدت عبارة مكتوبة بالدم: 'أُخدُمْ أو مُتْ'.

همس أحدهم: «اللعنة».

استدارت لتجد بول يحدق إلى الفزاعة، وقد شحب وجهه.

قالت، تجبر نفسها على التنفس، فيما ينسال الدمع على خديها: «أعرف... يجب أن نبحث عن الجسد. لا يمكننا تركه هكذا».

تراجع بحدة: «ماذا؟ مستحيل».

- حسنًا، لا بأس. لنفعل ذلك لاحقًا. أما الآن، نحتاج إلى معرفة ما يجب فعله تاليًا.

قبل أن تنتهي، استدار مهرولًا في رعب. نادته: «مهلًا! إلى أين تذهب؟».

سمعت بعض الفروع تتحطم خلفها، فقفزت جانبًا، والتقطت عصا من الأرض، ثم رفعتها لتضرب بها رأس من يخرج من الظلال.

- كلارك! هل أنتِ بخير؟ أنا قادم إليكِ! كلارك!

أسقطت العصا، بينما يركض بيلامي خارجًا من الظلال. عندما رآها، هدأ وجهه المتشنج المتصبب بالعرق، وعانقها بقوة. شاب صوته نبرة سرور ممزوجة بالبكاء: «لقد سمعتكِ تصرخين، وظننتُ... جيد أنكِ بخير».

بعد لحظات قليلة، ظهر لوك يسرع الخطى نحوهما، رغم عرجه، ساحبًا بول وراءه. صاح غاضبًا، في وجه بول: «ما الذي حدث هنا؟ ماذا فعلتَ بها؟».

أشار بول مرتعبًا نحو الفزاعة: «لم أفعل شيئًا. هم مَن فعلوا».

استدار بيلامي، لتقع عيناه على الرأس لأول مرة. تمتم، متراجعًا بضع خطوات: «أوه، يا للهول. اللعنة».

تزمر بول، يحاول إفلات نفسه من قبضة لوك: «اتركني، أيها الأحمق. لا علاقة لي بهذا».

قال لوك كازًّا على أسنانه، فيما يشدد قبضته حول بول، حتى تأوه هذا الأخير: «إذن، لماذا تهرب؟».

- لأنه من الجنون أن أبقى هنا. انظر ماذا فعلوا بكوبر! لن تتوفر لدينا فرصة لإنقاذ أي أحد. حان وقت الرحيل.

قالت كلارك في ازدراء، لم تقدر على إخفائه، بينما يرمقها بيلامي بفخر، لوقوفها بوجه بول: «هل تريدنا أن نتخلى عنهم؟».

- نعم. لقد فعلنا كل ما نستطيعه هنا. ولم يبق بأيدينا غير الدعاء لهم وتذكُّرهم. *علينا أن نعود في الحال.*

فقال له بيلامي، وهو يطوق كتفَي كلارك بذراعه: «يمكنكَ الذهاب وحدك. أما نحن فباقون. لدينا عمل يجب إنجازه».

سارت وبيلامي خلف لوك الذي يجر معه بول، دون أن يتوقف لحظة عن التأوه والتذمر.

سألها، متطلعًا لما وراءها: «هل أنتِ متأكدة أنكِ بخير؟ بعد ما رأيتِ.. ماذا فعلوا بكوبر...؟».

أجابته، رغم أن تهدج صوتها يخالف ما تقول: «إنني بخير. بعد أن نخبر الآخرين، سأعود مجددًا لأعتني بالـ...».

لم تستطع قول كلمة جثة. فيما جذبها إليه: «سأذهب معكِ. سنفعل ذلك معًا».

على الرغم من أنها تدربت طبيًّا على فعل ذلك، يجعلها مجرد التفكير في المهمة التي يجب عليها إتمامها، تشعر بالدوار. أسندت رأسها إليه، مدركةً أنه لن يدعها تسقط أبدًا. قالت بلطف: «إنني في غاية الأسف. لا أصدق أنني تركت بول يفعل ذلك بك. لن أسامح نفسي أبدًا».

لم يرد عليها، لكنه لم يُرخِ قبضته. ثم تحدث بجدية، وبنبرة هادئة: «أعلم أنكِ لم ترضي عما فعله، لهذا السبب، أعتذر عن الكلام الفظيع الذي قلته لكِ. لقد تحملتِ الكثير من الألم يا كلارك، واستغللتُ ذلك ضدك. علمتُ أنني أؤلمكِ، ومع ذلك، تابعتُ فعل ذلك. هل يمكنكِ أن تغفري لي؟».

إنه على حق منذ البداية، غير أن النبرة الرقيقة بصوته، رفعت لبرهة، هذا الندم الثقيل عن كاهلها.

- نعم، إذا غفرتَ لي كذلك.

أطلق تنهيدة طويلة: «لم أتصرف على طبيعتي في الآونة الأخيرة. لذا أتفهم حذركِ مني».

توقفت ونظرت إليه: «أحبكَ في أي طبيعةٍ كنتَ، يا بيلامي بليك».

ابتسم وقبَّلها على جبينها، ثم همس: «أحبكِ».

عندما وصلوا، وجدوا الآخرين بانتظارهم في قلق. أخبرتهم كلارك بما حدث لكوبر. ثم ذهبت لتسند فال، التي انهارت في البكاء.

قالت فال بين تنهداتها: «لم يكن لديه ما يجبره على القدوم معنا، لولا أنه تطوع. فهو.. فهو من ذلك النوع من الناس.. الذين...».

قال بيلامي، في أثناء اقترابه من الحقائب الموضوعة عند شعلة النار: «لن نتركه يموت هباءً. سننقذ شعبنا، وبعدها نجعل هؤلاء الأوغاد يدفعون الثمن. سنفعل ذلك من أجل كوبر، من أجل مخيمنا، من أجل كل مكان دمروه، واعتقدوا أنهم سيفلتون من العقاب».

مد يده إلى داخل إحدى الحقائب وسحب منها بندقية، بينما يوضح لوك الأمر لكلارك: «لقد جلبناها من مخزن ذخيرتهم. أخذنا كل سلاح ثمين هناك. حملنا ما استطعنا، وأحضرناه إلى هنا، قبل أن نسمعك تصرخين، والباقي أخفيناه. أُتيحت لي الفرصة أمس أن أتفقد الحصن نفسه. يبدو منيعًا من مسافة بعيدة، أما عن قرب، يمكنكِ اكتشاف شقوق عميقة على طول الأساسات. ربما تسببت بها الانفجارات في زمن النكبة، ثم زادتها عوامل التعرية الطبيعية سوءًا. كل ما يتطلبه الأمر هو توزيع دقيق لهذه المتفجرات، وستسقط هذه الجدران الهائلة».

ثم أومأ لوك إلى بيلامي، الذي تقدم للأمام، ليتابع شرح الخطة: «في أثناء الفوضى، سيهرع الغزاة نحو مستودعهم، ليجدوه قد أُفرغ من كل شيء. يحمل بعضهم البنادق بالفعل، وهؤلاء سنهتم بهم، ننزع أسلحتهم أولًا، ثم نحتجزهم بالمستودع مع الآخرين».

قال فيليكس مبتسمًا بوهن: «صيدًا سهلًا».

انقبض قلب كلارك؛ لقد استخدم بيلامي كلمات لها المعنى نفسه من قبل، عندما أخبرها بما رآه قبل عيد الحصاد. ربما شعر بقلقها، فقد وجدته يرخي بندقيته، ويقترب ليأخذ يدها.

- سنكتفي بتقييدهم، حتى نجد أصدقاءنا ونحررهم. يمكننا حتى أن نأخذ بعض الطعام والمؤن التي سُرقت منا كذلك.

تنحنح بول: «تظل لدينا ثلاث مشكلات. أولها، أن هذا العدو عنيف، وحصنهم هو مجرد فخ، وأخيرًا.. ستهلكون جميعًا».

قالت جيسا، وهي توجه بندقيتها نحوه، فابيض وجهه: «ظريف أنك ما زلت تقول *أنتم* كأنك لن تأتي معنا».

غمغم متوسلًا كلارك بعينيه: «تعرف كلارك أن هذا جنون، أليس كذلك؟».

فقالت ببطء، فيما بدأ وجه بيلامي يتوهج: «حسنًا، إنها خطة متهورة وخطرة، وتحمل قدرًا من المجازفة.. لكنها ذكية وجريئة. تعجبني كل تفصيلة بها».

ثم ابتسمت له، وقالت: «قُد الطريق أمامنا، يا سيادة عضو المجلس».

الفصل السابع والعشرون

ويلز

في أثناء سيره في ردهات الحصن، انتبه أن الحراس يلتفتون نحوه، وينظرون إليه، وقد اختفى الشك بأعينهم، وأضاءت بقبوله كونه واحدًا منهم. لقد انتشر الخبر سريعًا. لا بد أن أوك هو من قال لهم. ولم يزد ذلك ويلز إلا غضبًا يغلي بعروقه.

في طريقهما إلى الثكنات، توقف أوك عند قاعة الطعام.

- لقد انتهى العشاء، لكن سورين تعرف أنك فوَّتَّ وجبتك، لذلك احتفظنا بالقليل من أجلك.

تفاجأ برؤية أوكتافيا في انتظارهما، تحمل بين يديها طبقًا فضيًّا. أومأت إليه: «لقد أُمرتُ بإحضار الطعام إلى...».

قال أوك متوجهًا نحو إحدى الطاولات: «كُل، يا بني».

ربَّت على ظهره، ثم اتجه للتحدث إلى بعض الحُماة في ركن من القاعة، فاقتنص الفرصة ليحظى بلحظة مع أوكتافيا، كما أن هذه علامة أخرى على ثقتهم به.

همست أوكتافيا على عجل، وهي تلقي بنظرة خاطفة نحو الرجال: «طلبت مني جلاس أن أجدك. لقد اكتشفت بعض الأمور حول حفل الاقتران هذا. إنه طقس بشع يا ويلز. نحتاج للخروج من هنا. أكره الاعتراف بذلك، لكنني مرتعبة».

- أعرف ذلك. إنهم وحوش. إنما لدي خطة. سيجمعون كل المجندين معًا من أجل حفل الاقتران، أليس كذلك؟

أومأت ببطء، بينما تضع الطبق أمامه: «بالضبط. قالت جلاس إن الحفل سيتم في قلب النواة».

تابع: «لا يمكن أن يوجد جميع الحُماة بالحفل. بالتأكيد، سيلتزم البعض منهم بنوبات الحراسة. لذلك أُراهن أن المجندين سيفوقون عدد الحُماة الحاضرين هناك».

ألقت نظرة أخرى نحوهم: «هل تعتقد حقًّا أننا سنفوق عددهم؟».

أومأ لها: «نعم، كما قلتُ لكِ، أُراهن على ذلك. إذا استطعنا إقناع باقي المجندين بالانتفاض ضدهم...».

قاطعته، وقد ومضت عيناها، وتوهج وجهها بالحماس: «إذن، أصبحت لدينا فرصة حقيقية للخروج من هنا».

- أخبري الفتيات اللاتي تثقين بهن، أن يستعددن للهرب، وحذريهن من التصرف على نحو مثير للشك. سأفعل الأمر نفسه مع المجندين. لا نريد أن يشدد الحُماة الحراسة في أثناء الحفل، نريدهم أن يظلوا على اعتقادهم، أننا نفعل ما يطلبونه منا بامتنان.

توقف للحظة مفكرًا، ثم أضاف: «أخبري جلاس كذلك، إذا استطعتِ. إلى ما توصلتِ له بأمر القوارب؟ هل يمكننا استخدامها؟».

- نعم، سنبلي بلاءً حسنًا. لقد تدربتُ على التجديف.

فغر فاه مدهوشًا: «ماذا؟ متى؟».

- لقد أقنعت الحارسة المشرفة على أعمال الغسيل، أننا نحتاج لتنظيف القوارب، لأنها تلامس النهر الثمين. لذلك جعلتني أتولى مهمة تنظيف القوارب منذ حينها. وكلما نظر الحراس بالاتجاه البعيد، أحمل المجداف وأتدرب.

هز رأسه مبتسمًا: «أنتِ مذهلة، يا أوكتافيا».

هزت كتفيها، وقد اتسعت ابتسامتها: «إنني أستمتع بوقتي».

ثم حملت الصينية وأسرعت الخروج من القاعة.

رافقه أوك إلى حجرته، بعدما انتهى من تناول الطعام. ولم يتوقف عن الثرثرة طوال الطريق: «تقول الأم إننا سنستقر هنا، لكن عملنا مستمر. سنواصل الخروج في حملات بهذه المنطقة شمالًا وجنوبًا؛ ربما توجد قرى أخرى بالقرب من هنا. إننا نخطط لإنشاء عدة مجتمعات، مثل مجتمعنا هذا، حتى لا يبقى أي شعب آخر غيرنا، إذا أرادت الأرض».

ردد ويلز بنبرة ساخرة قليلًا: «إذا أرادت الأرض»، ولم ينتبه أوك، الذي وضع ذراعه على كتفيه، في أثناء انعطافهما عند الزاوية.

- يمكنك أن تشاركنا تنفيذ ما نطمح إليه، يا بني. إذ أثبتَّ أنك صرت منا. يمكنني أن أرى أن وجودك معنا إضافة كبيرة لنا.

قال ويلز في حزن: «إنه لمن دواعي سروري، يا أوك».

عند وصولهما، رأى الحارسَين اللذين اقتاداه إلى جحور الحجز قبل ساعات، ليُستجوَب. أما الآن، فهما يبتسمان له، ويربتان على ساعده.

سبقه أوك، فيما رفع أحدهما حاجبيه، قائلًا: «سمعنا أنك قدمت تضحيتك الأولى الليلة. خيرًا للأرض. مرحبًا بك بين الحُماة».

بالكاد حرك ويلز شفتيه: «أشكرك».

هل هكذا يطلقون على جرائم القتل التي ارتكبوها؟ تضحية؟

أبقى أوك باب قفصه مفتوحًا من أجله، حيث وجد كل المجندين يغطون في نوم عميق داخل أقفاصهم. قال أوك قبل أن يحجزه داخل قفصه: «احصل على قسط وافر من الراحة، يا بني. مع شروق شمس الغد، ستصبح أحد الحُماة رسميًّا، وستحتاج أن تبذل كل طاقتك من أجل ذلك. سنعود لإخراجك بعد قليل».

ما إن غادر أوك، استند على الفراش، وانحنى هامسًا باتجاه القفص المجاور: «إريك!».

لم يَرُد. تشير وتيرة أنفاسه العميقة، أنه غارق في النوم. ساوره القلق؛ إذا لم يستطع التحدث إليهم الليلة، يجب أن يحاول في الصباح. يتمنى أن يفعل ذلك في الوقت المضبوط.

***

فُتح الباب ثانيةً. دخل أوك وبدأ يحل الأقفال واحدًا تلو الآخر، بينما يصيح مبتهجًا: «انهضوا وتألقوا، أيها المجندون. لقد اقترب شروق الشمس. ارتدوا ملابسكم، وسنعود عندما تجهزون. ستصيرون من الحُماة اليوم، إذا أرادت الأرض».

بمجرد أن أوصد الباب، خرج الجميع من أقفاصهم. حاول أن يلفت انتباه إريك وكيت، لكنهما أشاحا بنظرهما بعيدًا.

نظر إليه المجند الأصغر سنًّا الذي صاحبه إلى موقع المزرعة: «لقد سمعنا أنك قتلت جراهام».

إذن، لهذا السبب لا يعيرانه أي انتباه. إنهما لا يثقان به بما يكفي.

أفصح ويلز لهم، بصوتٍ عالٍ: «لم أفعل شيئًا. لقد قتل جراهام نفسه لإنقاذنا».

كتم أنفاسه، عندما سرت موجة من الغمغمات بأرجاء العرين. تقدم للأمام، وتابع: «لم يرغب جراهام إلا في عودة شعبه سالمًا، ومات بطلًا في سبيل تحقيق ذلك».

تشنجت كتفاه، بينما أخذ يتحقق من ردود فعل المجندين الآخرين. حيث يتبادلون نظرات متوترة فيما بينهم، رغم الضعف البادي بأعينهم. *إنهم يأملون النجاة.*

خطا نحو المجند الأصغر سنًّا، وسأله: «ما اسمك؟».

أجابه الفتى، وقد اتسعت عيناه من الخوف: «أُدعى كوب».

تابع مبتسمًا: «إنني سعيد بمعرفتك، يا كوب. أُدعى ويلز. من أين جئت؟».

شهق البعض لجرأة السؤال. يعرف أنه من الأسئلة المحرمة هنا. من المفترض أنهم نسوا ماضيهم منذ اغتسالهم بالنهر.

تلعثم كوب: «جئت من.. من هنا. أنتمي إلى النواة».

هز ويلز رأسه في صبر: «أقصد قبل ذلك».

شحب وجه الفتى، لكنه أخذ نفسًا عميقًا.

- جئتُ من.. الجبال.

- حدِّثني عنها.

شرد متذكرًا: «إنها.. قرية صغيرة في وادٍ جبلي، تستغرق المسافة أسبوعًا حتى هناك. عثر علينا الحُماة وأخذوني معهم إلى حصن النواة. كنا نرعى الأغنام، اعتادت والدتي غزل الصوف، ووالدي...».

تهدج صوته، وتلألأ الدمع بعينيه. يبدو أن ذكريات كل من فقدهم تختنق بحلقه في هذه اللحظة. ضغط ويلز على كتفه، ثم التفت لصف من الفتية الأكبر سنًّا من كوب. سألهم: «وماذا عنكم؟».

قال أحدهم بجفاء، ونظرة جامدة: «لقد محونا كل شيء في النهر».

أومأ له، متفهمًا. إما أن هذا الفتى أحد المُصَدِّقين، وإما يعتقد أنه يُختَبَر. يمكنه حقًّا أن يستشعر الخوف الذي يطوف بينهم. انتبه أن المجند الأكبر سنًّا بينهم يراقبه من كثب.

قال بنبرة أعلى: «إن موطني الحقيقي، يقع على بُعد أيام قليلة إلى الغرب. إنه مخيم، بناه مِئةٌ منا. بنيناه بأيدينا وعرقنا ودمائنا، منذ تحطمت سفينتنا على الأرض. عملنا جاهدين من أجله.. وقد أعد نفسي خائنًا له، إذا محوت هذه الذكرى للأبد، من أجل إرضاء جماعة من القتلة، يقولون: *إن هذه إرادة الأرض*».

رفع يديه مشيرًا بعلامتَي تنصيص، فتبعتهما ضحكات خافتة. استطرد بقلب يخفق في حماس، مشيرًا لقفصه الفارغ: «عندما أستيقظ كل صباح، وأجد نفسي ما زلت هنا، أتذكر ما حدث لأحبائي، ولمنزلي. إن الأمر الوحيد الذي يدفعني للخروج كل يوم من هذا القفص، هو *الانتقام*».

أومأ العديد من المجندين برؤوسهم، ورأى إريك وكيت يتبادلان نظرات مشرقة بالأمل. ارتفع صوته أكثر بينما يمر بين الصفوف: «لكم أن تفكروا كيفما يتراءى لكم، إلا أنني أريد إخباركم بما أفكر فيه. لم يمحُ النهر شيئًا. ما تزالون جميعًا، كما أراكم، صامدين ويعتمل الغضب بصدوركم».

أشار إلى الباب الموصد، وقال: «لا أعرف إذا ما يمكنني اعتبارهم بَشَرًا. لكننا كذلك. نهتم لماضينا. نهتم بديارنا، نهتم بشعبنا».

اتقدت أعينهم، وتوهجت وجوههم بالغضب.

صاح ويلز، وصاح الجميع مؤيدين: «أعتقد أنني لن أعيش لحظة أخرى كوني واحدًا منهم. عندما يقودوننا إلى قلب النواة، سنقاومهم. إن مدة أسرِنا تنتهي اليوم. مَن معي؟».

دوَّت فرقعة هائلة، تصم الآذان. ضربت الجدران والأرض، وهزت كيانه. تنحى جانبًا، قبل أن تسقط قطعة ضخمة من السقف. نهض بقية المتمردين عن الأرض ببطء، في محاولة لاستعادة توازنهم، فيما ينظرون حولهم في ذهول.

صاح إريك: «ماذا يحدث؟».

قال في نفسه: *إن أحدهم ينسف هذه الجدران اللعينة.*

قبل أن يتمكن من تبيُّن حقيقة الأمر، دوى انفجار أقرب هذه المرة. كأن الجدران كلها على وشك الانهيار. جاهد لينهض، وهرول مترنحًا نحو الباب.

صرخ فيهم جميعًا، ملوحًا باتجاه المخرج: «هيا، تحركوا!».

سأله كوب، الذي قبض على ذراعه: «إلى أين سنذهب؟».

قعقعت الأرض إثر انفجار آخر. وقد صاحب الطنين أذنيه، هذه المرة، ضجيج وصرخات عالية، حتى إنه صاح بأعلى صوته: «ما رأيك لو نعود للوطن؟».

اتسعت ابتسامته في سرور مبالغ فيه: «إنه أروع ما سمعته على الإطلاق!».

الفصل الثامن والعشرون

جلاس

هذه أكثر ساعة كئيبة ومحبطة مرت عليها بحياتها، وشروق الشمس على وشك البزوغ، معطيًا إشارة البدء بطقس الاقتران.

منذ دقائق، أيقظتها مارجو، وأمرتها بإحضار باقي المجندات، لتقودهن إلى مصيرهن المظلم. ارتجفت أوصالها، بينما تنهض من الفراش، وتجبر نفسها على ارتداء زيها الأبيض، وتضفير شعرها للخلف.

لا يمكن أن يحدث هذا. من المفترض أن ويلز قد توصل إلى خطة للهروب. أيحتمل أن أوكتافيا لم تتمكن من إخباره؟ أو ربما غادر أصدقاؤها دونها. تقلصت معدتها من الرعب وتشنجت.

سارت شبه مذهولة في الردهات المظلمة، تتبعها مارجو، التي فتحت باب عرين النساء، ما إن وصلتا إليه. خطت جلاس للداخل، ويداها ترتعشان. وجدت جميع الفتيات مستيقظات بالفعل، وجالسات على الأفْرِشة، يرتدين ثيابًا مهندمة من أجل الحفل. جذبت انتباه أوكتافيا، لكن ظل وجهها جامدًا، خاليًا من أي تعبيرات.

قالت لهن جلاس: «لقد حان الوقت».

بينما تمر الفتيات من أمامها، في طريق خروجهن من الباب، ضغطت أوكتافيا على يدها سريعًا.

قادتهن مارجو، وتبعتهن جلاس، وهي تحاول الحفاظ على خطوتها ثابتة، فيما تحدق حولها في عصبية شديدة -الردهة متداعية السقف إلى اليسار، الدرب الأمامي المتعرج إلى اليمين بمحاذاة الأنقاض- تبحث بعينيها عن أي وسيلة للخروج من هذا المأزق أو للفرار من هنا.

لم يفُت الأوان بعد. بدلًا من التحرك إلى قلب النواة، يمكنها أن تجذب أيدي صديقاتها، وتقودهن في الاتجاه الآخر. يمكنهن الركض حتى المدخل الأمامي، وماذا بعد؟

كيف يمكنهن العبور أمام الحراس المنتشرين عند المداخل دون قتال؟ وحتى إذا فعلن ذلك، كيف يمكنها التأكد أنهن جميعًا سيستطعن الهروب، والنجاة بالخارج، خاصة والشتاء قد اقترب، ولا يعرفن أي أخطار أخرى بانتظارهن هناك؟

توقفت عن الحراك، وأغلقت عينيها. أخذت نفسًا عميقًا، وهيأت نفسها لتحذير هؤلاء الفتيات من مصيرهن على أيدي الحُماة. وقبل أن تتمكن من قول كلمة واحدة، اندفعت إليها أوكتافيا وقبضت على ذراعها، في غفلة من مارجو عند مقدمة الصف، وقد ومضت عيناها محذرة، ثم همست بأذنها: «ليس بعد. لدى ويلز خطة سننفذها قريبًا. نحتاج فقط أن نستعد للهروب».

عادت للصف بهدوء. تأملت وجوه الفتيات في اندهاش، ترى على جانبَي شفاههن توترًا ممزوجًا بالخوف، بينما تبرق أعينهن في تصميم. كلهن يعرفن بخطة ويلز.

غمزت بعينيها إلى أوكتافيا، فأومأت، ثم اعتدلت ورفعت ذقنها في اعتداد، محدِّقةً إلى الطريق أمامها في جمود. *للأمام معًا، إذن.*

تابعت جلاس تقدمهن، وقلبها يخفق بحدة، حتى وصلن إلى قلب النواة. تعثرت في خطواتها مذهولة. ربما اتخذن منعطفًا خاطئًا. لكن لا، هذا مستحيل، فقد أصبحت تحفظ كل شبر بالحصن عن ظهر قلب. لذلك فهي متأكدة من أن هذا هو الاتجاه الصحيح، غير أن... *هذا* جنون.

أمعنت النظر في بناء مقزز في منتصف البستان: مقصورة مشيدة بعناية من العظام- *عظام بشرية*. تقف أعلاها القائدة الأعلى في سرور، كأنها ملكة تنتظر رعاياها لتباركهم.

جالت سورين ببصرها بين الفتيات، حتى وقعت عيناها على جلاس، ووجهت لها ابتسامة المحبة ذاتها، التي أدفأت قلبها من قبل، وشعرت حينها أنها مميزة ومقبولة في مجتمع جديد. أما الآن، فترى تلك الابتسامة على حقيقتها، حيث تُخفي خلف مشاعر الأمومة الجذابة، جريمتها البشعة في غسل أدمغة شعبها. تقنعهم بأسلوبها اللطيف الناعم أن فِعلًا فظيعًا مثل مراسم هذا الاقتران، طقس مقدس ترضاه الأرض.

ما إن بدأت سورين خطابها، تلفتت جلاس باحثة في يأس عن ويلز. لم يصل أي مجند إلى قلب النواة بعد.

قالت: «مرحبًا بكن، يا بناتي العزيزات. إنني أقف اليوم على العظام التي دُفِنت ذات مرة في الأرض، عظام الناهبين الأنانيين الذين أدى جشعهم إلى نكبة الأرض الحبيبة. ومن واجبنا نحوها، أن نخرج المدنسات، كهذه العظام، من باطنها. إن طقس الاقتران هو وعدنا للأرض، لذلك نُجري مراسمه فوق هذه العظام، لنتذكر أننا أنشأنا مجتمعًا متأملًا وأفضل. أنتُنَّ هبة الأرض إلينا، والآن، علينا رد الجميل، وغرس البذور التي...».

بالكاد تستمع إليها جلاس من خلال نبضات قلبها المنتفضة. على يمينها، تقف أوكتافيا على أطراف أصابعها متأهبة للركض، حين تأتيهن الإشارة.

أغمضت عينيها، تحاول تصوُّر أفضل طريقة للخروج من هنا. يمكنهن التوجه غربًا، ثم إلى الجنوب، ومن هناك يعبرن الدهليز المؤدي للحقل مباشرة.. تحتاج فقط الانتظار حتى...

دوت فرقعة، قطعت عليها أفكارها، وأجبرت سورين على وقف خطابها. ما إن فتحت عينيها، ارتجت الأرض تحت قدميها. تعلم جيدًا مصدر هذه الفرقعة. إنها المتفجرات نفسها.. التي دمرت مخيمها، واختُطِفت بعدها مباشرة. غير أنه بالنظر إلى وجوه الحُماة، أدركت أنهم ليسوا مَن فجروها.

دوى انفجار ثانٍ ضرب الجدران الخارجية للحصن. لكن ارتجاج الأرض بتلك الطريقة، يدل على أن تلك الجدران لا تنهار وحدها، بل إن حصن النواة بأكمله يتداعى على نحو خطير. وكذلك هذه المقصورة بدأت في التأرجح والتداعي، فيما تنفصل عنها العظام.

صاحت جلاس، وهي تدفع الفتيات ليبتعدن عن الفناء: «تراجعن!».

لبرهة، بدت سورين مذهولة، ثم استدارت نحو مساعداتها: «ابحثن عن الرجال وانطلقن نحو مستودع الذخيرة!».

من فورهن، خرجت النساء ذوات الزي الرمادي على أعقابهن مهرولات، تنفيذًا لأوامرها.

تحركت سورين، لتنزل من المقصورة، فاهتزت الأرضية العظمية، وسقطت إحدى قدميها بين الشقوق. تطلعت حولها، ولم تجد إلا جلاس، فصاحت: «ساعديني.. أسرعي!».

التفتت جلاس إلى بقية الفتيات، وقالت لهن على عجل: «اركضن غربًا نحو النهر. اعبرن من هذه الدهاليز، فجدرانها يمكنها الصمود. هيا اذهبن».

نادتها سورين ثانيةً: «جلاس!».

ابتعدت متجاهلةً التساؤل الذي لمحته بعينَي أوكتافيا وآنا.. *ألن تذهب معهن؟* وفي طريقها نحو سورين، التي تمد يدها، طلبًا للمساعدة، ضربَ الأرضَ انفجارٌ حادٌّ، كأنه يرج الكوكب بأكمله، حتى يكاد يُخرِجه عن مداره.

تأرجحت المقصورة بقوة للأمام والخلف، ثم انهارت، تسحق كل شيء تحتها، بما في ذلك سورين. تصاعد دخان كثيف، اخترق حلقها، فسعلت وغطت عينيها. سمعت من خلفها الفتيات، يهرولن، ويصِحن لبعضهن بعضًا في اتجاه الخروج. تقدمت للأمام مترنحةً، ودققت النظر خلال الدخان العنيد.

لمحت جسمًا ويدًا ممدودة، وعينين على اتساعهما. لقد علقت القائدة تحت ما تبقى من المقصورة، التي صارت كومة من العظام. صاحت بعصبية: «أخرِجيني من هنا. عليكِ مساعدتي يا جلاس».

اقتربت ببطء، وعيناها تلتفتان نحو الجدار القريب، حيث تزعزعت عارضته المعدنية هائلة الحجم، عقب الانفجار. لن يحتاج الأمر أكثر من هزة ريح، وستنهار العارضة والجدار، فوق رأسيهما.

تابعت سورين بلهجة، تجاهد لتشبه لهجتها السابقة اللطيفة الهادئة، التي اعتادتها: «لا تنظري إلى هذا. انظري إليَّ»، مما جعل جلاس تتراجع في تمرُّد، وهي لا ترى في عينَي هذه السيدة الباسمة، غير نظرة حادة كالنصل.

نظرت إلى العارضة المعدنية، التي بدأت تهتز بعنف. تصورت نفسها للحظة، تتقدم نحو سورين، وتسحبها من تحت العظام، قبل أن تسقط العارضة مباشرة. عندها، تجسَّد أمام ناظريها مشهد آخر. ترتمي والدتها على صدرها لتحميها، في رجاء لنجدة ابنتها، فتموت بدلًا منها، ليتحقق رجاؤها الأخير.

قالت سورين: «أتوسل إليكِ، يا ابنتي».

هزت رأسها في اشمئزاز: «لستُ ابنتك. لسنا بناتك».

زمَّت سورين شفتيها، واختفى أي أثر للدفء منهما، كما يتبخر السراب في الصحراء.

تراجعت بضع خطوات.

- لم تحظَيْ بأم حقيقية، أليس كذلك؟

أغمضت سورين عينيها، ولم تُجِب.

تراجعت بضع خطوات أخرى.

- حسنًا، كانت لدي أم، أم حقيقية. هل تعرفين ماذا تفعل الأمهات في العالم الحقيقي؟ إنهن يحمين أبناءهن.

انجرفت مشاعرها دفعة واحدة، مع تذكُّر المخيم، قرية الأرضيين، وعربة النقل التي انتشلتها من وطنها، ثم انتقالها من حجرة إلى أخرى داخل هذا البناء الملعون، بصحبة أسيرات بائسات، وفوق ذلك كله، يتكرر هذا العذاب على أيدي هؤلاء، جيلًا بعد جيل.

ارتجفت صائحة: «لستِ أمًّا، يا سورين، بل وجهًا آخر. إنكِ تخدعين شعبك، ليقتلوا من أجلك كل من يعترض طريقكِ. إنكِ تفعلين عكس ما تفعله الأمهات لبناتهن تمامًا. تعرضينهن في طقوس مريعة. لستِ أمًّا، بل كابوسًا».

اهتزت الأرض تحت قدميها، ما إن ضرب انفجار رهيب آخر الجدران الشرقية. صرخت سورين، حتى تلاشى صوتها، وسكن تمامًا: «سأموت إذا تركتِني هنا!».

في حين انسابت الدموع على وجنتَي جلاس، تقاوم رغبة مُلحة في العودة إليها.

قالت: «إذا أرادت الأرض ذلك».

دفعت نفسها مبتعدة، لا تفكر إلا في الهروب: *اتجهي للغرب. اعبري من الدهاليز. اخرجي إلى الحقل، ثم اركضي، اركضي، ولا تتوقفي.*

سمعت عويلًا مرعبًا من خلفها. إنها صرخات سورين. يبدو أن العارض قرر السقوط أخيرًا. واصلت الركض دون أن تنظر، وعلى الرغم منها، انفطر قلبها.

الفصل التاسع والعشرون

كلارك

كتمت أنفاسها، واللهيب البرتقالي يحرق عينيها، بينما تشاهد آخر قنبلة تنفجر على طول الجدار الخارجي الضخم. جفلت على إثر دوي الانفجار الأخير، مثلما حدث مع المرات الثلاث السابقة تمامًا.

إلى جانبها، أطلق بيلامي صيحة فرحة، بينما يستعيد لوك الجاثم على ركبتيه توازنه، وهو يبتسم في ارتياح. لقد أجروا أربعة تفجيرات ناجحة، ولم يبق أمامهم غير الهجوم.

أطلت كلارك برأسها من وراء الأنقاض، تراقب ظلال فيليكس وجيسا وفال، وهم يهرعون إلى داخل الفتحات التي أحدثتها قنابلهم في جدران هذا الهيكل المتهالك، الذي فقد صلابته. لم يشاركهم بول، فقد آثر البقاء بالمعسكر، يرتعد كالجبان.

ما إن بدأ لوك بالنهوض، رفع بيلامي يده، محذرًا: «انتظِر إشارة فيليكس، حتى نتأكد أولًا أن الطريق آمن».

أسندت كلارك يدها على الكتل الخرسانية المتهدمة أمامها، حدَّقت إلى آخر بقعة رأت فيها بقية الفريق. لهثت عند سماع طلقات نارية، يطغى طنينها على زفير النيران التي تلتهم الجدران المرتعدة. أحكمت قبضتها على سلاحها في تأهب، وشابكت أصابعها داعيةً: *آمل أننا مَن نطلق النار، ولا تُطلَق علينا.*

ظهر فيليكس من بعيد، ملوحًا بشعلة بين يده. ثم التفت ناظرًا وراء ظهره، وهرول للداخل مجددًا.

همس بيلامي: «لنتحرك. هيا».

أسرعوا يركضون، تاركين خلفهم كومة الأنقاض، التي اتخذوها درعًا لهم. ركضت كلارك، وهي تغطي وجهها وذراعيها، وقد ضاقت أنفاسها، حتى اقتربوا من أعمدة دخانية كثيفة. جاهدت كي لا تنظر إلى الأعلى نحو الجدران المتأرجحة، التي صارت أكثر رعبًا من ذي قبل. عليهم الدخول والخروج سريعًا، قبل أن تنهار على رؤوسهم.

صوبت الفوهة للأمام، وهي تخطو للداخل، يقودهم بيلامي. تضاربت نبضات قلبها، متطلعةً بالأرجاء، ولوك يسير وراءها لتغطيتهم. يتابعون التقدم في ذهول، من مقدار الضرر الذي أصاب ما يشبه مدينة كاملة. لم تستطع التفرقة بين آثار القنابل التي فجروها، والانفجارات التي حدثت بالماضي. لقد حققت خطة لوك نجاحًا هائلًا في ضرب أساسات البناء على نحو أفضل مما قد يتوقعه أحد. أخذت الجدران تلتوي، وترعد في قعقعة رهيبة، بينما ينهار سقفها.

قالت، مشيرةً لهما بالاتجاه الآخر: «اذهبا من هنا، وابحثا عن الآخرين، قبل أن ينهار هذا الجانب! سأبحث عن فيليكس وجيسا وفال، وأتوجه معهم نحو مستودع الذخيرة».

انطلق لوك على الفور، لا بد أنه يفكر في احتمال وجود جلاس بالقرب من هنا. لكن بيلامي تردد لبرهة طويلة، ثم تبعه.

شحذت همتها، وحملت البندقية في وضع الإطلاق. لم تمر لحظة، حتى ظهر عند الزاوية المتهدمة، أجسام في ثياب بيضاء، يهرولون باتجاهها. صوبت الفوهة نحو أطولهم، قبل أن تتضح أن أحدهم... كادت تسقط البندقية من يدها تحت وطأة الاندهاش. إنه ويلز. لقد بدا مذهولًا برؤيتها أمامه. عندما أدرك الأمر، أسرع الخطى نحوها، وعانقها في سرور.

تراجعت خطوة لتنظر إليه: «هل أنت بخير؟».

أجابها، وهو يمسح العرق عن جبينه: «نعم».

سألته: «وإريك؟».

أشار إلى الفتى الطويل، الذي كادت تُرديه: «إنه بخير هناك».

- وجراهام؟

هز ويلز رأسه، ولمعت عيناه في ألم. فحدَّقت إلى الرجال خلفه، قائلة: «هل هؤلاء مِن...؟».

- إنهم معنا، أو هكذا يريدون. سأشرح لكِ كل شيء.

صدرت قعقعة عالية من فوقهم. فنظرت إلى أعلى لتجد صدعًا عميقًا يتمدد من السقف إلى الجدار. قبضت على ذراع ويلز وجذبته بعيدًا. صاحت: «اشرح لي لاحقًا. يجب أن نخرج في الحال، قبل أن ينهار البناء».

قفزوا من خلال الفتحة التي خلَّفتها القنابل. وبمجرد أن ابتعدوا عن الجدران المنهارة، أخبرها ويلز في إيجاز عن تشجيعه لباقي الأسرى، للانتفاض ضد الحُماة، وأنهم تجهزوا لبدء ذلك عند تجمعهم هذا الصباح. عندها، دوى الانفجار الأول، ودبَّت الفوضى بكل الأرجاء.

سألها، فيما يشاهدون مدخل الحصن ينهار: «ما هي خطتكم بالضبط؟ هل أردتم تفجير الحصن ونحن بداخله؟».

جفلت: «لا، أردنا أن نسقط الجدران الخارجية فقط. اتخذنا أسرع طريقة ممكنة لإنقاذكم. لكننا لم نعرف أن الأساسات مهترئة إلى هذا الحد».

أطال التحديق إلى الحطام متجهمًا: «لقد هاجمنا الحراس بالثكنات، واستطعنا الهرب. أما الفتيات، فلا يزلن بالفناء، على ما أعتقد. وبالتأكيد، هرع بقية الحراس نحو المستودع. لا أعتقد أنهم سيستسلمون بسهولة، يا كلارك. علينا أن نتجهز للقتال».

ابتسمت: «لقد تحسبنا لذلك بالفعل. إذا توجهوا إلى هناك، سيجدون مفاجأة غير سارة بانتظارهم».

هرولت باتجاه الغابة، يتبعها ويلز، إلى حيث مخبأ الأسلحة التي سرقوها من المستودع. اتسعت عيناه، ثم نادى على باقي المجندين، الذين تبعوه. فاقتربوا وتسلح كلٌّ منهم. إذا أراد الحُماة القتال، فهم على أتم الاستعداد.

نظر ويلز لما تبقى من الحصن، وعيناه تبرقان في تصميم: «علينا إخراج الفتيات. لنتجه إلى الجانب الغربي. إذا وجدنا البوابة بذلك الجانب، لا تزال تحت الحراسة، سنقاتل للدخول».

لقد عاد ويلز الذي تعرفه أخيرًا.

قالت باسمة: «قُد الطريق أمامنا».

عند وصولهم، فاجأهم الهدوء المريب بهذا الجانب. لقد خلت البوابة من الحراس. أشار ويلز إليها بعينيه محذرًا، وتقدمهم حتى يتأكد أن الطريق آمن. ثم لوَّح لها وللبقية أن يتبعوه.

سألته، بينما تجول ببصرها في الفناء المتفحم: «إلى أين؟».

لم يتضرر هذا الجانب من الهيكل بعد، لكنها سمعت من بعيد بعض أجزائه تنهار. ليس أمامهم وقت طويل، حتى ينهار بأكمله.

قال، قبل أن يومئ باتجاه اليسار: «ربما لا تزال الفتيات في قلب النواة، لذلك... اتبعوني».

قبل أن يتقدموا بضع خطوات داخل البناء، سمعوا ضجيج حشد من الناس يتجهون نحوهم. توقفت كلارك والرجال، في استعداد لمواجهة جيش من الغزاة.

لدهشتها، لم ترَ سوى حشد كبير من الفتيات. يرتدين فساتين بيضاء حتى الكاحلين، وشعرهن منسدل على الأكتاف. هللت إحداهن: «كلارك!».

جفلت متفاجئة: «أوكتافيا؟»، ثم أشارت للخط الأمامي، أن يسمح لها بالمرور.

لا تصدق أنها أمام ناظريها الآن، وتهرول باتجاهها بعينين لم ترهما مشرقتين على هذا النحو من قبل. نشجت في تأثر، وتهيأت لتستقبلها بين ذراعيها، وتعانقها بلهفة شديدة. لا تحتاج هؤلاء الفتيات إلى حماية، لقد استطعن حماية أنفسهن جيدًا.

سألت أوكتافيا، مشيرةً برأسها تجاه الجانب الشرقي، قبل أن تتركها لتعانق ويلز: «هل أنتم من أجرى هذه الانفجارات؟».

أومأت لها. ثم لمحت فتاة ذات شعر مجعد تنظر إليها بإعجاب، وعلى وجهها ابتسامة عريضة: «يا لكم من أقوياء!».

أشارت أوكتافيا بيدها نحو الفتاة: «كلارك، هذه آنا. آنا، هذه كلارك.. ما رأيكما أن نؤجل التعارف بشكل أفضل إلى أن نخرج من هنا؟».

قالت كلارك: «لديكِ حق».

ثم هرولن نحو الباب معًا.

- أين جلاس؟

أجابتها أوكتافيا لاهثة: «لم أرها. لكنها تعرف خطة الهروب. سنبحث عنها».

قادهم ويلز جميعًا نحو المخرج، وقبل الوصول بقليل، جذبت كلارك قبضةُ يد بقسوة للخلف، فاضطربت نبضاتها في رعب شديد. ضرب ظهرها الأرض. فوجئت بامرأة شقراء في ثياب رمادية تقف فوقها، وعيناها تتقدان بغضب وحشي، وترفع خنجرًا لأعلى.. لتغرزه برقبتها مباشرة.

وُجِّهت لكمة قوية بوجه المرأة، جعلتها تشهق بحدة، قبل أن يرتطم رأسها بالجدار الحجري، وينزلق مع جسدها حتى افترشت الأرض. التفتت كلارك نحو أوكتافيا، لتجدها تترنح، محتضنةً يدها الملطخة بالدماء.

تهللت أسارير آنا، قائلة: «لقد انتظرت أوكتافيا لوقت طويل لتفعل ذلك».

سألت كلارك، فيما تجاهد لتنهض: «هل هذه المرأة إحدى قائداتهم؟ ربما يمكننا أسرها، من أجل التفاوض على عقد...».

استنكر ويلز عابس الوجه: «هدنة؟».

مسحت كلارك الغبار عن وجهها، ناظرةً بعينيه: «ولمَ لا؟ ليس لديهم أي ذخيرة. لذلك، سنظل اليد العليا».

- حسنًا. لنأسرها.

لم يقطعوا أكثر من بضع خطوات، عندما سمعوا أصواتًا جعلتهم يتوقفون في حيرة. فقد علت صيحات مختلطة مريبة لحشد آخر من الناس.

بعد لحظات قليلة، ظهرت مجموعة من الأشخاص المألوفين: بيلامي، لوك، فيليكس، جيسا، فال، يسارعون الخطى باتجاههم في فرحة عارمة. اتسعت عيناه لمرأى كلارك، ثم غمره موجٌ من الارتياح، عندما وقعت عيناه على أوكتافيا، ثم ضاقت حدقتاه، وصرخ بكلمة واحدة: «اهربوا».

هرولوا خارجين إلى حيث تشرق الشمس في توهج ناري عند الأفق، وضوؤها منعكس على الهيكل المدمر، الذي تلتهمه نيران حقيقية خلفهم. استمروا بالركض حتى رأوا حركة متدفقة على مسافة قريبة. لقد وصلوا إلى ضفة النهر.

ارتدت كلارك للوراء حتى وقفت جنبًا إلى جنب بيلامي بالصف الأمامي، استدارت، وأعادت تعبئة بندقيتها، في استعداد للمواجهة الأخيرة. اندفع حشد من الغزاة خارجًا من الهيكل، في جنون وحشي.

لن يُرتكب أي خطأ هذه المرة، هؤلاء الغرباء أعداؤهم بالفعل. تسلح بعض الرجال مرتدي الأبيض بالبنادق، وتسلح البعض الآخر بالعِصي. تقودهم ثلاث نساء يرتدين فساتين رمادية. مما جعلها تتذكر أمر...

دفعت بالمرأة التي هاجمتها أمامها، وضغطت الفوهة على رأسها. صاحت كلارك بوجه أقربهم: «توقفوا، وإلا أطلقت النار عليها».

جمدوا بأماكنهم في تردد، بينما القائدات، يتطاير الشرر من أعينهن.

استطردت: «لقد حصلنا على أسلحتكم، وحررنا أسراكم. حررنا شعبنا من بين أيديكم. كما دُمِّرَ حصنكم. إننا نفوقكم عددًا، ليست أمامكم فرصة للانتصار علينا. يمكننا أن ننهي الأمر بيننا دون اللجوء للعنف. غادِروا هذه المنطقة، واتركونا نعيش بسلام، ولا تعودوا أبدًا».

راقبت الحشد المسعور، يسكنون في أماكنهم، ويلقون أسلحتهم على الأرض، كأنهم.. يعلنون استسلامهم. عندها تقدمت إحدى القائدات للأمام، وثارت غاضبة: «لا، لقد أعلنت سورين أن هذا موطننا. قالت إن الأرض أرادت ذلك. لن نغادر ما لم تأمرنا سورين».

قبل أن تتمكن من الرد، قالت آنا، مشيرةً إلى شيء ما خلف المرأة: «يا إلهي».

إنه جسم في ثياب بيضاء، يزحف عبر نافذة محطمة، والنيران تستعر من خلفه. تساءلت كلارك، مدققةً النظر: «هل هذه جلاس؟».

التفت الجميع -الغزاة، والأسرى، وفريق الإنقاذ، على حد سواء- يراقبونها تقترب متعثرة، مغبرة الهيئة، لكن شامخة متحدية، تصيح: «لقد ماتت.. سورين».

الفصل الثلاثون

جلاس

خطت باتجاه أصدقائها مرتجفة، تطاردها صرخة سورين المميتة. عند حافة الهيكل المحطم، رأت الحُماة يرتدُّون للخلف، ويلقون الحجر من أيديهم، والعِصي، وحتى بنادقهم، يحدقون إليها وإلى أصدقائها في اضطراب. صار هؤلاء القتلة، فجأةً، ضائعين، وعاجزين تمامًا عن فعل أي شيء.

دون سورين، لا معنى لوجودهم.

بينما صار الأصدقاء أحرارًا آمنين.

هبت ريح ساخنة من ناحية النواة، جعلتها تتصور النيران تلتهم كل شيء وكل أحد في طريقها، بدءًا من الفناء، الذي لم يعد به بستان. تنشقت الهواء بعنف، وأجبرت نفسها على النظر بعيدًا، لتتأمل، بدلًا من ذلك، النهر القابع أمامها، عند الجانب الشرقي. حيث انفلق الفجر، مفسحًا المجال لشروق شمس برتقالية، يكفي ضوؤها ليمحو آثار الحصن المشتعل من ذهنها.

طرفت بعينيها مرات متتابعة، حتى تكيفت عيناها الضوء الساطع، لتدرك الظل الداكن الواقف أمامها، لشاب طويل القامة.. مألوف على نحو مؤلم. فغرت فمها. ابتسم لها، فانتحبت في حرقة. لمست وجهها، للتأكد أن ما يحدث حقيقي.. لا تزال على قيد الحياة، واعية ومدركة. تراه واقفًا أمام ناظريها.. مدت يدها بحذر، لتلمس وجنتيه بأطراف أصابعها، كما لو أنه خيال قد يتلاشى في لحظة.

إنها لا تهذي، إنه هنا بشحمه ولحمه. يخفق قلبه بوتيرة مستقرة، وتشعر بأنفاسه، رغم ذلك، مضطربة، وهي تمرر يديها على شفتيه وعنقه وصدره. عندها فقط، تجرأت على مناداته: «لوك».

دمعت عيناها بمجرد أن نطقت باسمه، وأجهش مبتسمًا لها. طوقت رقبته، وقبَّلته، ودموعهما تزداد انهمارًا. تبدل بالخوف العجب والامتنان لعودتهما سالمَين إلى بعضهما بعضًا.

تراجع مقطبًا حاجبيه، بينما تستشعر دفء صدره: «إنكِ ترتعدين. هل أنتِ على ما يرام؟».

افترَّ ثغرها عن ابتسامة شاردة: «إنني بأفضل حال».

صاح صوت رجولي واثق، يبدو كأنه بول، أحد حراس المخيم: «حسنًا يا رفاق. بدأت النيران في الانتشار. علينا أن نسير مع النهر، للحفاظ على سلامتنا».

هز لوك رأسه، وقال ساخرًا، فيما يتبادل نظرات دهشة مع بيلامي: «هذا الرجل لا يُصدَّق».

أطلقت كلارك ضحكة قصيرة خافتة: «للأسف، إنه على حق. هلَّا تحركنا؟».

تقدموا في مسيرة بطيئة، نظرًا إلى عددهم الذي تضاعف، كما أن الأجواء حولهم صارت مفعمة بالهدوء والأمل.

تطلَّع لوك حوله، وقد اتسعت عيناه: «من أين جاء كل هؤلاء الناس؟».

قالت جلاس، ناظرةً نحو آنا وأوكتافيا، وباقي الفتيات: «هؤلاء الفتيات هناك، اختُطِف بعضهن من ديارهن، وبعضهن اتضح أنهن من المستوطنة. انحرفت سفن الإنزال الخاصة بهن وتحطمت بالقرب من هنا».

تلفَّت مذهولًا: «ماذا؟ هل تعرفتِ على أحدٍ من أصدقائنا؟».

تعلم أنه يفكر في أصدقائه الذين تركهم خلفه في والدن. من المفترض، أنهم هبطوا على الأرض معها.

- لا، لم أقابل أحدًا منهم بعد.

نقل بصره من جانب إلى آخر، ثم تنهد، عندما لم يجد من بينهم وجهًا يعرفه.

تابعوا السير في صمتٍ بمحاذاة النهر المنحني، فيما يحدق إلى ظهورهم آخر الحُماة المغادرين بأعين خاوية.

انتبهت إلى ويلز، الذي توقف عن السير، فسألته: «هل تعرفه؟».

أومأ لها: «إنه أوك. لقد كان مدربي البدني».

بعد برهة طويلة، استدار أوك مبتعدًا نحو حطام النواة.

قال لوك بعصبية: «إنهم يوحدون صفوفهم. يجب أن نحذَر من تجدد المناوشات معهم بمجرد أن نعود إلى...».

قاطعته جلاس، قائلة بصوت خافت: «لا أعتقد ذلك. ليس لديهم مَن يأتمرون بأمره. إنهم يحتاجون لأكثر من بضع ساعات، للوقوف على حقيقة وضعهم الجديد. يجب أن يكتشفوا طريقة لإعادة الروابط بين بعضهم بعضًا. كما لا توجد قرى قريبة لينتقلوا إليها، على حد علمي. لا يتعين علينا القلق بشأنهم مرة أخرى».

توقفت للحظة، مفكرةً في كل ما عانوه حتى الآن.

- هل أنتم من أجرى هذه التفجيرات؟

ابتسم، ثم عقد حاجبيه: «إنها ليست أفضل إبداعاتي. لم يسمح لنا الوقت إلا بساعة واحدة لزرع المتفجرات، ولم أتأكد من مدى احتمال الأساسات المتداعية...

ضغطت على ذراعه، قائلة: «لقد أنقذتَ كل هؤلاء الناس، يا لوك».

جذبها إليه، مردفًا: «إنني سعيد بما أنجزنا. إنما بالحقيقة... لم أفكر إلا في إنقاذ شخص واحد فقط. لم أتوقع مقدار الضرر الذي نتج عن ذلك، يا جلاس. إذا لم أجدك سالمة.. لا أعرف ماذا كنت سأفعل».

أسرعت بالقول، وهي ترفع خصلة مجعدة منسدلة عن عينيه: «لا تشغل ذهنك بذلك. لقد فعلت ما توجب عليك فعله. والآن.. علينا التطلع للأمام فقط».

شردت نظرة عينيه، كما لو خطرت له فكرة ما. خفق قلبها لرؤية هذه النظرات المألوفة مرة أخرى، وغمرها ارتياح لعودتها إلى جانبه.

- لنتجه نحو الغابة، عند المنحنى القادم للنهر، ونقيم هناك معسكرًا مؤقتًا، نحيطه بحراسة جيدة. يمكننا إشعال حلقة نار، وتوفير بعض

الدفء لهذا الحشد. لاحقًا، نكمل طريقنا نحو الغرب، حتى نصل إلى المخيم في الغد.

ابتسمت مؤيدة، فيما هز رأسه، سائلًا: «لكن ماذا عن الأعداء الباقين؟».

أخذت يده، ورفعتها إلى شفتيها: «على ما أعتقد، سيعودون إلى ديارهم، أو يمكنهم بناء ديار جديدة. إن ما فعلتَه قد منحهم هذه الفرصة».

خطا لوك بضع خطوات نحو ويلز، الذي تقدم الصفوف، فأومأ متحمسًا، وأشار للجميع نحو الغرب.

عند المنحنى التالي، أدركت جلاس أنه ليس لديها تصور واضح، عن وضع المخيم حاليًّا. هل دُمِّر بالكامل، أم لا يزال الناس هناك صامدين؟ في كلتا الحالتين، يتوجب عليهم إعادة بنائه، وستقدم كل ما في وسعها للمساعدة.

تباطأت مشيتها عند حافة النهر، ورفعت رأسها نحو سماء الصباح، باحثةً عن نقطة الضوء اللامعة، حيث اعتادت أن تعيش. نادت بقلبها، وقد غشَّى عينيها الضباب الأبيض: *لقد نجوتُ يا أمي. إنني على الأرض. لن أتوقف عن شكركِ أبدًا.*

الفصل الحادي والثلاثون

بيلامي

إنهم في حاجة لجمع الحطب من أجل حلقة النار، وللصيد من أجل تحضير العشاء لأصدقائهم وحلفائهم الجدد، ومع ذلك، يرى بيلامي أن كل هذا يمكنه الانتظار، ريثما تخبره أخته عن صديقتها المقربة: «ربما تعرفها، فهي ولدانية. بينما لم أقابلها من قبل، رغم شعوري أننا نعرف بعضنا بعضًا منذ زمن بعيد. إنها لطيفة للغاية. أقصد أنها في خضم الظروف التي مررنا بها، دومًا ما تجد طريقة لتجعلني أضحك...».

لم يستطع التوقف عن الابتسام، ولا يرجع السبب إلى حماستها المتقدة فقط، بل ولأنها واقفة أمامه، سالمة معافاة، وتتصرف ببساطة كأنه لم يحدث شيء خلال الأيام السابقة، غير مقابلة آنا.

كل ما واجهته أوكتافيا طوال حياتها، كان يجب أن يضعفها، غير أن أخته الصغرى صامدة كالفولاذ، لا يكسرها شيء. إنه فخور بها، ومنبهر بقوتها، كما هو شأنه دائمًا. هز رأسه ببطء، ثم عاد يستمع إليها باهتمام.

- كما أنها بارعة في خلق ابتكارات جديدة! صدقني، إن عقلها يعمل على نحو مدهش. لقد تدربت للعمل بأنظمة ضخ المياه على متن السفينة، وها هي الآن، تساعد لوك في صنع المشاعل. إذا عملا الاثنان معًا، عندما نعود للمخيم، يمكنها أن تساهم حقًّا في... *ماذا؟*

وضعت أوكتافيا يديها على خصرها، عندما لاحظت تعبيرًا فكاهيًّا مبالغًا فيه على وجهه، لكنها أخطأت فهم تعبيراته، بالطبع.

ضحك بيلامي، فاتحًا ذراعيه: «إنني أصدقكِ! من الواضح أن صديقتكِ ذكية ورائعة».

أطرَقَت ناظرةً إلى الأرض: «لا أعرف إذا ما أصبحت صديقتي حقًّا».

رفع حاجبيه: «إذن، اسأليها في الحال. لا تنتظري».

أخذت نفسًا سريعًا، وزفرت بقوة: «أعتقد أنك ستعجب بها حقًّا».

لم يسبق أن رآها بهذا القلق البالغ. جذبها إليه، وعانقها، قائلًا: «بالطبع، سأفعل».

تطلعت إليه بعينين تلمعان، قبل أن تنطلق عبر الدرب الترابي باحثةً عن آنا. بعدما راقبها تبتعد، التفت نحو حلقة النار، واستقر نظره على كلارك. رآها جاثمة على ركبتيها، وتنحني إلى جوار أحد الأسرى الناجين الذين أُصيبوا جراء انهيار النواة. تبدو في غاية العزيمة والإصرار والعطف، لدرجة أن أنفاسه انحبست بصدره. عندها أدرك يقينًا ألا قيمة لحياة مستقبلية دونها.

عاد ويلز من الغابة، يحمل أغصانًا من أجل المشاعل. فدفع أفكاره جانبًا، واقترب منه.

- هل تحتاج للمساعدة؟

مسح ويلز العرق عن جبهته، لاهثًا. ثم قال، فيما يجول ببصره في الجمع من حوله: «لا نحتاج مساعدة بالحطب في الوقت الحالي. لكننا بحاجة لقدرتك للحصول على صيد ثمين من أجل العشاء. أو بالأحرى.. وليمة ثمينة».

هز بيلامي كتفيه مبتسمًا: «لا داعي للقلق. سنتكفل بهذا الأمر في طريقنا».

ابتسم ويلز في إنهاك: «لقد سار الأمر على نحو جيد، أليس كذلك؟».

قال، مربتًا على كتف أخيه: «نعم. لقد استطعت حشد كل هؤلاء المجندين وإنقاذهم.. كم عددهم؟ أربعون؟».

حك ويلز فكه، وأجاب بهدوء: «أربعة وخمسون. لقد أجريت حصرًا سريعًا».

أومأ بيلامي منبهرًا: «إنه عدد كبير. الشكر لك على إنقاذهم».

ربت على ظهره، مردفًا: «الشكر لكلينا».

عندها، امتقع وجهه، ولاح الألم بعينيه. سأله بيلامي: «ماذا دهاك؟ ماذا حدث؟».

- لم ينجُ جراهام.

عاد يسأله، وقد بح صوته: «هل.. هل قتلوه؟».

في وقتٍ ما، أراد بيلامي نفسه أن يتخلص من جراهام بيده. كأن دهرًا قد مضى، منذ حينها. فقد عمل جراهام بجِد ليصبح عضوًا مفيدًا في مجتمعهم الجديد، ومجرد تخيُّل جسده هامدًا في مكان، تحت تلك الأنقاض، يجعله يشعر أن نصلًا حادًّا ضرب صدره.

أخذ ويلز نفسًا عميقًا: «لقد... ضحى بنفسه لإنقاذنا. لقد أدى بموته عملًا بطوليًّا شجاعًا، لا يمكن مقارنته بأي شيء فعلتُه».

لبرهة طويلة، وقفا مكانهما في صمت تام، يتطلعان نحو الحشد المنتشر بأرجاء المعسكر. تحلق البعض حول شعلة النار، يلتمسون بعض الدفء، وانشغل البعض الآخر في تحضير المؤن من أجل رحلة العودة. وذهب القليل منهم للتجول بالغابة، وقد أصابتهم الدهشة من قدرتهم على التحرك بحرية.

قال ويلز: «أتساءل إلى أين سيذهبون».

هز بيلامي كتفيه: «في اعتقادي.. سيذهبون أينما ذهبت أنت».

شردت عيناه، كأنما يمعن التفكير.

- هذا أفضل لهم، صحيح؟ إذا عادوا معنا؟

- أعتقد أنه كلما زاد العدد، زاد المرح. يجب أن تتخذ القرار أولًا.

هز ويلز رأسه، مستنكرًا: «لست عضوًا بالمجلس مثلك. أنت من عليه اتخاذ القرارات».

قد يعني ذلك المزيد من الأفواه لإطعامها، والمزيد من الناس لإيوائها. مهما تطلب الأمر، ما زال هناك متسع للجميع على سطح هذا الكوكب. وما عليه إلا أن يتأكد من قدرة البعض منهم على الصيد.

رأى كلارك عند حلقة النار، وقد نهضت، وأخذت تنفض يديها من التراب، فخطا نحوها. سألها، مشيرًا باتجاه المصابين: «كيف حالهم؟».

- بخير، حتى الآن. يتوقون للذهاب. أعتقد أننا ستتحسن حالتنا، عندما نبتعد بقدر الإمكان عن هؤلاء...

أومأت برأسها في توتر نحو الجنوب الشرقي. تشنجت عضلات كتفيه. لقد ساروا بمحاذاة النهر لساعات، حتى أصبحوا على مسافة عدة كيلومترات من حصن الحُماة. ومع ذلك، يوافقها الرأي. من الأفضل أن يسرعوا في العودة للمخيم.

اقتربت أوكتافيا، تركض من الغابة، وخلفها آنا، تهرول باسمة. تحمل الفتاتان فروع شجر رطبة، ملتفةً بقطع قماشية مبللة، فيما تصيح أوكتافيا: «لدينا مشاعل!».

قالت آنا بنبرة جافة، فيما تطرف بعينيها تجاه سماء الصباح الضبابية: «حسنًا، أدركتُ أن السماء لم تظلم بعد. لكننا سنحتاج إليها، عندما نعسكر هنا طوال الليل، وخاصة أن لا أحد منا سيأمن النوم بجوار هذه النار الليلة».

أشارت نحو حلقة النار، فسقطت معظم المشاعل عن ذراعيها. انحنى بيلامي لمساعدتها، فقالت: «يا إلهي! إن التأنق ليس من مهاراتي على الإطلاق».

ثم صافح آنا في ابتسامة عريضة: «إنني سعيد بلقائكِ يا آنا، وسعيد بقدومكِ معنا».

مدت أوكتافيا يدها، وتشابكت أصابعهما: «لا أطيق الانتظار حتى نعود لوطننا».

تردد صدى هذه الكلمة، مثل قرع الأجراس بصدره. على الرغم من أنهم يتجهزون لرحلة العودة، يشعر في قرارة نفسه أنهم بالوطن في هذه اللحظة. إن وطنه يوجد أينما تكون عائلته. بعد أسبوع شاق، لُمَّ شملهم معًا. عثر على أخته آمنة وسعيدة، وأخيه سالمًا وقد عاد لطبيعته، التي افتقدها لأكثر من شهر، وكذلك كلارك... ابتسم باتجاهها بلطف، مدركًا أنه ذكرها كونها أحد أفراد عائلته. عندها خفق قلبه بوتيرة أعلى وأكثر يقينًا. تهللت أساريره، متطلعًا في اتجاه طريق العودة. *هذا ما تعنيه العائلة. إنهم أولئك الذين نقاتل من أجلهم، أولئك الذين لا يمكننا الحياة دونهم. ولذلك، هناك أمر ينبغي له فعله.*

الفصل الثاني والثلاثون

وِيلز

تعرَّقت وجوههم، وتلطخت بالوحل، وأصابهم إرهاق شديد.. لكن ها هي الشجرة المنقسمة علامة اقترابهم من المخيم، أمام ناظريهم. لقد استغرقت رحلتهم يومين من الشقاء، منذ أن تركوا حصن النواة. وأخيرًا، وصلوا لوطنهم.

على الرغم من احتياجهم جميعًا للطعام وللتدفئة ولقسطٍ من الراحة، أراد ويلز أن يعمل بأسرع وقت ممكن. تمنى أن يتمكنوا من العثور على ما يحتاجونه هنا، قبل أن يُثير دخولهم المفاجئ الفوضى والارتباك.

من خلفه، صاحت جيسا وكيت، وباقي الأرضيين، في سعادة عند ملاحظتهم الشجرة. اتسعت ابتسامته، إلا أنه سرعان ما رفع يده. خاطب الجميع: «يجب أن ننتظر لبعض الوقت، ونرسل فريقًا للاستطلاع. يجب أن نتأكد من استعداد المخيم لاستقبالنا، بعد كل ما حدث. كما أنه ليس الجميع هنا وجوههم مألوفة».

جال ببصره بين الحشد. إن معظمهم غرباء عن شعبه بالمخيم. آثر بعض الأسرى الناجين أن يشقوا طريقهم للعودة إلى ديارهم، على أمل إعادة بنائها، بعدما نُهِبت مواردها. في حين، يريد الباقون بدء حياة جديدة، ولذا واصلوا معهم المسير حتى هنا.

بغض النظر عن الطريق الذي اتخذه كلٌّ من الفريقين، يدفعهم التحدي والأمل على حد سواء. لتنبثق من رماد النواة، مجتمعات مشرقة، لم يستطع تصورها أحد من الحُماة.

أخذ نفسًا، مفكرًا. ثم أشار لبعض الأشخاص: رجل أرضي، أحد أعضاء فرقة الإنقاذ، ووجه جديد من الناجين: «كيت، كلارك.. كوب. تعالوا معي».

شق كلٌّ من كيت وكلارك طريقهما بين الحشود، فيما عدا كوب، الذي تلفت حوله في ارتباك. ابتسم له مشجعًا، ولوَّح له بيده: «إذا تعرفوا عليك، لن يقلقوا بشأن أحد من الغرباء».

اتسعت ابتسامة الفتى، وهرول لينضم إليهم. عندها تقدم الأربعة نحو المخيم معًا، تاركين الآخرين في انتظارهم.

سُمع صدى تحطم عن قرب، وأطلق كوب صراخًا حادًّا. التفت إليه ويلز، ليجد الفتى قد تعثر بسلك الحماية. لا بد أن هذا الضجيج تسبب بإطلاق نوع من الإنذار.

قال له برفق، بمجرد أن ظهر بعض الحراس من وراء الأشجار، يصرخون بهم ليرفعوا أيديهم، ويركعوا على ركبهم: «لا بأس».

أطاعوا، وما إن رفعوا أيديهم، وركعوا فوق الطين الرطب، صرخ أحدهم: «كلارك! ويلز! لا أصدق.. لقد عدتم! لقد أنقذتموهم!».

تطلعت كلارك لأعلى وابتسمت. زفرت ببطء، قائلة: «من الجيد رؤيتك، يا ويلا!».

مدت ويلا يدها لتساعدها، فيما أخفض الحراس الستة الآخرون أسلحتهم، ولقد لمعت أعينهم.

سأل حارس آخر: «هل عاد أربعة منكم فقط؟».

قال ويلز: «لقد تركنا حشدًا كبيرًا من الناس على مسافة قريبة من هنا، منهم أسرانا الناجون، وفرقة الإنقاذ.. وآخرون».

تبادل الحراس نظرة قلقة، قبل أن يطلب منهم ويلز: «نريد مقابلة المجلس. بإمكانهم مساعدتنا في تقرير الخطوة التالية.. إذا ما رُحِّب بأصدقائنا الجدد».

وجهت إليه ويلا نظرة تقدير، وهزت كتفيها: «يبدو أمرًا جيدًا بنظري».

ثم استدارت لتقود الطريق، بينما تبادل باقي الحراس النظرات ثانيةً، قبل أن يتبعوا ويلا.

همس كيت عند حافة المخيم: «يمكنك فعل ذلك».

التفت إليه مدهوشًا، فابتسم كيت متابعًا: «ما دمتَ استطعت تزعُّم مجموعة من المجندين المذعورين، وأوقدت بقلوبهم نار التمرُّد، أعتقد أنك قادر على إقناع شعبنا أن يحتضن بعض اللاجئين».

أردف ويلز، هو يشحذ همته: «آمل ذلك».

لم يجد المخيم بأفضل حال، رغم أنه لا يخلو من بوادر الأمل. حيث يُشوى في جانب منه غزالٌ على نار هادئة، ويعمل الرجال والنساء معًا بكد على إعادة بناء الكبائن، عند جانب آخر. كما لا تزال المشفى صامدة، ويتصاعد من مدخنتها خط دخاني مطمئن نحو السماء.

لاحظته كلارك كذلك، فسارعت الخطى نحوه. يعرف أنها متلهفة للاطمئنان على والديها. قال لها: «هيا، انطلقي».

ابتسمت له وهرولت مبتعدة، وشعرها الطويل يطير خلفها.

تركه كيت أيضًا، وذهب مسرعًا لتحية أصدقائه الأرضيين، الذين يُعلِّمون بعض المستوطنين طريقة طحن الحبوب لصنع الخبز. لم يبقَ غيره وكوب، بصحبة الحراس، في طريقهم نحو حلقة النار بمنتصف المخيم، حيث يتحدث رجلان متقاربَي الرأس.

استدار إليهم رودس أولًا، ثم تبعه ماكس. تحول وجه زعيم الأرضيين، في لحظة، من صدمة مُرَّة إلى فرحة عارمة. وقبل أن يقول ويلز كلمة واحدة، عبر ماكس المسافة بينهما، فاتحًا ذراعيه على اتساعهما، وعانقه، في نشيج حاد. قال باكيًا، مما دفع بالدمع بعينَي ويلز: «لقد عدتَ يا بني. تمنيت عودتك بفارغ الصبر. لم أعرف ماذا...»، توقف لبرهة، ثم ابتسم، وأومأ بفخر: «لكن ها أنتم، قد عدتم للديار».

ابتلع المرارة بحلقه، ليقول: «لم يعد جميعنا.. لقد فقدنا جراهام».

جفل متذكرًا وجه ليلا عندما أخبرها. تحكمت بأعصابها، ولم تنهَر، رغم أنه يعلم بشأن مشاعر الإعجاب لديها تجاه جراهام، التي تكونت خلال الأسابيع القليلة الماضية.

- جاء معنا آخرون، وللمفاجأة، بعضهم من المستوطنين. هبطت سفينة إنزالهم جنوبًا، بالقرب من هنا. والبعض الآخر، صاروا أصدقاء لنا.

أشار إلى كوب، بينما رفع ماكس حاجبيه في عدم تصديق، يطل من عينيه، وقال: «أصدقاء؟ كم عددهم؟».

- تبعًا لآخر إحصاء أجريناه، فهم أربعة وخمسون، غادر منهم عدد قليل للعودة لديارهم القديمة. ولقد شهدت بنفسي.. أن هؤلاء الأصدقاء الجدد، أناس طيبون.

تبادل ماكس ورودس النظرات، حتى هز رودس رأسه، قائلًا: «ما دمتَ تثق بهم، فيمكننا الوثوق بهم أيضًا. نحتاج بالتأكيد إلى كل مساعدة ممكنة للانتهاء من إعادة البناء قبل الشتاء. أحضِرهم جميعًا».

نظر إلى الحراس بحذر، واستطرد متسائلًا: «هل تبعك أحد من الأعداء؟ هل نحتاج لتشديد الحراسة؟».

- لا أعتقد أننا سنحتاج لذلك. بعد انتفاضة الأسرى، ونجاح خطة فريق الإنقاذ، لم يبقَ داعٍ للقلق بشأن الحُماة بعد الآن.

سأل ماكس، وهو يهز رأسه مستنكرًا: «هل يسمون أنفسهم حُماة؟».

قال رودس بابتسامة حزينة: «دومًا ما يظن الأوغاد أنفسهم أبطالًا»، ثم التفت إلى ويلز في تفاؤل، «ماذا يمكننا تقديمه لهم؟».

أسرع بالقول: «فقط احتياجات أساسية: ماءً وطعامًا وقسطًا وفيرًا من الراحة، ومساعدة طبية بالتأكيد».

أومأ رودس، ومد يده لمصافحة ويلز: «مرحبًا بعودتك.. يا سيادة العضو الجديد، جاها».

الفصل الثالث والثلاثون

كلارك

قالت والدة كلارك بلطف، وهي تمد يدها إليها بورقة شجر غريبة: «أقرب الظن أن هذه الورقة من شجيرة مزهرة تُسمى *سبيريا تومينتوسا*. يساعد شراب دافئ منها على علاج اضطراب المعدة، وفقًا للمذكور بالكتاب».

انحنت ماري لتنقر على السطح المغبر، لذلك المجلد القديم، الذي أعطاه لها ماكس في أثناء فترة النقاهة. يعود تاريخ الكتاب إلى زمن ما قبل النكبة، ويحتوي تفاصيل عن أعشاب طبية بهذه المنطقة. خلال الأيام الماضية، بعد ذهابها بصحبة فريق الإنقاذ، تولى والداها زمام مبادرة جديدة لتعزيز الإمدادات الدوائية المتضائلة بالمخيم، عن طريق إعادة إنتاج مواد المستوطنة العلاجية، باستخدام نباتات محلية.

دققت النظر بورقة الشجر، لحفظ تفاصيلها، لكن أشد ما أثار اهتمامها هو يد والدتها.. الناعمة الدافئة، المفعمة بالحياة. أخبرها الطبيب لاهيري أنها تعافت في وقت قياسي.

وضعت ماري زهرة ذات ثلاث بتلات رقيقة على الطاولة، واستطردت: «وهذه الزهرة تُسمى بونسيت. لقد استُخدِمت قديمًا، على اعتقاد أنها تساعد في تجبير العظام، كما هو واضح من اسمها، إلا أنه، للأسف، اعتقادٌ مبنيٌّ على خرافة قديمة. ومع ذلك، لها بعض الفوائد في علاج الحمى، لذا سأتابع تجربتها، لنرى كيف يمكننا أن نطورها...».

عانقتها كلارك بامتنان وحرص، حتى لا تحتك بجرحها.

- كم أنتِ رائعة!

دخل والدها في هذه الأثناء، وهو ينفض يديه في بنطاله، مبتسمًا: «هذا مديح عظيم من فتاة فجَّرت حصنًا هائلًا».

توردت وجنتاها: «لم أفعل ذلك بمفردي».

قالت والدتها بعينين لامعتين: «لقد شاركتِ بذلك، ولذا نفتخر بكِ».

تشعر كلارك بالفخر كذلك، بينما تتأمل العمل الذي يجري بالخارج على قدم وساق، لإعادة بناء المخيم. لقد أحدث الهجوم الضرر بشعبهم، لكنه لم يضعفهم، بل تعافوا سريعًا، ونهضوا للعمل.

لم يتوانوا عن تقديم يد المساعدة، منذ عودتهم بالأمس. انشغلت بتقديم العلاج بالمشفى على الفور، لدى احتياج بعض الناجين إلى رعاية طبية مكثفة. تطوعت جلاس للإشراف على أعمال تقطيع الأشجار والتمهيد لأول حقل للمستوطنين على الأرض. كما استعاد ويلز نشاطه، وانشغل بأعمال المجلس. أما لوك وعقله المعماري الفذ، فقد أتى بخطط جديدة نيِّرة.

لن يكتفوا بإعادة بناء الكبائن.. فقد أصبحت لديهم فكرة جريئة على بناء ما هو أفضل من ذلك. هناك خطة من أجل إنشاء عجلة مائية بالقرب من الجدول، لإمداد المخيم بالطاقة الكهربية، وإنارة مدرسة بفناء واسع. إنهم لا يفكرون في إعادة إحياء هذا المخيم، بل في بعث بهجته من جديد، لتصبح لديهم قرية حقيقية، تتوق كلارك لتصبح فردًا منها.

علا صوت بيلامي عند مدخل المشفى، مناديًا: «كلارك».

التفتت لتحيته باسمة، لكنها عبست فجأة. فقد تجعد جبينه، وتشنجت كتفاه، كما تلطخت قدماه بالتراب. هناك خطبٌ ما.

ألقى نظرة خاطفة إلى ما وراءها، ثم سألها على عجل: «أيمكننا التحدث؟ إنه أمر مهم».

قالت، مسرعة الخطى باتزان مراعاةً للمرضى: «نعم، بالطبع».

لمست يدها راحته الباردة، فيما يقودها عبر الحركة النشطة بالمخيم. تلعب أوكتافيا وآنا مع الأطفال، في صخبٍ عالٍ، لعبة البطاقات. أما بمنتصف

المخيم، يدرس لوك وجلاس مخططًا لأبراج المراقبة. كما عرجا بالطريق على ركن المواقد، حيث يُجرى صنع خبز طازج، ثم رأت ويلز، يحفر اسم جراهام على شاهد قبر. تابعا حتى وصلا إلى موقع إنشاء الكبائن الجديدة.

ازداد تقلص معدتها مع كل خطوة. ماذا رأى بيلامي هذه المرة؟ هل يواجهون خطرًا آخر؟ أم أنه أعاد التفكير في أمرهما، وقرر أنه غير مستعد لمسامحتها رغم كل ما حدث؟

أخيرًا، وصلا عند رقعة أرض بزاوية المخيم، أُخلِيَت من الشجر، توقف، ثم التفت إليها صامتًا، رافعًا حاجبيه، كما لو ينتظر تعبيرًا ما على وجهها. هزت رأسها، وتطلعت حولها، ولم تجد شيئًا مثيرًا للقلق.

مدَّ ذراعيه، مشيرًا لما حوله: «ما رأيك؟».

- بماذا؟

حرك عينيه حوله في توتر: «بموقع هذه البقعة».

- إمم.. لطيف؟

أخذ نفسًا عميقًا، ثم تابع: «جيد.. جيد.. هل تعتقدين أنه موقع مناسب لبناء كابينة.. من أجلنا؟».

تشوش ذهنها، وهي تحاول استيعاب ما يقصد.

- كابينة من أجل...

تلاشى القلق من عينيه، أخذ يدها بيده وضغط عليها.. ثم ركع ببطء على إحدى ركبتيه. مد يده بجيبه وأخرج خاتمًا فضيًّا. همس: «من أجلنا يا كلارك».

بح صوتها، وصار همسًا خافتًا: «أوه.. بيلامي. من أين حصلتَ عليه؟».

أجابها باقتضاب كعادته.. رغم ارتعاشة يديه: «قايضت شيئًا بالمقابل».

تعرفت على هذا الحجر الأزرق الداكن بقلب الخاتم. رفعت يديها وضغطت على صدرها، كأنها تحاول منع قلبها من القفز خارجًا.

- بيل، إنه.. إنه...

أكمل جملتها: «إرث عائلة جريفين».

هزت رأسها، عاجزة عن الكلام.

- من أين... كيف...؟

إن هذا الحجر هو إرث أسلافها، ولقد جلبوه معهم عند الصعود على متن السفينة. منذ حينها، وُرِّث لعدة أجيال بعائلتها.

- كما قلتُ لكِ، عقدتُ مقايضة مع.. والدتكِ.

رفعه بتردد لأعلى أمام ناظريها، كما لو أن جزءًا منه لا يصدق أنها قد تقبل.

أخذت الخاتم، واحتضنته في راحة يدها: «بماذا قايضته في المقابل؟».

قال، حاملًا يدها بين راحتيه: «مقابل وعد. لقد وعدتُ أن أحبكِ، أحترمكِ، أكرمكِ، أحميكِ، أدافع عنكِ، أزعجكِ، أجادلكِ...».

ضحك، ثم تابع بتعبير جاد: «وعدتُ بالكثير والكثير. وسأبقى على وعدي لبقية حياتي وحياتكِ.. هل تقبلين الزواج بي، يا كلارك؟».

مالت إلى أسفل، واضعةً يديها على كتفيه، وانزلقت على الأرض إلى جانبه، تاركةً ذراعيها تتدلى على كتفيه. إن قُبلة حب واحدة تكفي لإعطائه الإجابة التي ينتظرها. إنما تحسبًا، أمالت رأسها، وغمغمت أمام شفتيه: «نعم».

تبادلا القُبل مرة أخرى، وجلسا متعانقَين على التراب، حتى شعرت، كما لو أن هذه الرقعة من الأرض، صارت كل المخيم، كل التلال والجبال والأنهار والبحيرات.. صارت كل العالم، وما وراءه.

رغم الصعاب التي واجهوها، منذ هبوطهم على الأرض، يبدو أن الكوكب بأكمله، يقول لهم، بالنهاية، ما يغمغم به بيلامي، بهذه اللحظة: «مرحبًا بكِ في منزلكِ».



شكر وامتنان

كان العمل على إنجاز هذه السلسلة متميزًا بحق، ولذا أشعر بالامتنان لكل من ساعد في تحويل هذا الحلم إلى حقيقة.

أتقدم بالشكر للجميع بألوي على دعمهم وتشجيعهم، وما قدموه من إبداع في كل مرحلة من مراحل هذه المغامرة. أخص بالذكر كلًّا من: سارة شاندلر، جوش بانك، ليس مورجنشتاين، لاني ديفيس، ثيو جولياديس، آني ستون، ليز دريسنر، وهيذر ديفيد. كما أتوجه بشكر خاص إلى: الرائعة جويل حُبيقة، التي أذهلتني، في أثناء الإعداد لسلسلة المِئة، بأفكار لا مثيل لها في عالم الخيال، وإلى رومي جولان، الذي لا يُضاهى إنجازه في تحويل خيوط متشابكة من الكلمات إلى سلسلة باهرة من الكتب، مما جنَّبنا أي احتمال لانفلات السياق المطلوب، وإلى النابغة إليزا سويفت، منبع الدقة التحريرية، التي استمتعتُ بالعمل معها.

أُعرب عن خالص امتناني للجميع في مجموعة ليتل براون ودار هودر آند ستوتن للنشر، وبالأخص بام غروبر، ليزلي شومات، ساراسيا فينيل، إميلي كيتشين، وبيكا موندي.

أتوجه بجزيل الشكر للفريق الرائع في وكالة ريتز بيبول، المسؤول عن التعريف بهذه السلسلة للقراء في جميع أنحاء العالم. كما أود أن أشكر جميع المحررين والمترجمين والمصممين والناشرين، الذين ساهموا في طرح إصدارات أجنبية مميزة من هذه السلسلة. يُعَد التواصل مع قرائكم امتيازًا مذهلًا حقًّا، لذلك أشكركم على إتاحة هذه الفرصة لمشاركة قصصي مع قرائكم.

إلى الموهبة الاستثنائية جين ماري ثورن، التي جعلت هذا الكتاب ينبض بالحياة بطرق لا حصر لها، كم أنتِ نجمة لا يُستهان بها. لا تزال أفكارك الفريدة تدهشني.

وبالطبع، أشكر في المقدمة قرائي الأعزاء. يجعلني اهتمامكم أسعد المؤلفين حظًّا في هذا العالم.



"سـريعة الوتيـرة أخّاذة.. يبـدو أن العديد من القضايـا المـثيرة قـد ظـهرت في مجتمع مـا بعد نهاية العالم هذا".

- The Bookbag

"مظلمـة وخاطفـة.. مزيـج مـن أمير الذبـاب وعبر الكون ومباريات الجوع".

- Booklist

"إن نَسْـج كاس مورجـان لعناصـر الثقافـة الشـعبية (البـوب) مـع السياسـة جعـل لقـراءة أعمالهـا جاذبية خاصة".

- School Library Journal

"سـيقع عشـاق مباريـات الجـوع في حب هذه السلسلة".

- Sun Journal



كاس مورجان

مؤلفة ومحـــــررة أمريكيـــــة، متخصصـــة في أدب الخيـــــال للشباب، وصاحبـــــة السلسلة الديسـتوبية الأكثـــــر مبيعًا في نيويـــورك تايمــــز "المئـــة"، المســتوحى منها أحداث مسلسل تليفزيوني شـهير بالاسـم نفسـه. كمـا صـدرت لهـا سلسـلة روائية ناجحة بعنـوان "سـنوات ضوئية"، ومؤخـرًا سلسـلة أخـرى بعنـوان "الغربـان". حصلت كاس على درجة البكالوريـوس مـن جامعـة براون، ودرجـة الماجسـتير مـن جامعـة أوكسـفورد، فـي مجـال الأدب الفيكتـوري، وتعيـش حاليًّـا فـي بروكلين، نيويورك.

المئة

تمرد

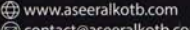
لا يوجد ما يسمى بالسلام على هذه الأرض.

لقد مر شهر منذ هبوط سفن الإنزال الأخيرة، وانضمام باقي المستوطنين إلى المئة على الأرض. مَن وُصِفوا مِن المراهقين بأنهم جانحون في الماضي، أصبحوا الآن قادة شعبهم، لذا وجب الاحتفال بوحدتهم مجددًا. لكن لم يمهلهم الخطر الجديد فرصة لذلك: قررت طائفة متعصبة أن تحشد قوتها من أجل "معالجة" الكوكب الذي دمرته الحروب.. من خلال القضاء على وجود أي أحد آخر على سطحه.

بعد أسر العشرات من أصدقائهم، انطلقت كلارك لتحريرهم، على ثقة أنه يمكنها التفاهم مع هؤلاء الغرباء. أما بيلامي فلديه خطة مختلفة، فهو لن يدع أي شيء -أو أي شخص- يقف في طريق إنقاذ مَن يحبهم. وفي ظل الرعب الذي تملك أصدقاءهم الأسرى، تقع جلاس تحت تأثير الرسالة الجذابة لهذه الطائفة، ويتعين على ويلز أن يتعلم مهارات القيادة من جديد.



إن لم يصل فريق الإنقاذ في أقرب وقت، سيواجه أصدقاؤهم مصيرًا مرعبًا، يصعب تخيُّله. إذا كانت رغبة المئة تسمية هذا الكوكب الخطر بالوطن، فهُم في حاجة إلى ترك خلافاتهم جانبًا، والقتال معًا لحماية أنفسهم وكوكبهم.



تصميم الغلاف: محمود هشام



9 789779 922324





عصير الكتب

www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb